قصة السامري
في سورة - طه - أحداثها وعبرها

أ.د. أحمد شكري
جامعة الإمارات العربية المتحدة - العين

مقدمة:

ذكرت قصة السامري في ثنايا قصة نبي الله وكليمه موسى ﷺ، وردت الإشارة إلى بعض أحداثها في عدة سور[1]، ولكن السورة الوحيدة التي ذكر فيها اسم السامري مع تفصيل قصته هي سورة طه، ونظراً لما تحويه القصة من عبر كثيرة نافعة للدعاة السائرين على منهج الأنبياء، ولأبناء هذا الزمان، ولما فيها من اختلاف وأقوال متعددة وعدم تحقيق بعض أحاديثها رأيت كتابة هذا المقال، وقسمته إلى ثلاث مباحث، الأول: تفسير الآيات التي وردت فيها القصة بإجمال، والثاني: تحقيق القول في العجل الذي عبده بنو إسرائيل، والثالث: العبر والعظات والدروس المستنبطة من القصة.

المبحث الأول

تفسير الآيات الكريمة التي ذكرت فيها قصة السامري.

وردت قصة السامري في سورة طه. وهو الموضع الوحيد في القرآن الكريم الذي ذكرت تفاصيل القصة من أولها إلى آخرها، ولعل ما جرى عليه أكثر المفسرين من بدء القصة بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾[٨٣] أقرب مما فعله بعضهم بجعلها تبدأ من: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ [٨٠] لتعلق هذه الآيات بموضوع آخر وحادثة أخرى. وسأقتصر على ذكر القول الذي أراه راجحاً فيما ذكر فيه المفسرون أكثر من رأي رغبة في الإيجاز والاختصار.

تبدأ أحداث القصة بعد خروج موسى ومن معه من قومه وهم سبعون رجلاً، لتلقي التوراة من الله تعالى. واستخلف على قومه أخاه هارون. وكان موسى عليه السلام. في شوق للقاء الله ومناجاته فوصل

إلى الموقع المحدد قبل أصحابه ومرافقيه. فسأله ربه - وهو أعلم به- عن سبب عجلته. فأجاب عليه السلام. بأنه إنما أسرع شوقاً ورغبة في نيل رضا الله وتلبية لأمره سبحانه. وبأن المختارين من قومه سيتبعونه وسيلحقون به قريباً. والظاهر أن هذا السؤال كان بعد أن تلقى موسى التوراة وبعد قضائه مدة أربعين يوماً بعيداً عن قومه. وكان أخبرهم أنه سيغيب عنهم شهراً. فأخبره الله تعالى أنه ابتلى قومه واختبرهم بعد خروجه من عندهم. وذلك حين دعاهم السامري إلى عبادة العجل الذي صنعه من الحلي زاعماً لهم أنه إلههم وإله موسى.

وكان هذا الابتلاء سبباً لضلال معظم القوم. وبعد أن علم موسى بما حصل مع قومه سارع إلى الرجوع إليهم. وقد اعتراه غضب منهم وأسف على فعلهم. وتوجه إليهم باللوم والعتاب على ما حصل منهم مذكراً إياهم بالوعد الحسن من الله تعالى لهم. وبنعمه تعالى عليهم بإنجائهم من بطش فرعون وجنوده. وقال لهم موسى عليه السلام مستنكرا صنيعهم: هل طال عليكم الزمن فنسيتم عهد الله لكم. أم أنكم رغبتم بحلول العذاب ونزوله بكم فأخلفتم ما وعدتموني به من الثبات على الحق والطاعة. والتزام أمر الله.

واعتذر قوم موسى عما فعلوا بأسوأ صور الاعتذار وأقبحها. وهي إسناد الفعل إلى الغير هروباً من تحمل المسؤولية وإلقاء اللوم على الآخر. فقالوا: إن إخلاف وعدنا لك بالطاعة لم يكن باختيار منا أو رضا. ولكننا شعرنا بالإثم والحرج مما أحضرناه معنا من مصر من حلي وذهب بغير وجه حق. فوجّهَنا ونصحنا السامري إلى التخلص من هذه الحلي بجمعها في مكان واحد تخلصنا منها ومن وزرها. وفعل هو ذلك وألقى ما معه من حلي. وتبعناه في هذا التصرف. ولم نكن نعلم أنّ السامري لم يقصد بفعله هذا خيراً. فصنع من هذه الحلي تمثالاً مجسداً على هيئة عجل. وأتقن صناعته وتصميمه. وجعل فيه منافذ للهواء. تجعله يصدر صوتاً يشبه صوت خوار البقر. وزعم أن هذا العجل هو إله بني إسرائيل وإله موسى ولكن موسى نسي ذلك، وذهب يبحث عن إلهه في مكان آخر. فهذا ما حصل معنا حيث صدقنا السامريَّ واتبعناه فيما قال.

وغاب عن أذهان القوم وعقولهم أن هذا العجل مجرد تمثال مصنوع من الحلي لا يتكلم ولا يضر ولا ينفع. فكيف انطمست بصائرهم وعميت قلوبهم عن ذلك وعبدوه؟ وأصروا على ذلك مع أن هارون نصح القوم وبين لهم شناعة فعلهم وقبح صنيعهم. وعدم استحقاق مثل هذا التمثال أن يعبد. وأن من يستحق العبادة هو الله الرحمن. واجتهد هارون في نصحهم ومحاولة إقناعهم ولكنهم لم يسمعوا له ولم يستجيبوا لقوله. وانغمسوا في ضلالهم. وردوا على هارون رداً قبيحاً يظهر سخافتهم وقوة افتتانهم بهذا العجل مقيمين حوله معظمين له حتى يرجع موسى ويبين لهم الحق.

وبهذا يظهر أن هارون قام بواجبه بما أوصاه به موسى عليه السلام من الإصلاح والدعوة إلى الخير وعدم السكوت على الباطل. ولكن موسى عليه السلام توجه إليه معاتباً سائلاً إياه عن سبب عدم زجره القوم عما فعلوا، وعدم تغيير هذا المنكر الفظيع. وبلغ من شدة غضب موسى أن أمسك برأس أخيه هارون ولحيته يشده بهما. وكان جواب هارون على السؤال- بعد أن طلب من موسى أن يتركه. وناداه بابن أم استعطافاً له وترفيقاً لقلبه- أنه خشي إذا أغلظ لهم القول. وبالغ في الإنكار أن يستجيب بعضهم له ويعرض آخرون فينقسموا إلى فريقين.

ويحصل بينهما قتال وسفك دماء فتلومني على ذلك، وتتهمني بعدم الانقياد لكلامك ونصحك لي بالإصلاح في القوم إلى حين عودتك. وظهر لموسى من إجابة أخيه النبي الكريم هارون أنه بذل جهده وحاول إصلاح الخلل سالكاً في ذلك منهجاً غلَّب فيه جانب اللين في القول خشية حصول الفُرقة والاختلاف، وآثر بعده الترقب وانتظار عودة موسى من المناجاة.

توجه موسى بعد ذلك باللوم والسؤال إلى السامري قائلاً له: ما الذي فعلته في القوم ولماذا أقدمت على فعلتك هذه؟ وهنا أظهر السامري حقده وسوء طويته معلنا أن اتباعه لموسى لم يكن عن قناعة وإذعان، وأنه بعد أن تعلم شيئاً يسيراً من دين موسى نبذه وتركه. وبسبب مهارته الفائقة في صناعة التماثيل وخبث نفسه وسوء فعله احتال تلك الحيلة على بني إسرائيل فصنع لهم العجل وطلب منهم عبادته وتعظيمه والعكوف عنده، وهذا اعتراف بالجرم الخطير والفعل القبيح.

وكان قرار موسى بمعاقبة السامري على سوء فعله بعقوبة مؤلمة له، يعامل من خلالها بعكس ما قصده مما فعل. فقد هدف من خلال ما فعل إلى أن يكون معظماً في القوم مقدماً بينهم، فكانت عقوبته النفي والإخراج والطرد. والإبعاد عن بني إسرائيل حتى الموت، يرافق ذلك هجران الناس له وعدم تكليمهم إياه أو القرب منه حتى يهلك وهو منبوذ مبعد مطرود، أما عذاب الآخرة له فهو عظيم رهيب لا يمكنه الفرار ولا النجاة منه، وسيكون في موعده الذي قدره الله له.

أما الإله المزعوم العجل المعبود من دون الله فتم حرقه أو إحراقه[٢] ثم تذريته في البحر. لئلا يبقى منه عين ولا أثر. وليظهر للجميع أنه ليس إلهاً وأنه لا يستحق التعظيم والتبجيل[٣].

المبحث الثاني

تحقيق القول في العجل الذي عبده بنو إسرائيل

في هذه القصة كما في العديد من القصص القرآني والعديد من الآيات الكريمة، مجموعة من القضايا تحتاج إلى تمحيص وتحقيق وبحث وترجيح بين الأقوال[٤]. وسأقتصر في هذا المقال على تحقيق إحدى هذه القضايا لما لها - فيما أرى - من أهمية بالغة. وهي حقيقة العجل الذي صنعه السامري وعبده بنو إسرائيل. وأذكر قبل ذلك في مقدمتين لهما صلة بالموضوع:

الأولى: التعريف بالسامري: كان السامري أحد أتباع موسى الذين خرجوا معه من مصر. والظاهر أنه كان يبطن الشرك والكفر ويظهر الإيمان، ولعله كان أحد عظماء بني إسرائيل، وكفى به داعياً على النفاق وفعل ما فعل. واتباع الناس له فيما أمرهم به لعلمهم بمكانته ومنزلته السابقة فيهم.

والسامري اسمه. وقيل هو لقبه، واختلف في اسمه فقيل موسى وقيل هارون وقد يكون غيرهما، وهو اسم أو لقب أعجمي. وقد تكون الياء فيه للنسبة، وقد تكون من بنية الاسم كما في عليّ وكرسيّ. وقد يكون هذا الرجل أصل طائفة السامرة. وهي فرقة من اليهود لهم تعاليم تخالف ما عليه جمهورهم من اعتقادات. وليس بينه

وبين «مدينة اليهود السامرة» الواقعة قرب مدينة «نابلس» في فلسطين أية صلة لأن بناء مدينة السامرة كان بعد هلاك السامري بعدة قرون مما يبعد وجود صلة بينهما[٥].

ويحتمل أن يكون السامري نسبة إلى «شومير» ومعناه بالعبرية الحفظ والحراسة، ويدل هذا

الاحتمال على أنه كان أحد كبار الكهنة مما يسر له التأثير على الناس لاحقاً"[٦].

الثانية: ذكر بعض المفسرين والمؤرخين والمؤلفين في قصص القرآن أن عبادة البقر والعجول كانت موجودة في مصر قبل موسى بزمن طويل. وأن العجل كان عندهم رمزاً للقوة والإخصاب. وكانت صور ملوك الأسر الحاكمة القديمة على هيئة الثور. كما وجدت تماثيل قديمة في مصر على هيئة بقر مصنوعة من ذهب أو مكسوة به[٧].

ويمكن لنا من خلال ذلك تلمس السبب الذي جعل السامري يختار العجل ليصنعه لبني إسرائيل. وجعلهم يسارعون إلى عبادته وتعظيمه.

أنتقل الآن إلى ذكر الأقوال في العجل المعبود. وهي كما يلي:

القول الأول: إن السامري دعا بني إسرائيل إلى إلقاء الحلي التي معهم في حفرة حفرها تطهيراً لأنفسهم من وزر الاستيلاء عليها من القبط بالحيلة. فاستجابوا لطلبه وألقوا ما معهم من حلي وذهب في الحفرة. وأحرقه السامري بنار أوقدها، فأصبح كتلة من الذهب. وكان السامري قد قبض قبضة من أثر قدم جبريل أو من أثر حافر فرسه لما أهلك الله فرعون ومن معه، أو لما كان يمشي أثناء غياب موسى عن بني إسرائيل. وألقي في روعه أنه إذا ألقى هذه القبضة على شيء دبت فيه الحياة أو أصبح كما يريد. فألقى السامري هذه القبضة على كتلة الذهب فانقلبت إلى عجل حي من لحم ودم ذي روح له خوار[٨].

القول الثاني: أن السامري حين ألقى القبضة على كتلة الذهب أصبحت تمثالاً على هيئة عجل يصدر خواراً كأنه عجل حي ولكنه تمثال وإن لم يكن تمثالاً عادياً. وفي بعض روايات الحادثة أن هارون رأى القبضة في يد السامري. فقال له: ألا تلقي ما في يدك. فقال: هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر فلا ألقيها بشيء إلا أن تدعو الله إذا ألقيت أن يكون ما أريد. فألقاها ودعا له هارون فقال السامري: أريد أن تكون عجلاً فاجتمع ما كان في الحفرة من متاع أو حلية أو حديد أو نحاس فصار عجلاً أجوف ليس فيه روح له خوار[٩].

القول الثالث: أن السامري بعد أن ألقى بنو إسرائيل الحلي والذهب في الحفرة عمد إليه وصنع منه بمهارة فائقة وجودة بالغة تمثالاً على هيئة العجل. وجعل فيه تجويفاً بطريقة محكمة تجعله إذا دخلت الريح فيه وخرجت منه يصدر صوتاً يشبه صوت الخوار[١٠].

القول الرابع: أن السامري أخذ الحلي من بني إسرائيل ولم يحرقها. ولم يرمها في حفرة. وأنه رأى عجلاً يشبه العجول التي رآها تعبد في مصر، فاشتراه من صاحبه. ودعا بني إسرائيل إلى عبادته[١١].

وبعد النظر في هذه الأقوال والتأمل فيها وفي أدلتها ترجح لي أن أولى هذه الأقوال بالقبول وأقربها إلى الصواب القول الثالث. ويمكن الاستدلال له بعدة أدلة تتضمن في ثناياها الرد على الأقوال الأخرى. وهي:

١. التعارض بين الروايات التي استدل بها القائلون بالقولين الأولين. وهو تعارض في كثير من جزئيات وتفاصيل الحدث. ومن الأمثلة على ذلك: الاختلاف في كون السامري من بني إسرائيل. وفي اسمه. وفي وقت رؤيته جبريل. ومصدر قبضته.

٢. من الإشكالات على القولين الأولين أن السامري

اختص دون سائر بني إسرائيل برؤية جبريل عليه السلام، وأنه اختص قبل ذلك برعاية خاصة من جبريل عليه السلام حيث إن أمه حين خافت عليه الذبح من جند فرعون أخفته في غار وأطبقت عليه، وكان جبريل يأتيه ويغذوه بأصابعه في واحدة لبناً، وفي واحدة عسلاً، وفي واحدة سمناً، وأنه لم يزل يغذوه حتى نشأ، فأية مزية لهذا الضال المارق أن يُمكّن من رؤية الملك الكريم، وأن يُمتّع برعايته الخاصة له، وأن يُمكن من أخذ شيء من أثره ليضل به الناس ويغويهم. وقد اختلف المفسرون والمحدثون في الحكم على هذه الرواية متناً وسنداً، ورأى بعض من قبل الرواية أن ما ورد فيها كان استدراجاً لهذا الرجل، وابتلاء واختباراً لقومه[١٢].

٣. توافق القول الراجح مع ما ذكره المؤرخون من تعظيم المصريين القدماء للعجول المنحوتة من ذهب.

٤. توافق القول الراجح مع وصف العجل في الآيات بأنه (جسد). ولفظ الجسد يطلق على الجسم الذي لا روح فيه[١٣]. فهو تمثال منحوت مصنوع متقن محكم يصدر صور خوار كما وصفته الآيات، ولو كان عجلاً حقيقياً حياً لما كان لوصفه بأنه (له خوار) وجه، ولكان وصفه بذلك أولى وأدخل في التعجيب منه.

ولعل مما يُستأنس به لترجيح هذا القول أن عدداً من المفسرين والمتأملين في الآيات الكريمة رجحوه وقالوا به، وردوا ما عداه من الأقوال، أو مالوا إلى تقديمه عليها[١٤]. والله أعلم.

المبحث الثالث

عبر وعظات من القصة

تحتوي قصة السامري في سورة طه على عدد غير قليل من العبر والعظات التي يمكن استنباطها من الآيات ومن الأحداث، وتتميماً لفائدة ذكر القصة رأيت تخصيص هذا المبحث لما ظهر لي فيها من عبر وعظات وفوائد. وقد يظهر لمن يتأمل في الآيات الكريمة وأحداث القصة عبر أخرى. وفيما يلي ذكر عدد من العبر والعظات والفوائد والدروس المستخرجة من القصة:

١. أهمية إقامة الإمام أو القائد بين قومه يتفقد أحوالهم ويتابع أمورهم كلها ويكون على صلة مباشرة بهم، يتابع ما يعرض لهم من أمور ولا يفارقهم إلا في ظروف خاصة وحاجة طارئة تستدعي ذلك. وهذه الفائدة ظاهرة من القصة من خلال مرافقة موسى لقومه في رحيلهم من مصر وبقائه معهم وعدم ابتعاده عنهم إلا لمدة قصيرة، ومع قصر هذه المدة إلا أنها كانت حافلة بأحداث كثيرة، كان من أهم أسبابها غياب القائد عن رعيته.

٢. فضل المسارعة إلى طاعة الله والإقبال عليها، والمبادرة إلى الاستجابة لأمره سبحانه. وهذا ظاهر من قول نبي الله موسى عليه السلام: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [٨٤].

٣. استحباب تأخر رئيس القوم عنهم في السفر ليكون راعياً ومهيمناً عليهم. تؤخذ هذه الفائدة من سؤال الله تعالى موسى عليه السلام عن سبب تقدمه على قومه، فأفاد ذلك أن الأصل تأخره عنهم. وقد أمر الله تعالى لوطا عليه السلام بهذا فقال: ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ [الحجر:٦٥]. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم «يتخلف في المسير فيزجي الضعيف ويردف ويدعو لهم»[١٥].

٤. جواز سؤال من يعرف الجواب لقصد اختبار المسؤول أو التمهيد لحديث يتلو الجواب لبنائه

عليه. ففي الآيات الكريمة سأل الله سبحانه نبيه موسى عليه السلام عن السبب الحامل له للعجلة والإسراع. وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى**﴾.[٨٣] وهو سبحانه أعلم بالجواب. وكان هذا السؤال تمهيداً لما سيأتي بعده من إخبار موسى عما فعل قومه في غيابه.

٥. يبتلي الله تعالى عباده ليَظهر علمُه بمن يثبت على الحق ومن يضل عنه. يؤخذ هذا من قوله تعالى ﴿**قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ**﴾[٨٥]. فما يصيب المرء من ابتلاء واختبار وتمحيص إنما هو لتمييز الخبيث من الطيب. والتفريق بين الطائع والعاصي.

٦. الانفعال الذي يحصل في النفس نتيجة المفاجأة بخبر مفجع أمر مركوز في النفوس. وكذلك التأثر عند سماع الخبر المزعج جداً أو الهام جداً. وقد حصل ذلك مع النبي الكريم موسى عليه السلام بعد أن سمع ما فعله قومه في غيابه ﴿**فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا**﴾ [٨٦]. والفاء تدل على سرعة حصول الفعل منه. وتصف الآية حال النبي الكريم بأنه كان ﴿**غَضْبَانَ أَسِفًا**﴾ «والغضب انفعالٌ للنفس وهيجان ينشأ عن إدراك ما يسوؤها ويسخطها دون خوف. والأسف: انفعال للنفس ينشأ من إدراك ما يحزنها وما تكرهه مع انكسار الخاطر»[١٦].

٧. مشروعية معاتبة المخطئ وتذكيره بنعم الله عليه ومحاورته ومجادلته لإظهار الحق وإزالة الخطأ. وهذا ما فعله موسى عليه السلام مع قومه حين رجع إليهم ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي**﴾.[٨٦]

٨. من أسباب نسيان شكر النعمة وإهمال القيام بواجب الثناء على المنعم: طول العهد وتطاول الزمان. ومصداق هذا في قوله تعالى على لسان موسى مخاطباً قومه: ﴿**أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ**﴾.[٨٦]

٩. عصيان أمر الرسول عليه السلام مدعاة لحصول غضب الله تعالى. يؤخذ هذا من قوله تعالى: ﴿**أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي**﴾ [٨٦]. والنصوص الدالة على هذا المعنى كثيرة.

١٠. الحذر من الهروب من الإثم القليل والوقوع في أعظم منه. فإن بني إسرائيل تحرجوا من الحلي التي حملوها معهم لما رأوا في بقائها معهم من الإثم. وهذا منكر يسير أمام المنكر الأكبر الذي وقعوا فيه وهو الشرك بالله تعالى وعبادة غيره. فهم قد تورعوا عن زينة القبط فألقوها وتخلوا عنها ورعا وتأثماً من بقائها. ووقعوا في أعظم المنكرات وعبدوا العجل وعظموه. وبلغ من سفاهتهم وقلة عقولهم الجزم بأنهم إنما يعبدون إلههم وإله موسى ﴿**فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى**﴾.[٨٨]

١١. قبح إلقاء اللوم على الآخرين تهرباً من المسؤولية. وهذه عادة كثير من الناس. وهذا ما فعله قوم موسى حيث قالوا له: ﴿**وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ**﴾[٨٧] على وجه قراءة (حُمّلنا) بالبناء للمفعول[١٧]. فألقوا المسؤولية على من حمّلهم الأوزار والزينة. فلا لوم عليهم ولا خطأ منهم. وهذا الأسلوب الساذج في التعامل مع التقصير والإهمال أسلوب قبيح مذموم لا يعفي من حمل المسؤولية عن الفعل. ويدل على ضعف الإرادة عند قائله.

١٢. اشتراك مجموعة كبيرة في الفعل يشعرهم بشيء من الأمان أثناء فعله. ويخفف من آثار

قصة السامري في سورة - طه - أحداثها وعبرها

العقوبة عليهم لما تتوزع على مجموعهم، وهذا الشعور يُلمح من إجابة قوم موسى على سؤاله بصيغة الجمع وبعبارة واحدة فهم متكافلون في الموضوع ومتفقون على الجواب، بما يعني استعدادهم جميعاً لتحمل المسؤولية معاً. وكذلك العقاب المترتب على الفعل. وهذا الشعور بين الناس قد يكون له أثر إيجابي في أمور، ولكنه قد يكون ذا أثر سلبي كما في هذا الموقف حيث يخفف من الشعور بالإثم في النفس.

١٣. شعور الإنسان بالإثم ووخز الضمير بعد فعله ما لا يحل له، فيلوم نفسه على الوقوع في الإثم ويندم عليه، وهذا ظاهر من جواب موسى له بقولهم: ﴿وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ﴾[٨٧] على وجه قراءة (حُمِّلنا) بالبناء للفاعل[١٨]، وفي كيفية حصول بني إسرائيل على الحلي روايتان:

الأولى: أنهم استعاروها من القبط قبيل الخروج مع موسى بزعم الحاجة إليها لحضور عيد لهم، وفي بعض الروايات أن هذا الفعل كان بإذن من موسى أو بعلمه، وأنه فعل جائز لهم فقد عملوا في خدمة القبط سنوات بلا مقابل، فلهم حقوق مالية كثيرة عندهم. وما أخذوه من حليهم يعد بعض ما لهم عندهم من حق[١٩].

الثانية: أنهم التقطوها من ساحل البحر بعد أن قذفها الموج بعد غرق فرعون ومن معه، ولم تكن الغنائم تحل لهم لما ثبت في الحديث من قوله ﷺ: «وأحلت لي الغنائم ولم تحل لنبي قبلي»[٢٠].

١٤. حنين الإنسان إلى ما اعتاد فعله أو إلى ما كان عليه الآباء والأجداد من سلوك وعمل. يؤخذ هذا من اتباع قوم موسى للسامري حين اختار أن يضع لهم جسد عجل، لعلمه بما كان عليه آباؤهم وأهل مصر من تعظيم البقر وتقديسها.

١٥. تعلق بني إسرائيل بالمادة وتحديداً الذهب والمال. وكان هذا التعليق من أقوى أسباب اتباعهم السامري حين صنع لهم جسد العجل. فهم قوم ماديون، يطغى تعلقهم بالمادة على غيره، خاصة إذا كان هذا الأمر المادي ذهباً وحلياً وأموالاً، ومما يدل على تعلقهم بالماديات طلبهم من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهاً محسوساً كإله القوم الذين رأوهم يعكفون على أصنام لهم بعد اجتيازهم البحر. فقالوا: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨]، حتى إن القوم الذين اختارهم موسى لم يقلوا عن سائر بني إسرائيل تعلقاً بالماديات فقد قالوا لموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:٥٥].

١٦. ضعف إيمان بني إسرائيل بالله وبرسوله. يتجلى ذلك من خلال سرعة استجابتهم إلى إضلال السامري لهم، ووقوع معظمهم في حبائله ومتابعته دون تروٍّ ولا تمهل ولا إعمال فكر ولا مراجعة إيمان، كل هذا مع ما رأوه من آيات الله وعنايته بهم وإنجائهم من كيد فرعون وبطشه، ومع ذلك لم يصمدوا أمام هذه الفتنة اليسيرة وسارعوا إلى الردة وعبادة جسد العجل، والتخلي عن الإيمان الحق بالله تعالى وبرسوله الكريم.

١٧. أهمية الحوار مع من يعبد غير الله وتقديم الدليل الواضح له على بطلان عبادته وعدم صلاحية معبوده للعبادة والتعظيم، وفي هذه الآيات ذكر لدليل ظاهر يبين بطلان ما فعله موسى وعدم صلاحية معبودهم للعبادة: ﴿أَفَلَا

يرون ألا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً﴾.[٨٩]

١٨. سذاجة عقول من يعبد غير الله تعالى. فهؤلاء بنو إسرائيل اتجهوا إلى عبادة وتعظيم عجل مصنوع من ذهب وحلي. لا يكلمهم ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً. فهو مجرد تمثال متقن الصنع يصدر خواراً يشبه صوت البقر الحي وما هو بحي ولا قادر على الحركة ولا الكلام ولا التأثير. ولو وافقنا من قال إنه انقلب إلى عجل حي فإنه حيوان بهيم عاجز عن نفع نفسه وضرها فكيف يعظم ويعبد؟ وأين عقول من عظمه وعكف عليه؟

١٩. على الإمام أو القائد أو من ينوب عنه المبادرة إلى تقديم النصح إلى قومه إذا رأى منهم زيغاً أو انحرافاً عن الحق. وهذا ما قام به هارون عليه السلام ﴿ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري﴾.[٩٠]

٢٠. على الداعي أن يسلك السبيل الأمثل في دعوته، وأن يتدرج في إقناع المخاطبين للوصول بهم إلى المراد. وقد فعل هارون عليه السلام ذلك لأنه «زجرهم عن الباطل أولاً بقوله (إنما فتنتم به) ثم دعاهم إلى معرفة الله تعالى ثانياً بقوله: (وإن ربكم الرحمن). ثم دعاهم ثالثاً إلى معرفة النبوة بقوله: (فاتبعوني). ثم دعاهم إلى الشرائع رابعاً بقوله: (وأطيعوا أمري) وهذا هو الترتيب الجيد لأنه لا بد قبل كل شيء من إماطة الأذى عن الطريق، وهو إزالة الشبهات، ثم معرفة الله تعالى وهي الأصل، ثم النبوة، ثم الشريعة، فثبت أن هذا الترتيب على أحسن الوجوه»[٢١].

٢١. مشروعية اختيار من يحكم بين المختلفين بالاتفاق على شخصه والرضا بحكمه. يدل على هذا قوله تعالى على لسان موسى: ﴿حتى يرجع إلينا﴾.[٩١]

٢٢. اختلاف أسلوب الدعوة بين الرسولين الكريمين موسى وهارون عليهما السلام، وتباين مناهج الدعاة في سلوك السبيل الأولى للإصلاح. فهذا هارون عليه السلام رأى أن ما فعله مع قومه هو الأولى والأصح. حيث ذكرهم بالله ودعاهم إلى نبذ عبادة العجل، وإلى طاعته، ولكنه حين توقع منهم إيذاءه وقتله وتفرقهم إلى فريقين متناحرين رأى أن الالتزام بوصية أخيه موسى عليه السلام بقوله: ﴿اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ [الأعراف: ١٤٢] يكون بانتظار رجوعه، حيث إن القوم علقوا عكوفهم على العجل عليه: ﴿قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى﴾ [٩١]. وكان عتاب موسى لأخيه هارون عليهما السلام لأنه كان يترقب منه أن يلحق به ويخبره بما حصل ليتم تدارك الأمر في بدايته، ولذا لامه على ترك ذلك. ولكنه حين علم من هارون ما فعله في غيابه من اجتهاده في إصلاح القوم وما قابلوه به من وقاحة في الرد وقرب حصول الفتنة بين القوم، توجه موسى بالدعاء إلى الله تعالى: ﴿قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك﴾ [الأعراف:١٥١]. وبهذا يتبين لنا حصول الاختلاف في أسلوب الدعوة، والاجتهاد في الأولويات والمنهج.

٢٣. يفعل المرء في حال الغضب والانفعال ما ليس من عادته فعله، وهذا ما حصل مع موسى عليه السلام في هذه القصة، فبعد أن أعلمه الله تعالى بما فعل قومه رجع إليهم مسرعاً وهو يحمل ألواح التوراة بيديه، ولما

قصة السامري في سورة طه - أحداثها وعبرها

رأى مشهد تعظيم العجل وعبادته تأثر جداً من ذلك ﴿وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف:١٥٠]. وهذان الفعلان ما كانا ليصدرا من نبي الله موسى عليه السلام لولا وقع الحدث المؤثر جداً عليه.

وكان موسى عليه السلام شديد الغضب لله تعالى ولدينه فلم يتمالك حين رأى قومه يعبدون العجل من دون الله أن ألقى الألواح غضباً لله تعالى وعنف أخاه بقسوة وحدّة[٢٢].

٢٤. تأثر المرء بالشيء حين يراه أقوى وأشد من تأثره به إذا سمعه. فإن موسى عليه السلام حين سمع ما أخبره الله تعالى به من حصول الضلال في قومه تأثر لذلك وانفعل فأسرع في العودة والرجوع إليهم. ولكن تأثره بلغ مداه الأعلى وحده الأكبر حين رآهم يعبدون العجل ويعظمونه. وفي هذا قال رسول الله عليه السلام: ليس الخبر كالمعاينة. إنّ الله عز وجل أخبر موسى بما صنع قومه في العجل فلم يلق الألواح. فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت»[٢٣].

٢٥. يعفى عما يصدر عن المرء من تصرف حال شدة غضبه انتصاراً لله تعالى ولدينه. فإلقاء الألواح المحتوية على كلام الله، وإيذاء نبي كريم بشده من رأسه ولحيته، فعل غير مقبول من أحد إذا قام به وهو في الحال المعتاد، ولكن إذا قام به في حال الانفعال والغضب لدين الله تعالى فلا يلام عليه، ولا يؤاخذ به، وهذا ما حصل مع النبي الكريم عليه السلام[٢٤].

٢٦. استحباب التريث قبل فعل الشيء، ومحاولة ضبط النفس قبل الانفعال بسبب خبر أو حدث، لئلا يصدر عن المرء قول أو فعل لا يرضى عنه وهو في حال الهدوء والاستقرار، ولئلا يساء فهم فعله من قبل بعض من يراه.

ولذا طلب هارون من موسى حين أمسك به أن يطلقه معللا طلبه بقوله: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ﴾ [الأعراف:١٥٠].

٢٧. إعفاء اللحية من سنن الأنبياء ومن سنن الفطرة، وقد نصّت الآية الكريمة على قبض موسى عليه السلام لحية أخيه هارون عليه السلام[٢٥]. والظاهر أن إمساك موسى بلحية هارون ورأسه كان من آثار انفعاله وغضبه، وأنه فعله لوما له وتعنيفاً. أما ما ذكره بعض المفسرين أن إمساك موسى بلحية هارون كان من قبيل ما يفعله الإنسان بنفسه عند الغضب إذا عض شفتيه وفتل أصابعه وقبض لحيته، ويكون موسى أنزل هارون بفعله هذا منزلة نفسه فهو أخوه وشريكه في الرسالة، فصنع به ما يصنع الرجل بنفسه حال الغضب فبعيد ولا يدل عليه السياق[٢٦].

٢٨. الاستعطاف بالتذكير بصلة الأخوة من جهة الأم أقوى تأثيراً في النفس من التذكير بصلة الأخوة من جهة الأب، ولذا قال هارون لموسى ﴿يَا ابْنَ أُمَّ﴾[٩٤] في ذلك الموقف مذكراً إياه بصلة الأخوة من جهة الأم لما فيه من ترقيق القلب وتهدئة النفس[٢٧].

٢٩. مشروعية استخدام الشدّة والقسوة في العبارات والمواقف من قبل الداعي مع من يخاطبهم، خاصة إذا شعر بالحاجة إلى ذلك، وقدّر أن هذا التصرف يناسب الموقف والمقام، وله أثره في المخاطب وتأثيره فيه. وقد ظهر هذا الأمر جليا في عبارات وتصرفات النبي موسى مع أخيه النبي هارون عليهما السلام ومع قومه.

٣٠. التدرج في الوصول إلى المعلومة ومحاولة معرفة سبب الوقوع في الخطأ، وإذا اكتفى السائل بجواب المسؤول الأول لا ينتقل إلى

سؤال غيره. وفي هذه الآيات نجد أن موسى عليه السلام بدأ بسؤال قومه الذين أجابوا إجابة تدل على البلاهة وقلة العقل ومحاولة إلقاء اللوم على غيرهم والتنصل من المسؤولية. فلم تغن إجابتهم شيئاً. فانتقل إلى سؤال أخيه عما حصل وعن موقفه وهو خليفته في قومه. فأوضح له هارون موقفه. وذكر له من الجواب ما يتعلق به وبأدائه الرسالة على الوجه الأتم فيما يرى مما استدعى زوال غضب موسى عليه السلام ودعاءه له بالمغفرة والرحمة . ولما كانت الحاجة ما تزال قائمة إلى معرفة تفاصيل ما حدث وكيف استطاع السامري إضلال القوم وإغواءهم توجه إليه موسى بالسؤال. فاكتملت في ذهنه الصورة وعرف حقيقة ما جرى في غيابه.

٣١. من سوء خلق المرء مخاطبته الشخص ذا المقام والمنزلة العالية بما يخلو من توقيره واحترامه. فهذا السامري حين أجاب نبي الله موسى عليه السلام خاطبه بأسلوب غير لائق لا يظهر فيه التوقير والاحترام. إذ قال في الجواب ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [٩٦] فبدأ بامتداح نفسه وبيان فضله على قومه. وعلى قراءة (تبصروا) بالتاء[٢٨] يكون جوابه أشد وقاحة.

وزاد من وقاحته حين لم يتوجه بالخطاب إلى النبي الكريم. وتحدث عنه بصيغة الغيبة (الرسول) بناء على أن المراد بالرسول موسى عليه السلام كما سبق ترجيحه في المقال. ولا يظهر في عبارات السامري وجوابه ما يدل على ندمه على ما فعل وأساء.

٣٢. اختيار العقوبة الملائمة للذنب. فيجازى المخطئ بحرمانه ما قصد الوصول إليه بالطريق الخطأ. ومنعه من تحصيل ما أراد. وهذا ظاهر من عقوبة السامري الذي قصد مما فعل أن يتبوأ موقعاً مميزاً بين القوم وقيادتهم والسيطرة عليهم. فكانت عقوبته إبعاده عن القوم وإبعادهم عنه. وجعله في وضع مهين متناسب مع سوء فعله وحقارة سلوكه.

٣٣. وجوب طمس معالم الشرك. وإتلاف أسباب الكفر وإزالتها وتحطيمها. فهذا العجل الذي عُبد من دون الله كان مصيره بعد تحريقه أو برده بالمبارد تذريته في الهواء لتختلط ذراته المبثوثة في الهواء مع ماء البحر ﴿وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾[٩٧] لعل هذا يقنع من عبده بأنه شيء لا يستحق التعظيم ولا التقديس.

وينبغي أن يكون هذا الفعل في الوقت المناسب له. وهذا ما حصل في هذه القصة. وما حصل في السيرة النبوية. فإن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم لم يقدم على تحطيم الأصنام التي كانت حول الكعبة وغيرها من الأصنام إلا بعد أن دخل مكة فاتحاً منتصراً فشرع في تحطيمها دون تأخير ولا إبطاء. وكان هذا الوقت هو الأنسب لهذا الفعل. فلم يلق مقاومة أو اعتراضاً من أهل مكة أو غيرهم[٢٩].

٣٤. مشروعية هجر أهل المعاصي ودعاة الفتنة ونفي أهل البدع والفجور. نجد هذه الفائدة في عقوبة السامري ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ [٩٧]. كما نجدها في السيرة النبوية حين أمر النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة بهجر الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك[٣٠]. وكانت عقوبة قوية رادعة زاجرة مؤثرة.

الحواشي

١. منها الآيات ٥١-٥٣من سورة البقرة، والآيات ١٤٨-١٥٤ من سورة الأعراف.

٢. تحتمل قراءة الجمهور (لنحرقنه) بضم النون وفتح الحاء وكسر الراء أن تكون من الحرق بالمبرد أو الإحراق بالنار. أما قراءة ابن وردان عن أبي جعفر بفتح النون وإسكان الحاء وضم الراء فهي مضارع حرق الثلاثي ومعناه البرد والمبرد، وقراءة ابن جماز عن أبي جعفر بضم النون وإسكان الحاء وكسر الراء، مضارع أحرق من التحريق بالنار. ويمكن الجمع بين أوجه القراءة بأنه أحرق بالنار ثم برد بالمبرد، أو العكس (إيضاح الرموز للقباقبي/٥٢٦).

٣. انظر في تفسير هذه الآيات: جامع البيان للطبري ١٦/١٩٥-٢٠٩. والتفسير الكبير للفخر الرازي ١١/١٥-٣٧. والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١/١٥٥-١٦١. والتحرير لابن عاشور ١٦/٢٧٧-٣٠٠. والتفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي (نسخة محوسبة). والتفسير المنهجي لأحمد شكري وآخرين. ١١/١٦٢-١٦٩.

٤. من المسائل المختلف فيها والتي تعددت فيها الأقوال في هذه القصة: من المراد بقوم موسى المسؤول عنهم في الآية ٨٣؟ وهل السامري من قوم موسى أو من غيرهم؟ وكيف حصل بنو إسرائيل على الحلي التي كانت معهم؟ وما طبيعة العجل الذي عبده بنو إسرائيل في غياب موسى؟ وماذا فعل هارون أثناء غياب موسى؟ وما نوع عقوبة السامري؟ وكيف تم القضاء على العجل؟.

٥. روح المعاني للألوسي «نسخة محوسبة»، والتحرير والتنوير لابن عاشور ١٦/٢٧٩ و٢٨٠. والقصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث لصلاح الخالدي ٣/١٦٠ و١٦١. وقصص الأنبياء أحداثها وعبرها لمحمد الفقي/ ٣٠٤.

٦. قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار/٢٢٤. وأسماء وأسرار لبسام جرار بوساطة عبد الرحيم الشريف في مقال له على موقع ten.naruqla-nayaB.www

٧. قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار/٢١٨. ودراسات تاريخية من القرآن الكريم. لمحمد بيومي مهران/ ٣٥٠-٣٥٥.

٨. هذه خلاصة القول كما يؤخذ من الروايات العديدة وأقوال عدد من المفسرين. انظر. جامع البيان للطبري ١٦/٢٠٠، ٢٠٥. والجامع لأحكام القرآن للطبري ١١/١٥٦. وأنوار التنزيل للبيضاوي «نسخة محوسبة في المكتبة الشاملة». وقصص الأنبياء أحداثها وعبرها لمحمد الفقي/٣٠٤.

٩. ممن ذكر هذا القول من المفسرين: الطبري في جامع البيان ١/٢٨١. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١١/١٥٦. وابن كثير في قصص القرآن/٢٦٦.

١٠. الجامع لأحكام القرآن للطبري ١١/١٥٦. قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار/٢٢٠. وقصص القرآن، لفضل عباس/٥٧٠.

١١. قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار/٢٢٠. ودراسات تاريخية من القرآن الكريم. لمحمد بيومي مهران/٣٥٢.

١٢. ممن ذكر الرواية وعلق عليها الألوسي في روح المعاني «نسخة محوسبة في المكتبة الشاملة». والطباطبائي في الميزان ١٤/٢٠٤.

١٣. التحرير والتنوير. لابن عاشور ٩/١١٠. والقصص القرآني. لصلاح الخالدي ٣/١٧٥.

١٤. سأقتصر على ذكر عشرة مراجع لمن رجح القول أو مال إليه: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢١/٣٥. والكشاف. للزمخشري «نسخة محوسبة». والتحرير والتنوير . لابن عاشور ١٦/٢٩٦. و الميزان في تفسير القرآن. للطباطبائي ١٦/١٩٦.وقصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار/٢٢٠. وفي ظلال القرآن. لسيد قطب ٤/٢٣٤٩. والتفسير الوسيط. لمحمد سيد طنطاوي: «نسخة محوسبة». وقصص القرآن لفضل عباس/٥٧٠. وقصص القرآن الكريم. لسعيد اللحام/١٥١. وأحسن القصص. لزاهية الدجاني/١٥٨.

١٥. رواه أبو داود في كتاب الجهاد. باب لزوم الساقة. برقم ٢٦٢٩. ومعنى الساقة: الذين يسوقون الجيش ويكونون من ورائه يحفظونه. ويزجي: يسوق. ويردف: يحمل خلفه (بذل المجهود في حل سنن أبي داود ٩/٢٣٣ و٣٣٤).

١٦. التحرير والتنوير. لابن عاشور ١٦/٢٨١.

١٧. هي قراءة نافع وابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم ورويس عن يعقوب (ايضاح الرموز للقباقبي/ ٥٢٥).

١٨. قراءة الباقين من العشرة (المرجع السابق).

١٩. القصص القرآني لصلاح الخالدي ١٦٧/٣.

٢٠. رواه البخاري في باب قول النبي ﷺ جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً. ورواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

٢١. التفسير الكبير لفخر الرازي ٢٨/٢١.

٢٢. الكشاف. للزمخشري «نسخة محوسبة».

٢٣. رواه أحمد في المسند برقم ٢٣٢٠ نسخة محوسبة.

٢٤. التفسير المنير لوهبة الزحيلي ٢٧٧/١٦.

٢٥. أضواء البيان للشنقيطي «نسخة محوسبة».

٢٦. ذكر هذا القول عدد من المفسرين منهم الفخر الرازي في التفسير الكبير ٣٠/٢١. ووهبة الزحيلي في التفسير المنير ٢٧٧/١٦.

٢٧. تفسير القرآن العظيم. لابن كثير ١٥٩/٣. والتحرير والتنوير ٢٩٣/١٦.

٢٨. قرأ حمزة والكسائي وخلف (تبصروا) بالتاء على الخطاب. وقرأ الباقون بالياء على الغيبة (إيضاح الرموز للقباقبي/٥٢٦).

٢٩. السيرة النبوية. لابن هشام ١٧/٢.

٣٠. السيرة النبوية. لابن هشام ٥٣١/٢-٥٣٥.

المصادر والمراجع

١. أحسن القصص بين إعجاز القرآن وتحريف التوراة. لزاهية الدجاني. دار التقريب بين المذاهب الإسلامية. بيروت. ط١. ١٤١٢هـ. ١٩٩٢م.

٢. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. لمحمد الأمين الشنقيطي (ت١٣٩٣هـ). نسخة محوسبة في المكتبة الشاملة.

٣. أنوار التنزيل وأسرار التأويل. لعبد الله بن عمر البيضاوي (ت٦٩١هـ). نسخة محوسبة في المكتبة الشاملة.

٤. إيضاح الرموز ومفتاح الكنوز في القراءات الأربع عشر. لمحمد بن خليل القباقبي (ت٨٤٩هـ) تحقيق أحمد خالد شكري. دار عمار. عمّان. ط١. ٢٠٠٣م.

٥. التحرير والتنوير. لمحمد طاهر بن عاشور(ت١٩٧٣م). الدار التونسية للنشر والدار الجماهيرية (د.ت).

٦. تفسير القرآن العظيم. لإسماعيل بن عمر بن كثير (ت٧٧٤هـ). نسخة محوسبة في المكتبة الشاملة.

٧. التفسير الكبير. لفخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت٦٠٦هـ). نسخة محوسبة في المكتبة الشاملة.

٨. التفسير المنهجي لمجموعة من المؤلفين. رجعت الى الجزء ١١ المحتوي تفسير سورة طه. وهو من إعداد أحمد شكري. دار المنهل. عمّان. ط١.

٩. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج. لوهبة الزحيلي. دار الفكر المعاصر ببيروت. ودار الفكر بدمشق. ط١. ١٤١١هـ. ١٩٩١.

١٠. التفسير الوسيط. لمحمد سيد طنطاوي. نسخة محوسبة منشورة في موقع مؤسسة آل البيت. الأردن. www.ALTAFSEER.net

١١. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. لمحمد بن جرير الطبري. مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر. ط٣. ١٣٨٨هـ. ١٩٦٨م.

١٢. الجامع الصحيح. لمحمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ). نسخة محوسبة في المكتبة الشاملة.

١٣. الجامع الصحيح. لمسلم بن الحجاج النيسابوري (ت٢٦١هـ). نسخة محوسبة في المكتبة الشاملة.

١٤. الجامع لأحكام القرآن. لمحمد بن أحمد القرطبي (ت٦٧١هـ). دار الكتب العلمية. بيروت. ١٤٠٨هـ. ١٩٨٨.

١٥. دراسات تاريخية في القرآن الكريم. لمحمد بيومي مهران. دار المعرفة. الإسكندرية. ١٩٩٥م.

١٦. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. لمحمود بن عبد الله الألوسي (ت١٢٧٩هـ). نسخة محوسبة في المكتبة الشاملة.

١٧. سنن أبي داود. لسليمان بن الأشعث (ت٢٧٥هـ). ومعه: بذل المجهود في حل سنن أبي داود لخليل السهارنفوري. مركز الشيخ أبي الحسن الندوي. الهند. ط١. على نفقة سمو الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان. ١٤٢٧هـ. ٢٠٠٦م.

١٨. في ظلال القرآن. لسيد قطب (ت١٣٨٦هـ). نسخة محوسبة في المكتبة الشاملة.

١٩. قصص الأنبياء، لعبد الوهاب النجار، دار الفكر، بيروت (د.ت)

٢٠. قصص الأنبياء أحداثها وعبرها، لمحمد الغثي، مكتبة وهبة، ط١، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

٢١. قصص القرآن الكريم، لابن كثير، تحقيق: أحمد إبراهيم زهوة، دار الكتاب العربي، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م.

٢٢. قصص القرآن الكريم، لسعيد اللحام، دار ومكتبة الهلال، ط١، ١٩٨٧م.

٢٣. قصص القرآن الكريم، لفضل حسن عباس، دار الفرقان، عمّان، ط١، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

٢٤. القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، لصلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم بدمشق والدار الشامية، ببيروت، ط١، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

٢٥. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لمحمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، نسخة محوسبة ضمن المكتبة الشاملة.

٢٦. المسند لأحمد بن حنبل (٢٤١هـ)، نسخة محوسبة في المكتبة الشاملة.

٢٧. الميزان في تفسير القرآن، لمحمد حسين الطباطبائي (ت١٩٨٢م)، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ، ١٩٧٢م.



حقائق قرآنية في خلق الكون

د. يعرب قحطان عبد الرحمن الدوري
جامعة بيرلس - ماليزيا

حقائق قرآنية في خلق الكون

كوننا المترامي الأطراف الذي لا يرى الإنسان له حدود أثبتت البراهين العلمية الحديثة أن له نهاية مثلما له بداية، إنَّ كوننا ما يزال محط أنظار وتساؤلات بني البشر عن كيفية خلق الكون، ومتى ابتدأت قصة الخلق، ومتى وكيف ينتهي هذا الكون؟ نحاول الإشارة إليها وتفصيلها والإجابة عنها بالأدلة العلمية اليقينية مع ما يناظرها من الحقائق القرآنية ما أعجز الإنسان تارة، وما أثبت بالمكتشفات تارة أخرى.

إنّ علم الفلك أو كما يسميه العرب، علم الهيئة، غرضه دراسة الكواكب والنجوم والغوص في أعماق الفضاء، فمع إطلالة الألفية الميلادية أصبح علماً متعارفاً عليه، له أسسه وقوانينه خصوصاً مع التقدم العلمي والتكنولوجي الحاصل مع القرن العشرين الماضي. أما علم الكون فيعنى بدراسة الكون ونشأته وتطوره، علماً أنه علم حديث النشأة لم يرتكز إلى ثوابت علمية إلا منذ عشرات السنين. لقد كان علم الكون يستند في أفكاره إلى الأساطير والسحر والفلسفة الخاطئة.

نجد في القرآن الكريم آيات كريمة متعلقة بخلق الكون وعلم الفلك، وفيها ما يكفي لتقديم حقائق قرآنية تؤيدها النظريات والدراسات والحسابات العلمية الكونية، بل تُعتبر ثوابت علمية لمن يعي كلام الله سبحانه وتعالى ممن تأوي قلوبهم إلى ذكر الله.

إنّ التفكر في خلق الله من الكون والفلك فريضة على كل مسلم عاقل تؤدي بنتيجتها إلى معرفة أكبر واطلاع أكثر بالله سبحانه وتعالى، وهذا شأن العلماء والباحثين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[1].

وجاء في الأثر تفكر ساعة خير من عبادة سنة وفي لفظ ستين سنة ذكره الفاكهاني بلفظ فكر ساعة، وقال إنه من كلام سري السقطي وفي لفظ ستين سنة وذكره في الجامع الصغير بلفظ فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة وورد عن ابن عباس وأبي الدرداء بلفظ فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة. قال النجم إن العراقي قال في جزء له رويناه من حديث عبد الله بن سلام أنه ﷺ خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال مالكم تتفكرون، فقالوا نتفكر في خلق الله عز وجل. قال: فكذلك فافعلوا في خلقه ولا تتفكروا فيه فإن لهذا المغرب أرضا بيضاء نورها بياضها أو بياض نورها مسيرة الشمس أربعين يوماً بها خلق من خلق الله لم يعصوا طرفة عين قالوا يا رسول الله: فأين الشيطان عنهم. قال ما يدرون خلق الشيطان أم لا. قالوا: من ولد آدم هم لا يدرون خلق آدم أم لا[١].

ما يتم تقديمه في هذه الورقة هو عرض لبداية خلق الكون من نقطة الصفر، ونظرية الانفجار العظيم مروراً بتوسع الكون، وانتهاءً بنظرية الانكماش أو السحق الكبير لتحديد نهاية الكون، مع الإشارة إلى الشرح العلمي للآيات القرآنية الكريمة والتفسير الفقهي العلمي لتلك الآيات. ولا بد من التنويه إلى أن تفسير الآية القرآنية الكريمة لها معانٍ ومدلولات قد لا نفقه مكنونها وأبعادها ولا ندّعي علمنا الكامل بتفسيرها. بل دوّنا ما وجدناه الأقرب تفسيراً والأيسر فهماً للحادثة الكونية العلمية.

بداية الكون:

إن النظريات التي توصل لها العلم الحديث حول خلق الكون بواسطة أحدث التقنيات العلمية مثل المناظر الفلكية، والمراصد الضخمة، والمكوّنات الصاروخية يسبقها سؤال هام عن كنه الوقت، فالوقت بالنسبة لسكان الأرض على الأقل مرتبط بالشمس. فكيف ومتى تكونت الشمس والأرض وبقية الكواكب؟ فيجب معرفة الفرق الزماني بين زمن قبل بدء الخلق وزمن خلق الكون بما فيه من مجرات ونجوم وكواكب وأقمار وجسيمات وذرات والكترونات ونويات وكواركات ولبتونات. وما ينتج عنها من جاذبية وإشعاعات فاقدة أو مكتسبة للطاقة المرئية وغير المرئية الخ...

ما نعرفه عن هذه المخلوقات ابتدأ بعد حادثة عُرفت باسم الانفجار العظيم The big bang. عندما ابتدأ الكون الحادث. أي حدث الزمان والمكان والكواكب وبقية خلق الله.

لقد اعتقد العلماء في القرن العشرين أن الكون أزلي. أي لم تكن له بداية وليس له نهاية. وكذلك العالم العبقري آلبرت اينشتاين اعتقد بنظرية ثبوتية الكون The steady-state theory. ما يعني أنَّ الكون ثابت لا يتغير. أما العالم الأمريكي أدوين هابل فقد دوّن عام ١٩٢٢ باستخدام تلسكوبه الضخم أن المجرات تتباعد عن بعضها البعض. وبعدئذٍ التقى كل من هابل و اينشتاين. ولاحظ الأخير كيف أنَّ المجرّات تتباعد عن بعضها البعض وبسرعات جنونية. حينها اعترف اينشتاين

بخطئه حول ثبوتية الكون. ما بدد كل الأفكار والنظريات المتعلقة بثبوتية الكون. وأن الكون متحرك ومتغير وله بداية وكل ما حوى انطلق من لحظة ولادة الكون[٣].

قال تعالى: ﴿أولمْ يرَ الذين كفروا أنّ السّماوات والأرْض كانتا رتقًا ففتقناهما وجعلْنا من الْماء كلّ شيْء حيّ أفلا يؤمنون﴾[٤]. يدعو الله الذين كفروا به إلى النظر بأبصار قلوبهم فيروا بها ويعلموا أن السماوات والأرض كانتا رتقا، أي: ليس فيهما ثقب بل كانتا ملتصقتين. يقال منه رتق فلان الفتق إذا شده فهو يرتقه رتقاً ورتوقاً ومن ذلك قيل للمرأة التي فرجها ملتحم رتقاء ووحد الرتق وهو من صفة السماء والأرض وقد جاء بعد قوله كانتا لأنه مصدر مثل قول الزور والصوم والفطر وقوله ففتقناهما يقول فصدعناهما وفرجناهما[٥].

كما جاء في قوله تعالى: ﴿ثمّ اسْتوى إلى السّماء وهي دخانٌ فقال لها ولِلأرْض ائْتيا طوْعًا أوْ كرْهًا قالتا أتيْنا طائِعين﴾[٦]. وهو بخار الماء المتصاعد منه حين خُلقت الأرض ﴿فقال لها ولِلأرْض﴾. قال: قال الله تبارك وتعالى للسموات: أطلعي شمسي وقمري ونجومي، وقال للأرض شققي أنهارك وأخرجي ثمارك ﴿قالتا أتيْنا﴾. واختاره ابن جرير رحمه الله ﴿قالتا أتيْنا﴾. أي بل نستجيب لك مطيعين بما فينا مما تريد خلقه من الملائكة والجن والإنس جميعاً مطيعين لك. حكاه ابن جرير عن بعض أهل العربية. قال: وقيل: تنزيلاً لهن معاملة من يعقل بكلامهما. وقيل: إن المتكلم من الأرض بذلك هم مكان الكعبة ومن السماء وما يسامته منها والله أعلم. وقال الحسن البصري: لو أبينا عليه أمره لعذبهما عذاباً يجدان ألمه. ورواه ابن أبي حاتم[٧].

أورد حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (المتوفى ٥٠٥هـ) معلومة عن بداية الكون. حيث قال: « فأول ما خلق الله العرش والكرسي والسموات والنيران والجنات والأرضين وجميع الكائنات من أصل درّة يسميها الفلاسفة العقل الفعّال والنفس الكلية. فمن بخارها ودخانها انعقدت السموات. ومن زبدها تجمدت الأرضون بالرياح على الماء»[٨]. والقوة فيما ذكره الغزالي هي (الدرّة) الأصل. ويمكن مقارنتها بالبيضة الكونية الأولى Cosmic egg التي قال بها علماء الكون المعاصرون[٩].

خلق الأشياء:

نشأت المخلوقات من وحدة بدائية صغيرة مؤلفة من جزيئات أولية نوجز أهمها[١٠]:

■ الكوارك هو جسيم مكون للبروتون والنيوترون، ولم تثبت التجارب وجوده بعد.

■ الإلكترون هو جسيم خفيف سالب الشحنة يدخل في تركيب الذرة وزنه ٩×١٠-٢٨ غرام.

■ البروتون هو جسيم موجب الشحنة مكون للنواة ويحوي ثلاث كواركات. كتلته أكبر بـ ١٨٣٦ مرّة من الإلكترون.

■ النيوترون هو جسيم فاقد للشحنة مكون

للنواة أيضاً، كتلته أكبر بـ ١٨٣٨ مرّة من كتلة الإلكترون.

■ الفوتون وحدة الطاقة الضوئية، لا كتلة له. وسرعته ٣٠٠ ألف كم/ساعة.

وبمرور الزمن اتحدت الجزيئات الأولية مكونة الوحدة البدائية، فصارت نواة أول وأبسط العناصر الطبيعية في الكون، الهيدروجين، ثم اتحدت ذرات الهيدروجين فيما بينها بصورة متباينة وغير متباينة مكونة بقية العناصر في الطبيعة وعددها اثنان وتسعون عنصراً، ومنها نشأت المخلوقات في الكون[11].

ذكر العلماء أنهم توصلوا إلى معرفة دقيقة جداً للكون بعد نشأته عند الوقت ١٠-٤٣ جزء من الثانية من لحظة ولادته، وهو ما يسمى بوقت بلانك والذي قبله يحدد نقطة الصفر لبدء خلق الكون وكيفية ظهوره من العدم. وهذا لا يتعارض مع ما قاله ترن تيان: «إن المادة يمكن أن تظهر من الفراغ إذا حقنت فيها كمية كبيرة من الطاقة، الفراغ مصدر كل شيء: المجرات، والنجوم، والشجر، والنجوم، والأزهار، وأنت وأنا. إن فكرة النشوء من العدم والتي كانت بالأمس حكراً على علماء الدين تجد لها اليوم سنداً علمياً في علم الكون»[12].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾[13]. يخلو من التعارض مع قوله سبحانه: ﴿مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[14]، فالمعنى يفرضه السياق القرآني بما تعطيه من معنى، فنجد أن كلمة ﴿مَا أَشْهَدتُّهُمْ﴾ بمعنى أشركتهم، وكلمة ﴿شُهَدَاءَكُم﴾ بمعنى شركائكم.

إنَّ الذرة هي اللبنة الأساسية لبناء الجزئية والمادة، فكان الفيلسوف اليوناني (ديمقراطيس) أول من أعطى تصوراً علمياً للذرة وأسماها الأتوم Atom، أي الشيء الذي لا يتجزأ، وثبّت رسمياً هذه التسمية العالم دالتون بوضعه النظرية الذرية الحديثة تكريماً لعلماء اليونان الأقدمين[15].

فقد أشار القرآن الكريم إلى الذرة في أكثر من موضع، بل إن لها وزناً، وهناك جزيئات أصغر منها، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[16]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[17]، وقال سبحانه: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[18]، وقال جل جلاله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾[19]. وقال ذو الجلال والإكرام: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾[20].

فلا بد من قوة أو قوى لإتمام خلق الأشياء في الكون فكانت: قوة الجاذبية، وهي قوة غير مرئية ضعيفة يقوم عليها النظام الكوني

والتي تحكم الأشياء الكبيرة المرئية. وهي غراء الكون والتي تجعل الأقمار تدور حول الكواكب. والكواكب حول النجوم. والنجوم حول المجرات. ولو غابت هذه القوة لانفرط كل شيء وتشتت الكون بأسره. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[٢١].

القوة الكهرومغناطيسية: وهي الغراء التي تمسك الذرات التي تتكون منها العناصر الطبيعية في الكون السابق ذكرها. وتعطي للأشياء شكلها ونوعيتها. فهي التي تربط ذرتي الأوكسجين وذرة الهيدروجين مكونة الماء على سبيل المثال.

القوة النووية الضعيفة:

وهي التي تنظم تفتت مكونات الذرة. وتتحكم في موتها. فهي ليست أزلية.

القوة النووية القوية: وهي التي تمسك مكونات النواة (البروتون والنيوترون) مع بعضها. وتعتبر الأقوى بين قوى الطبيعة. وبدونها يعود الكون إلى الوحدة الأولية المؤلفة من جزيئات المادة مالكوارك والبيوترون[٢٢].

هذه القوى الأربع قام عليها هذا الكون. ومع أن العلم استطاع رؤية هذه القوى بصورة غير مباشرة إلا أنها قوى غير مرئية. قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾[٢٣]. وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[٢٤]. بمعنى خلق السموات بغير دعائم مرئية.

نظرية الانفجار العظيم:

بدأ الكون بانفجار مدو عملاق. حدث هذا قبل ما يقارب ١٥ مليار سنة والله أعلم. وتزامن حدوثه في مدة تعادل ١٠-٤٣ جزء من الثانية. وكان قطر الكون كله ١٠-٣٣ جزء من السنتمتر غير قابل للتصور بتاتاً. بل ممكن أن تحويه نواة قطرها ١٠-١٣جزء من الثانية ويرافقه تمدد وتبريد تدريجي للكون[٢٥]. وبتواصل العملية اتحدت الكواركات لتكوّن البروتونات والنيوترونات. وبدورها انضمت مع بعضها البعض لتشكل نوى الذرات.

ففي عام ١٩٢٧ توصل العالم البلجيكي جورج لوميتر إلى نظرية أن الكون كان قد نشأ ككتلة غازية عظيمة الكثافة والحرارة تصل إلى ١٠-٣٢ درجة مئوية. ثم حصل بتأثير الضغط والحرارة انفجار هائل فتتها وقذف بأجزائها في كل اتجاه. وقد أطلق الفلكي جورج غامو على هذه النظرية اصطلاحاً شهيراً عُرفت بالانفجار العظيم[٢٦].

ولم يكن باستطاعة النوى الذرية أن تمسك بالإلكترونات لشدة الحرارة. ولكن بعد البرودة النسبية للكون ظهرت الذرات المتعادلة وتجمعت مكونة غيوماً غازية (سديماً) تطورت لتصبح نجوماً. وانطلق الضوء دون مواجهة

خطر الامتصاص. إشارة إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.[٢٧]

ويجمع علماء الفلك اليوم على أنَّ نظرية الانفجار العظيم هي حقيقة علمية، تؤكد أنَّ الكون مخلوق له بداية ونهاية حيث عارضها من قال بأزلية الكون.

والقرآن الكريم يدل على حقيقة الكتلة الواحدة في بدء الخلق في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾[٢٨]، و«الرتق» يعني ضم وجمع، و«فتق» تعني فصل، أي السموات والأرض كانتا مجموعتين ففصلهما الخالق سبحانه. فكل رتق قابل للفتق، وكل فتق قابل للرتق. والسموات والأرض ستعودان كما كانتا عند قيام الساعة.

وإن كنا لا نعرف كيف كان فتق السموات والأرض، أو فتق أحدهما عن الآخر، فتقبل النظرية الفلكية لا تخالف الحقيقة المجملة التي قررها القرآن. يقول الفلكي جورج غامو: بدأ الكون ينفجر، وتكثفت سحب من الدخان في أماكن متفرقة مكونة نجوماً منفردة تتأثر وتتباعد من أثر الانفجار[٢٩]. فالنظرية الفلكية لا تعارض المفهوم القرآني في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ﴾.[٣٠]

قدرة المولى جلّ وعلا تتجلى في قوله: ﴿وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ❖ وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ❖ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ❖ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[٣١]. يقول تعالى منبهاً على خلق العالم «العلوي والسفلي» ﴿وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا﴾: أي جعلناها سقفاً محفوظاً رفيعاً ﴿بِأَيْدٍ﴾: أي بقوة، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والثوري وغير واحد ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾: أي أنا وسّعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد حتى استقلت كما هي ﴿وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾: أي جعلناها فراشاً للمخلوقات ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾: أي جعلناها مهداً لأهلها ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾: أي جميع المخلوقات أزواج سماء وأرض وليل ونهار حتى الحيوانات والنباتات، ولهذا قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾: أي لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾: أي الجأوا إليه واعتمدوا في أموركم عليه ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.[٣٠]

توسع الكون:

قال العالم النمساوي كريستيان دوبلر عام ١٨٤٢ بتجربة تعريض ضوء لموشور زجاجي، فوجد أنَّ الضوء يتحلل إلى أطياف سبعة هي الأحمر والبرتقالي والأصفر والأخضر والأزرق والنيلي والبنفسجي. فحيث أن مصدر الضوء يتحرك بعيداً عن الراصد فالضوء يزاح إلى اللون الأحمر. أما إذا اقترب الضوء من الراصد فالضوء يزاح إلى اللون البنفسجي[٣٢].

وبنفس الأسلوب رصد العلماء حركة النجوم

ولاحظوها تبتعد عنا بما يُعرف بالأنزياح الأحمر. كما اكتشفوا أن النجوم والمجرات تتباعد عن بعضها بشكل متواصل. مما ساعد على تفسير أن الكون في توسع دائم ومعه كل المجرات والنجوم. هذه الحقيقة تثبت ما جاءت به نظرية الانفجار العظيم[٢٤].

ولكن إلى متى يستمر هذا التمدد وهل سيستمر هذا التمدد؟ فلو فرضنا أنَّ الكون كان مقترحاً أي لا حدود له. فإنه سيستمر بالتمدد إلى ما لا نهاية إلى أن يصل الكون إلى مرحلة عجم انتقال الحرارة وفيها سيبقى الكون المتزن ساكناً إلى الأبد. أما إذا كان الكون مغلقاً، فربما يستمر إلى الأبد ولكن معدل التمدد سيتلاشى بمرور الزمن بسبب قوة الجذب المعوّقة والتي تعتمد على كثافة الكون. وبهذا يبدأ الكون بالتقلص بدلاً من التمدد كقذف الحجر إلى الأعلى بحث يصل إلى أعلى ارتفاع ينزل بعدها بتأثير الجاذبية الأرضية. والعديد من العلماء يعتقد بهذا ويبدأ الكون مراحله من جديد بما يسمى نظرية الكون المتذبذب Oscillating universe وهي مرحلة وسط بين نظريتي الانفجار العظيم والكون الثابت[٢٥].

إنَّ توسع الكون نتيجة الانفجار العظيم هو الذي يشرح الظلمة الحالكة في الكون برغم انتشار ملايين المليارات من النجوم، كما أنه السبب في انتشار الضوء بعد أن كان حبيس الكتلة الغازية الأولى. قال تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾[٢٦]. ما يبين أن بناء السماء وتسويتها كان بفعل التوسع الناتج عن الانفجار العظيم. فبعد ٣٠٠ ألف سنة من نشأة الكون ظهر الضوء واستطاع الفوتون أن يتحرك بعد أن كان محصوراً. فالظلام سابق للنور كما أثبتته التجارب الفيزيائية والقرآن الكريم في قوله تعالى ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾.[٢٧]

كما تساءل العلماء سابقاً عن سبب ظلمة الليل. فبالرغم من انتشار ملايين المليارات من النجوم في هذا الكون الفسيح. وعملاً بمبدأ توسع الكون. فالليل أسود لعدم وجود ما يكفي من النجوم لملء السماء بالضياء. فبتوسع الكون تشتت الضوء ولم يصل منه إلا القليل. لذا يبدو الليل أسود[٢٨].

السير إلى الفناء الحتمي:

تتكون مجرتنا درب اللبانة من مليارات النجوم ملتفة ضمن قرصين لولبيين بطول مائة مليار سنة ضوئية. فالجزء غير المرئي من مجرتنا أكبر من ذلك الجزء الذي نراه من الأرض. والاعتقاد السائد لدى العلماء هو وجود ثقب أسود في وسط المجرة يبتلع الملايين من النجوم بما فيها شمسنا محدثة تفاعلات وتجاذبات بما يعادل مليارات المرات قدر جاذبية الشمس.

كما أن الاعتقاد يستمر إلى أن مجرة أندروميدا الأقرب إلى مجرة درب اللبانة والأكبر حجماً بمقدار الضعف ستبتلعها. فسرعة اقتراب آندروميدا من درب اللبانة

تعادل ٥٠٠ ألف كم/سا. وهما الآن على بعد ٢.٥ مليون سنة ضوئية. وتلعب الجاذبية دوراً هاماً في تزايد السرعة وتصادمها المتوقع. والاصطدام الهائل سيكون مرعباً إلى درجة تغير معالم مجرة اللبانة. وهو ما يشبه نسبياً تصادم سيارة قاطرة حمولة ٥٠ طناً بأخرى تسع لشخصين أثنين. متنبئين نتائج الحادثة المروعة. فالاصطدام بين المجرتين ليس بعيداً بالمقاييس الفلكية وعلى بعد ٣ مليارات سنة[٣٩].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٤٠]. أي: لا تليق العبادة إلا له ولا تنبغي الإلهية إلا لعظمته، وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾. إخبار بأنه الدائم الباقي الحي القيوم الذي تموت الخلائق ولا يموت كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[٤١]. أي: فعبّر بالوجه عن الذات، وهكذا قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾. أي إلا إياه. وقد ثبت في الصحيح من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: أصدق كلمة قالها الشاعر لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل. وقال مجاهد والثوري في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، أي: إلا ما أريد به وجهه وحكاه البخاري في صحيحه[٤٢]، وحكاه البخاري في صحيحه كالمقرر له قال ابن جرير: ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر:

أستغفر الله ذنباً لست محصيه

رب العباد إليه الوجه والعمل

وهذا القول لا ينافي القول الأول فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة إلا ما أريد به وجه الله تعالى من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة. والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية وزائلة إلا ذاته وتقدس فإنه الأول الآخر الذي هو قبل كل شيء وبعد كل شيء. قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا في كتاب التفكر والاعتبار حدثنا أحمد بن محمد بن أبي بكر حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا عمر بن سليم الباهلي حدثنا أبو الوليد قال كان ابن عمر إذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتي الخربة فيقف على بابها فينادي بصوت حزين فيقول: أين أهلك؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾. وقوله: ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾. أي الملك والتصرف ولا معقب لحكمه ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. أي يوم معادكم فيجزيكم بأعمالكم إن خيراً فخير. وإن شرا فشر[٤٣].

نظرية الانكماش الكبير:

من العلماء الذين آمنوا بنظرية الانفجار العظيم يتوقعون تباطؤ سرعة الكون بمرور الزمن. فالحرارة الهائلة والتي تقدر بأضعاف مليارات المليارات درجة حرارة الشمس، تنخفض تدريجياً بعد مليارات السنين من حدوث الانفجار العظيم. مما يعني أن القوة الدافعة إلى الخارج بتوسع الكون نتيجة تتناقص بنفس المعدل.

هذا التباطؤ يدل على تفوق قوة الجاذبية

على قوة الدفع لتباعد المجرات، فتجذب المجرات إلى مركز الكون بسرعة مضطردة مع مرور الوقت، فتنكمش المادة المكونة للنجوم على نفسها بعد أن جذبت كل ما يدور في فلكها، وتُجذب بدورها من قبل النجوم المنسحقة والأقوى جاذبية، معممة هذه الحالة على كل المجرات. هذا هو الانكماش الكبير معاكساً تماماً للانفجار الكبير، فتتلاشى الأبعاد المكانية والزمانية، ويتجمع كل شيء في نقطة متناهية في الصغر، عالي الكثافة ودرجة الحرارة. ليعود الكون إلى سيرته الأولى كما كان لحظة ولادته[44].

يقول الدكتور زغلول النجار عن «الكون الثاني» بعد فناء الكون الحالي: (... إن هذا الجرم الثاني سيكون على هيئة جرم ابتدائي ثانٍ (رتق ثانٍ) شبيه تماماً بالجرم الأول (الرتق الأول) الذي نشأ عن انفجاره الكون الراهن، وسوف ينفجر بأمر من الله تعالى كما انفجر الجرم الأول، وسوف يتحول إلى سحابة من الدخان كما تحول الجرم الأول، وسوف يخلق الله تعالى من هذا الدخان أرضاً غير أرضنا الحالية، وسماوات غير السموات التي تظلنا، كما وعد سبحانه وتعالى. وهنا

الكون كافية لوقف تمدد المجرات الشاردة، وبالتالي جذبها إلى المركز، وحينها لا مانع من انفجارها كما انفجرت تلك الأولى، وتشكل كوناً جديداً، وهكذا يصبح الكون بين تمدد وتقلص ونتاط كونية أولى إلى ما لا نهاية، وأكوان قديمة وجديدة[46].

نهاية الكون:

هناك نظريتان علميتان متعارضتان تخص الكون:

- نظرية الكون المفتوح، أي أن الكون سيبقى في توسع دائم حتى ينفد منه وقود النجوم فتنطفئ ثم تموت، وبموتها يفنى الكون.
- نظرية الكون المغلق، أي أن الكون سيتوسع إلى حد معين، يتقلص بعدها وينقبض ليرجع كالبدء، وهذه تدعى نظرية «الأوركديون»، وهي تقول: أن الكون سيرجع كما بدأ، كتلة غازية ملتهبة عظيمة الحرارة والضغط بعد مائة مليار سنة من بدء الانفجار العظيم على حد تقدير العلماء، ليبدأ من جديد خلق آخر للكون، كما جاء في تقديرات العلماء[47].

في القرآن الكريم، هناك آيات تصور نهاية الكون، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ ... خلْق نُعيدُهُ وعْدًا

رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[49]. والمولى سبحانه يبدأ بكون غير الكون الحالي، قال جل جلاله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.[50]

كما ذكر سبحانه وتعالى حال السماء والنجوم والجبال عند نهاية الكون وقيام الساعة، ما يؤيد عودة الكون إلى ما كان عليه وقت نشأته قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[51]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[52]، وقال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۞ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾[53]، وقال جل جلاله: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾[54]. وقال المولى ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾[55]. وكما قال ذو الجلال والإكرام: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾[56]. قال تعالى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾[57]. فكل آية حقيقة علمية راسخة لما ستكون عليه حال الكون من السماء والأرض والجبال والبحار وغيرها وقت نهاية الكون، فمعجزات القرآن الكريم لا تنتهي، بعضها أثبته العلم الحديث، والآخر سيثبته لاحقا[58]. قال تعالى: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.[59]

إذاً هذه القوة الجبارة التي أوجدت كوننا وشمسنا وأرضنا وبقية خلق الله، هي نفسها التي ستنغلق على نفسها وتطوى كطي السجل للكتب، وترجع كما بدأت أول مرة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[60]، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[61]. عن ابن عباس قال: يطوي السموات السبع بما فيها من الخليقة والأرضين السبع بما فيها من الخليقة، يطوي ذلك كله بيمينه، يكون ذلك كله في يده بمنزلة خردلة، وقوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، قال: كما يطوي السجل الكتاب كذلك تطوي السماء، عن ابن عباس في قوله: «كما بدأنا أول خلق نعيده». قال: يهلك كل شيء كما كان أول مرة[62].

قال تعالى : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[63]. قال البخاري[64]: حدثنا مقدم ابن محمد حدثنا عمي القاسم بن يحيى عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ قال: إن الله تبارك وتعالى يقبض يوم القيامة الأرضين على إصبع وتكون السموات بيمينه، ثم يقول أنا الملك تفرد به من هذا الوجه[65]. ورواه مسلم من وجه آخر[66]. ورواه أحمد من طريق أخرى بلفظ آخر أبسط من هذا السياق وأطول.

فقال: حدثنا عفان حدثنا حماد ابن سلمة أخبرنا إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن عبيد بن مقسم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ يقول هكذا بيده يحركها يقبل بها ويدبر يُمجد الرب نفسه أنا الجبار أنا المتكبر. أنا الملك. أنا العزيز. أنا الكريم فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا ليحزنّ به[٦٧]. وقد رواه مسلم[٦٨]. والنسائي[٦٩]. وابن ماجه[٧٠]. من حديث عبد العزيز ابن أبي حازم. زاد مسلم ويعقوب بن عبد الرحمن كلاهما عن أبي حازم عن عبيد الله بن مقسم عن ابن عمر رضي الله عنهما نحوه ولفظ مسلم عن عبيد الله بن مقسم في هذا الحديث أنه نظر إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كيف يحكي النبي ﷺ. قال: يأخذ الله تبارك وتعالى سمواته وأراضيه بيده ويقول: أنا الملك. ويقبض أصابعه ويبسطها ويقول:أنا الملك. حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى إني لأقول أساقط هو برسول الله ﷺ[٧١].

الحواشي

١. سورة فاطر: ٢٨.
٢. كشف الخفاء: ج١ ص ٢٧١.
٣. أسرار السموات والأرض. ص ١٥-١٧.
٤. سورة الأنبياء: ٣٠.
٥. تفسير الطبري: ج١٧ ص ١٨.
٦. سورة فصلت: ١١.
٧. تفسير ابن كثير: ج٤ ص ٩٤.
٨. سر العالمين ص ١٣٣.
٩. الكون: ص ١٠٩.
١٠. بنية المادة: ص ٧٨.
١١. من علم الفلك القرآني: ص١٩.
١٢. La melodies secrete pp. 154.
١٣. سورة الواقعة: ٦٢.
١٤. سورة الكهف: ٥١.
١٥. من علم الفلك القرآني ص ٢١.
١٦. سورة النساء: ٤٠.
١٧. سورة يونس: ٦١.
١٨. سورة سبأ: ٣.
١٩. سورة سبأ: ٣٢.
٢٠. سورة الزلزلة: ٧.
٢١. سورة فاطر: ٤١.
٢٢. من علم الفلك القرآني: ص ٢٤-٢٧.
٢٣. سورة لقمان: ١٠.
٢٤. سورة الرعد: ٢.
٢٥. الشروق المؤرخة في ١٠-١٦/١٩٩٣.
٢٦. الكون ص:١١٢.
٢٧. سورة البقرة: ٢٩.
٢٨. سورة الأنبياء: ٣٠
٢٩. التفسير العلمي المعاصر. ص ٩٠.
٣٠. سورة فصلت: ١١.
٣١. سورة الذاريات: ٤٧-٥٠.
٣٢. تفسير ابن كثير ج٤ ص ٢٢٨.
٣٣. أسرار السموات والأرض: ص٢٦.
٣٤. الفيزياء ووجود الخالق. ص ٨٣.

٣٥. الكون وأسراره: ص ٨٨.

٣٦. سورة النازعات: ٢٧.

٣٧. سورة النازعات: ٢٩.

٣٨. من علم الفلك القرآني: ص ٣٥.

٣٩. أسرار السموات والأرض: ص٢٢٧.

٤٠. سورة القصص: ٨٨.

٤١. سورة الرحمن: ٢٦.

٤٢. صحيح البخاري: ج٣ ص ١٣٩٥.

٤٣. تفسير ابن كثير ج٣ ص ٤٠٤.

٤٤. أسرار السموات والأرض: ص٢٢٧.

٤٥. الأهرام العدد ٤١٧٠١، السنة ١٢٥، المؤرخة في ٢٠٠١/٢/٧م.

٤٦. الكون: ص ١٢٥.

٤٧. من علم الفلك القرآني: ص ٢٦.

٤٨. سورة الأنبياء: ١٠٤.

٤٩. سورة الأنبياء: ٣٠.

٥٠. سورة إبراهيم: ٤٨.

٥١. سورة الأنبياء: ١٠٤.

٥٢. سورة الزمر: ٦٧.

٥٣. سورة التكوير: ١، ٢.

٥٤. سورة التكوير: ٦

٥٥. سورة التكوير: ١١.

٥٦. سورة الانفطار:١.

٥٧. سورة المراسلات: ٨.

٥٨. من علم الفلك القرآني: ص٣٨.

٥٩. سورة الأنعام: ٦٧.

٦٠. سورة الأنبياء: ١٠٤.

٦١. سورة الزمر: ٦٧.

٦٢. تفسير ابن كثير: ج٣ ص ٢٠١.

٦٣. سورة الزمر: ٦٧.

٦٤. صحيح البخاري: ج٦ ص ٢٦٩٧.

٦٥. تفسير ابن كثير: ج٤ ص ٦٣.

٦٦. صحيح مسلم: ج٤ ص ٢١٤٨.

٦٧. مسند الإمام أحمد بن حنبل: ج٢ ص ٧٢.

٦٨. صحيح مسلم: ج٤ ص ٢١٤٩.

٦٩. السنن الكبرى: ج٤ ص ٤٠٢.

٧٠. سنن ابن ماجه: ج١ ص٧١.

٧١. تفسير ابن كثير: ج٤ ص ٦٣.

المصادر العربية

القرآن الكريم.

- أسرار السموات والأرض في القرآن. علي محمد غصن. دار العلم للملايين. ط١. بيروت. ٢٠٠٦م.
- الأهرام. جريدة مصرية يومية. القاهرة.
- بنية المادة بين الوجود والعدم. د. محمد ممدوح الخطيب. دار البشير. ط١. عَمان. ١٤١٦هـ. ١٤٠١هـ.
- تفسير ابن كثير: إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء (المتوفى ٧٧٤هـ). دار الفكر. بيروت. ١٤٠١هـ.
- التفسير العلمي المعاصر وأثره في كشف الإعجاز العلمي للقرآن الكريم. أ.د. سليمان بن صالح. دار الحضارة للنشر والتوزيع. ط١. الرياض. ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
- سر العالمين وكشف ما بين الدارين. أبو حامد الغزالي. مطابع النعمان. النجف. العراق. ١٩٦٥م.
- سنن ابن ماجه: محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني (٢٠٧-٢٧٥هـ). تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي/ دار الفكر. بيروت.
- السنن الكبرى: أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي (٢١٥-٣٠٣هـ). تحقيق: د. عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن. دار الكتب العربية. ط١. بيروت. ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- الشروق. مقالة: ثورة في الفيزياء الحديثة تعيد العلماء إلى الخالق. العدد ٦٢/ ٧٤ المؤرخة في ١٠-١٦/٦/١٩٩٣م.

■ صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي (١٩٤=٢٥٦هـ)، تحقيق د. مصطفى ديب البغا. دار ابن كثير، اليمامة. ط٣. بيروت. ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

■ صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري (٢٠٦-٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث. بيروت.

■ الفيزياء ووجود الخالق. أ.د. جعفر شيخ إدريس. سلسلة المنتدى الإسلامي. ط١، الرياض. ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

■ كشف الخفاء. إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي (المتوفى ١١٦٢م). تحقيق: أحمد القلاش. مؤسسة الرسالة. ط٤. بيروت. ١٤٠٥هـ.

■ الكون نظرة تراثية معاصرة. السيد عبد الأمير المؤمن. دار المحجة البيضاء. ط١. بيروت. ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

■ الكون وأسراره في آيات القرآن الكريم. أ.د. حميد مجول النعيمي. الدار العربية للعلوم. ط١. بيروت. ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

■ مسند الإمام أحمد بن حنبل: أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني (١٦٤هـ-٢٤١هـ). مؤسسة قرطبة. مصر.

■ من علم الفلك القرآني: الثوابت العلمية في القرآن الكريم. د. عدنان الشريف. دار العلم للملايين. الطبعة السادسة. بيروت. ٢٠٠٤م.

المصادر الأجنبية

* La melodie secrete, by Trinh Thuan, Fayard, 1988.



حقائق قرآنية في خلق الكون

المستقبلية وعقيدة القضاء والقدر: تعارض أم تكامل ؟

إلياس بلكا
فاس - المغرب



مقدمة:

تعني المستقبلية الاهتمام بالزمان الآتي، بجميع أنواع الاهتمام، مادام ذلك بمنهج علمي رصين، ويطلق على البحث المنظم في احتمالات المستقبل: «الدراسات المستقبلية»، ولاشك أن الإسلام يرشد إلى اعتبار المآلات ومراعاة المستقبل، بل إلى السعي فيه إعدادا وتهيئة، فهو دين المستقبل لا الماضي فحسب[1]... لكن قد يعترض على ذلك بعقيدة القدر، فيقال: كيف يزعم المسلم أنه يريد أن يكون له أثر على المستقبل، وإنما كل شيء بقضاء الله وقدره، خيره وشره..؟ وهذا السؤال هو ما يحاول مقالي هذا الإجابة عنه:

القدر: مشكلة نظرية وعملية:

هذا إشكال كبير. وله آثار هامة وواسعة على السلوك البشري المتعلق بالمستقبل... وفيه جانبان:

الأول - نظري أو علمي. وقد أشار كثير من العلماء لصعوبة قضية القضاء والقدر. يقول ابن رشد: «هذه المسألة من أعوص المسائل الشرعية، وذلك أنه إذا تؤملت دلائل السمع في ذلك وجدت متعارضة، وكذلك حجج العقول. أما تعارض أدلة السمع في ذلك فموجودة في الكتاب والسنة»[2].

الثاني - عملي. إذ أخطر ما في هذه العقيدة - إذا فهمت خطأ- أنها توحي بالعجز والكسل والاستسلام. حتى إن بعض المستشرقين

اعتبر أن من أسباب تخلف المسلمين الإسلام نفسه بـ«تقييده في السير في هذه الحياة طبقا لعقيدة الجبر فيه»[3] وبالطبع لا علاقة للدين بهذا. لكننا نعترف بأنه كان لأفكار الجبر انتشار ووجود بين المسلمين في القرون الأخيرة. حتى اشتكى من ذلك كثير من زعماء الإصلاح. فهذا جمال الدين الأفغاني يتحدث عن بعض الجبريين من المسلمين. فهم «أقوام بلباس الدين... أبدعوا فيه وخلطوا بأصوله ما ليس منها. فانتشرت قواعد الجبر وضربت في الأذهان حتى اخترقتها. وامتزجت بالنفوس حتى أمسكت بعنانها عن الأعمال»[4].

الإشكال عام في الفكر البشري:

والحقيقة أن مشكلة القدر ليست خاصة بالفكر الإسلامي. فجميع الأديان والفلسفات تعرف الإشكال[5]. ويعتبره هيوم -أب الشكية الحديثة- أصعب مسألة في أصعب علم. يعني الميتافيزيقيا.[6] وأحيانا تناول الفكر الأوربي- الديني والفلسفي- الموضوع تحت مسميات أخرى أهمها: الحرية، وأصل الشر[7]. ويعتقد كلا من هيوم وفولتير- وغيرهما كثير - أن بحث مشكلة الشر أمر يتجاوز العقل الإنساني ويفوق قدراته. لذلك لا يمكن حل الإشكال. بل ولا فهمه[8].

سـر القـدر:

وما صعوبة بحث القدر وعسر فهم حقيقته- وربما استحالة ذلك في الدنيا - إلا مظهر من مظاهر إخفاء الله سبحانه وتعالى له.. وهذا ما يعرف بسر القدر.

يقول أبو المظفر بن السمعاني: «القدر سر من أسرار الله تعالى اختص العليم الخبير به وضرب دونه الأستار وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم لما علمه من الحكمة. فلم يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب. وقيل إن سر القدر ينكشف لهم إذا دخلوا الجنة ولا ينكشف لهم قبل دخولها»[9] وكذلك قال الطحاوي في عقيدته: «أصل القدر سر الله تعالى في خلقه. لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل. والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان وسلم الحرمان ودرجة الطغيان. فالحذر كل الحذر من ذلك نظرا وفكرا ووسوسة. فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه. ونهاهم عن مرامه. كما قال تعالى في كتابه: (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون)[10]. فمن سأل لم ؟ فقد رد حكم الكتاب. ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين»[11].

النهي عن الخوض في القدر:

وأصل هذا التوجيه العقدي الهام حديث رسول الله ﷺ. فقد قال: إذا ذكر القدر فأمسكوا[12].

وروى ابن عمر أن النبي الكريم نهى عن إفشاء سر القدر.[13] وعن أبي هريرة مرفوعاً: آخر الكلام في القدر لشرار أمتي.[14] ويروى أيضا: إن أمر هذه الأمة لا يزال مقاربا حتى يتكلموا في الولدان وفي القدر[15].

قال ابن رجب: النهي عن الخوض في القدر يكون على وجوه منها:

١ - ضرب كتاب الله بعضه ببعض. فينزع المثبت للقدر بآية والنافي له بأخرى.

٢ - الخوض في القدر إثباتا ونفيا بالأقيسة العقلية.

٣ - الخوض في سر القدر. وقد ورد النهي عنه عن علي وغيره فإن العباد لا يطلعون على حقيقته[١٦].

إذن فلا سبيل للاطلاع على سر القدر، لكن العلماء اضطروا- لما ثارت شبه الاعتزال والجبر- إلى الكلام في القدر بصفة عامة، دون الخوض في دقائقه، وذلك لرد الناس إلى الاعتقاد السليم. وكانت غايتهم إنقاذ الاعتقاد بالتوحيد بإثبات أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وإنقاذ العمل بإثبات أن الإنسان مسؤول عن أفعاله وهو من يختارها.[١٧]

لهذا يجوز لنا أن نأخذ بالنظريات الكلامية التي تحاول إقرار القدر مع إنقاذ حرية الإنسان، فهي نظريات نستأنس بها وإن لم تكن أجوبة نهائية عن الإشكال. وذلك مثل أفكار أبي الحسن الأشعري وابن رشد وابن تيمية... وأمثالهم من أهل السنة والجماعة.

عقيدة القضاء والقدر:

هذه العقيدة ثابتة بالكتاب والسنة. ولكنها أصرح ما تكون وأوضح في أحاديث نبوية كثيرة، حتى إن دواوين عديدة في السنة خصصت كتبا لما جاء في هذا الباب. ومنها الكتب الستة. والذين أنكروا القدر حاولوا إما رد بعض هذه الأحاديث. وأنى لهم ذلك مع صحتها وكثرتها. وإما تأويلها. وهذا لا يمكن طرده في جميعها، لهذا قال أحمد القرطبي: «الأحاديث في هذا الباب كثيرة صحيحة يفيد مجموعها العلم القطعي واليقين الحقيقي الاضطراري بإبطال مذاهب القدرية. لكنهم كابروا في ذلك كله وردوه. وتأولوا ذلك تأويلا فاسدا».[١٨] أذكر بعضها:

عن عبد الله بن عمرو قال:« سمعت رسول الله ﷺ يقول: كتب الله مقادير الخلائق قبل أن تخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة».[١٩] فهذه الكتابة من عالم الغيب. وهي عبارة عن سبق علم الله بالأشياء قبل وقوعها.[٢٠] وقال عليه الصلاة والسلام: ما منكم من أحد إلا كتب مقعده من النار أو من الجنة. قالوا: ألا نتكل؟ قال: لا اعملوا فكل ميسر لما خلق له[٢١].

هذه قاعدة أهل السنة في الموضوع: الأقدار حق. والأسباب حق أيضا. وبعض الناس يغلب عليهم شهود الحق الأول فقط، وفيهم يقول الشيخ مرعي الحنبلي: «من شهد هذا المشهد فشهوده حق. لكن وراء هذا المشهد مشهد آخر. وهو أن يشهد المقادير مقدرة بأسبابها. لأنه يشهدها مجردة عن الأسباب، فإنه إن شهد ذلك كان شهوده ناقصا أعمى، وينشأ له الغلط من أن الأعمال لا تنفع وأن الأسباب لا تفيد. وهو قول مبني على أصل فاسد...فإن الله تعالى أجرى عادته الإلهية في هذا العالم على أسباب ومسببات تناط بتلك الأسباب وينسب أيضا وقوعها إليها نظرا للصورة الوجودية. وإن كان الكل في الحقيقة بقضائه وقدره باعتبار الحقيقة الإيجادية، وقد

سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن إسقاط الأسباب نظرا إلى القضاء والقدر السابق فرد عليه السلام...: لا اعملوا. فكل ميسر لما خلق له.»[٢٢]

إن الإشكال في القدر يكمن في التوفيق بين فعل الله تعالى في الوجود وبين أفعال الإنسان. فالجبرية مثلا قالوا: ليس للإنسان اختيار. وأعماله من خلق الله. والمعتزلة ذكروا أن الإنسان هو الذي يخلق أفعاله. أما الأشاعرة فقد راموا التوسط بين المذهبين. فقالوا: إن الله خلق أفعال العباد جميعا. فخالفوا الاعتزال. ثم أثبتوا للعبد قدرة سموها الكسب. فانفصلوا عن الجبر..غير أنهم لم يعتبروها قدرة مؤثرة. وهذا مذهب حسن. فإن أهل السنة - كما يقول الطحاوي - وسط « بين الغلو والتقصير. وبين التشبيه والتعطيل. وبين الجبر والقدر. وبين الأمن والإياس»[٢٣].

لكن فيه ضعفا. لأنه بتقرير قدرة لا تؤثر كأنه جعل منها صورة لا حقيقة لها. لذلك يقول رشيد رضا: «مذهب أهل الأثر. وهم أئمة السنة. وبعض محققي الأشاعرة كإمام الحرمين. أن قدرة العبد مؤثرة في عمله كتأثير سائر الأسباب في المسببات بمشيئة الله الذي ربط بعضها ببعض كما هو ثابت بالحس والوجدان والقرآن.»[٢٤]

ولعلك تقول: لو أثبتنا للعبد قدرة مؤثرة لزم الشرك. وإلا لزم الجبر. وهذا لأن التأثير - كما يقول ابن تيمية - لفظ مجمل[٢٥]. والتحقيق كما بين بنفسه أن: «التأثير اسم مشترك. قد يراد بالتأثير الانفراد بالابتداع والتوحيد بالاختراع. فإن أريد بتأثير قدرة العبد هذه القدرة فحاشا لله لم يقله سني. وإنما هو المعزو إلى أهل الضلال. وإن أريد بالتأثير نوع معاونة إما في صفة من صفات الفعل. أو في وجه من وجوهه كما قاله كثير من متكلمي أهل الإثبات. فهو باطل أيضا...إذ لا فرق بين إضافة الانفراد بالتأثير إلى غير الله سبحانه في ذرة أو فيل... وإن أريد بالتأثير أن خروج الفعل من العدم إلى الوجود كان بتوسط القدرة المحدثة. بمعنى أن القدرة المخلوقة هي سبب وواسطة في خلق الله سبحانه وتعالى الفعل بهذه القدرة. كما خلق النبات بالماء، وكما خلق الغيث بالسحاب. وكما خلق جميع المسببات والمخلوقات بوسائط وأسباب فهذا حق. وهذا شأن جميع الأسباب والمسببات. وليس إضافة التأثير بهذا التفسير إلى قدرة العبد شركا. وإلا فيكون إثبات جميع الأسباب شركا. وقد قال الحكيم الخبير: (فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات)، (وأنزل لكم من من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة). وقال تعالى: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم﴾...»[٢٦]

إذن لا غنى عن إثبات الأسباب والقول بسببية حقيقية لا عادية. وموضوع القدر وثيق الصلة بالعلية أو بالعلاقة السببية.وكنت قد درستها وبحثتها منذ سنين. وذلك في مجال الطبيعة أساسا. فظهر لي أن مشكلة السببية الطبيعية عويصة... لكنني أميل الآن إلى القول بأن قانون

العلية حقيقي. وأن للأشياء فعلا وتأثيرا بعضها في بعض، ولا مانع من تسمية ذلك طبائع. لأن الذي يميزنا - نحن المسلمين - عن الفلاسفة الطبائعيين هو أننا لا نقول بسببية مستقلة. يقول مرعي الكرمي: «ليس في الوجود سبب يستقل بحكم. بل كل سبب فهو مفتقر إلى أمر آخر... وله موانع وعوائق تمنع موجبه. وما ثم سبب مستقل بنفسه إلا مشيئة الله وحده.»[٢٧]. ولو اطلع القارئ الكريم على كتابي:«الوجود بين مبدئي السببية والنظام»، لوجد فيه تفصيلا حسنا لهذه القضايا.[٢٨]

وحين أقول: الأولى الأخذ بمذهب أهل السنة والجويني فنثبت سببية حقيقية في العوالم الثلاثة: الإنسان والحيوان والجماد... فنقول مثلا بقدرة مؤثرة يملكها العبد... فلست في ذلك أدعي -كما يفعل البعض - أن هذا المذهب سالم من كل نقاش وخال من جميع المعارضة. وغيره تخبطات وأغاليط..بل أقول: إنه أقوى المذاهب وأنسبها في العمل وأكثرها توفيقا بين ظواهر النصوص وأحكام العقل ومعطيات التجربة...ذلك أنه لا يوجد رأي في القدر لا يمكن معارضته بحجج من المنقول والمعقول، ولا سبيل إلى الجواب الشافي عن كل الأسئلة والرد على جميع الاعتراضات، فإن القدرة على ذلك معناها معرفة أصل القدر. وهيهات أن نصل لذلك ونحن لا نزال نجهل أصل الحجر.

التخطيط والإعداد والعلاج... وسائر الأسباب من القدر:

فهي ليست خارجة عنه. فالقدر يحيط بالإنسان. لا مفر منه... ولذلك رأى بعض العلماء أن القدر ليس شيئا آخر غير نظام الأسباب والمسببات الذي عليه أقام الله تعالى الوجود. يقول الشيخ محمود: «القضاء والقدر الذي أوجب الله الإيمان به ليس معناه أن الله يلزم الناس بما قدره وقضاه عليهم. فقد جعل الله لهذه المقادير أسبابا تدفعها وترفعها من الدعاء والصدقة والأدوية وأخذ الحذر واستعمال الحزم وفعل أولي العزم وسائر ما يلزم. إذ الكل من قضاء الله وقدره حتى العجز والكيس.»[٢٩]

وقد بين الرسول الكريم هذا المعنى في مغالبة القدر بالقدر أحسن بيان وأبلغه. فقد سأله أبو خزامة: يا رسول الله أرأيت رقى نسترقيها، ودواء نتداوى به. وتقاة نتقيها: هل ترد من قدر الله شيئا؟ فقال له: هي من قدر الله.[٣٠] ولابن القيم كلمة قيمة في معنى مغالبة القدر بمثله. قال: «وراكب هذا البحر في سفينة الأمر وظيفته: مصادمة أمواج القدر. ومعارضتها بعضها ببعض. وإلا هلك. فيرد القدر بالقدر. وهذا سير أرباب العزائم من العارفين، وهو معنى قول الشيخ العارف القدوة عبد القادر الكيلاني: «الناس إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا. إلا أنا. فانفتحت لي فيه روزنة فنازعت أقدار الحق بالحق للحق. والرجل من يكون منازعا للقدر. لا

من يكون مستسلما مع القدر». ولا تتم مصالح العباد في معاشهم إلا بدفع الأقدار بعضها ببعض. فكيف في معادهم؟ والله تعالى أمر أن ندفع السيئة- وهي من قدره - بالحسنة وهي من قدره. وكذلك الجوع من قدره. وأمر بدفعه بالأكل الذي هو من قدره. ولو استسلم العبد لقدر الجوع مع قدرته على دفعه بقدر الأكل حتى مات. مات عاصيا. وكذلك البرد والحر والعطش كلها من أقداره. وأمر بدفعها بأقدار تضادها. والدافع والمدفوع والدفع من قدره»[٣١].

القــدر الآتــي:

وقد ذكر ابن تيمية أن تعلق العلم بالماضي والمستقبل سواء. فمن أخبر عن الماضي وعن وقوعه - أو وقوع حدث فيه - بدون الأسباب يكون مخطئا... كذلك من يريد أن يخبر عن المستقبل وأن شيئا منه يكون بلا أسباب يكون مبطلا..فلابد من نظام الأسباب. غاية الأمر أن أكثرها معتاد وبعضها غريب[٣٢]. لذلك يجب على الإنسان أن يدفع القدر القادم الذي يتوقعه ولا يناسبه. بقدر أفضل له. أما القدر الماضي فيزيله بقدر جديد. يقول ابن القيم: « دفع القدر بالقدر نوعان: أحدهما: دفع القدر الذي انعقدت أسبابه -ولما يقع - بأسباب أخرى من القدر تقابله. فيمتنع وقوعه. كدفع العدو بقتاله. ودفع الحر والبرد ونحوه. والثاني: دفع القدر الذي وقع واستقر بقدر يرفعه ويزيله. كدفع قدر المرض بالتداوي. ودفع الذنب بقدر التوبة. ودفع الإساءة بقدر الإحسان.»[٣٣]

حديث احتجاج آدم بالقدر:

لكن قد يعكر على ما سبق ما يفهمه بعض الناس خطأ من قصة محاجة آدم لموسى عليه السلام: روى الأئمة عن النبي ﷺ قال: احتج آدم وموسى: فقال موسى يا آدم. أنت أبونا. خيبتنا وأخرجتنا من الجنة. فقال له آدم: أنت موسى اصطفاك الله بكلامه. وخط لك بيده. أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة. قال النبي عليه السلام: فحج آدم موسى. فحج آدم موسى[٣٤]. لذلك فإن بعض المسلمين يتعلق بالحديث ويظنه دليلا على صحة الاعتذار عن ذنوبه بالقدر السابق.

ويجدر بي أن أذكر شيئا. وهو أن الاحتجاج بالقدر لا يكون فقط في حالة المعصية. بل أيضا في أحوال الخطأ. والنسيان. والعجز. والكسل. والفشل. والتخبط. وترك الإعداد والعمل... ونحو ذلك. حتى إن بعض المسلمين يعتذرون اليوم على ما هم فيه من التخلف والهوان بالقدر...وربما أضافوا لذلك أن «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[٣٥].

نعود إلى الحديث.- برواياته وألفاظه -كما قال ابن حجر: «المعنى أنه لو استمر على ترك الأكل من الشجرة لم يخرج منها. ولو استمر فيها لولد له فيها. وكان ولده سكان الجنة على الدوام. فلما وقع الإخراج

فات أهل الطاعة من ولده استمرار الدوام في الجنة وإن كانوا إليها ينتقلون، وفات أهل المعصية تأخر الكون في الجنة مدة الدنيا وما شاء الله من مدة العذاب في الآخرة، إما مؤقتا في حق الموحدين وإما مستمرا في حق الكفار فهو حرمان نسبي»[٣٦].

وقد انقسم الناس في الحديث على فرق ثلاثة[٣٧]:

١ - فريق كذبوا به، كأبي علي الجبائي وغيره، لأنه من المعلوم بالاضطرار أن هذا خلاف ما جاءت به الرسل.

٢ - فريق جعلوه عمدة في سقوط الملام عن المخالفين للشرع.

٣ - فريق صححوه وأولوه بتفاسير مختلفة، بعد أن أجمعوا على أن آدم لم يحتج بالقدر على معصيته.

والرأي الأول لا يعرج عليه، فإن الحديث صحيح، وليس من منهج أهل السنة رد الأحاديث الثابتة بهذه البساطة، والفريق الثاني أسقط التكليف جملة. أما التأويلات فكثيرة، وبعضها ضعيف.[٣٨] لكن أهمها ما يلي:

١ - قال ابن عبد البر: هذا عندي مخصوص بآدم، لأن المناظرة بينهما وقعت بعد أن تاب الله على آدم قطعا، كما قال تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه﴾، فحسن منه أن ينكر على موسى لومه على الأكل من الشجرة، لأنه كان قد تيب عليه من ذلك، وإلا فلا يجوز لأحد أن يقول لمن لامه على ارتكاب معصية، كما لو قتل أو زنا أو سرق: هذا سبق في علم الله وقدره علي قبل أن يخلقني، فليس لك أن تلومني عليه، فإن الأمة أجمعت على جواز لوم من وقع منه ذلك، بل على استحباب ذلك كما أجمعوا على استحباب محمدة من واظب على الطاعة[٣٩].

٢ - قال ابن تيمية : «آدم عليه السلام إنما حج موسى لأن موسى لامه على ما فعل لأجل ما حصل لهم من المصيبة بسبب أكله من الشجرة، لم يكن لومه له لأجل حق الله في الذنب، فإن آدم كان قد تاب من الذنب، كما قال تعالى: (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه)....- وموسى- ومن هو دون موسى - عليه السلام يعلم أنه بعد التوبة والمغفرة لا يبقى ملام على الذنب، وآدم أعلم بالله من أن يحتج بالقدر على الذنب، وموسى عليه السلام أعلم بالله تعالى من أن يقبل هذه الحجة، فإن هذه لو كانت حجة على الذنب لكانت حجة لإبليس عدو آدم، وحجة لفرعون عدو موسى، وحجة لكل كافر وفاجر، وبطل أمر الله ونهيه، بل إنما كان القدر حجة لآدم على موسى لأنه لام غيره لأجل المصيبة التي حصلت له بفعل ذلك، وتلك المصيبة كانت مكتوبة عليه»[٤٠].

إذن ظاهر الحديث غير مراد. ولذلك لا يقبل الناس الاحتجاج بالقدر في معاملاتهم اليومية. ولا يرضون لمن أخذ مالهم أو أخطأ في حقهم أن يتعلل بالقدر. يقول مرعي الكرمي: «وهذا أمر جبل عليه الناس مسلمهم وكافرهم. مقرهم بالقدر ومنكرهم. ولا يخطر ببال أحد منهم الاعتراض بمثل هذا. فإذا كان هذا الاعتراض معروف الفساد بدائه العقول لم يكن لأحد أن يحتج به على الرسول»[٤١].

ولذلك كانت قاعدة الشرع ذم الاحتجاج بالقدر كما حين طرق الرسول الأكرم بيت فاطمة وزوجها ليصليا الفجر. فقال علي رضي الله عنه: يا رسول الله. أنفسنا بيد الله.. فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا. فانصرف النبي وولى وهو يضرب فخذه ويقرأ: (وكان الإنسان أكثر شيء جدلا).[٤٢] قال ابن تيمية: « هذا الحديث نص في ذم من عارض الأمر بالقدر. فإن قوله: إنما أنفسنا بيد الله..إلى آخره. استناد إلى القدر في ترك امتثال الأمر. وهي في نفسها كلمة حق. لكن لا تصلح لمعارضة الأمر. بل معارضة الأمر فيها من باب الجدل المذموم الذي قال الله فيه: (وكان الإنسان أكثر شيء جدلا). وهؤلاء أحد أقسام القدرية. وقد وصفهم الله في غير هذا الموضع بالمجادلة الباطلة «[٤٣].

الصحابة وعقيدة القدر:

ومما يدل على أن هذه العقيدة العظيمة - حين تؤخذ كما أمر الله ورسوله - لا تكون عائقا للتخطيط والنظر المستقبلي. ولا للعمل والكد والاجتهاد... أن الصحابة لم يكونوا جبريين متواكلين. فحياتهم كلها علم وعمل وفتح وإدارة.. هذا معروف لا يحتاج لبيان.

وإن عدم وجود آثار سلبية لهذه العقيدة في حياة جيل الصحابة ليس بسبب أنهم يجهلون الإشكال العام لموضوع القدر.. على العكس من ذلك تماما. فإن السنة تدل على إدراك الصحابة لطبيعة القضية ووعورتها:

عن أبي هريرة: خرج علينا رسول الله ونحن نتنازع في القدر. فغضب واحمر وجهه حتى كأنما فقئ في وجنتيه الرمان. فقال: أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر. عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه.[٤٤] فهذا لم يمنعهم من الفعل الإيجابي في التاريخ. فنشروا الدعوة. وبسطوا العلم. وحطموا دولا. وأسسوا حضارة...ونحن لليوم عيال على فضلهم..رضي الله عنهم.

ختاما:

نستنتج من هذا الموضوع أن عقيدة القضاء والقدر لا تضاد في شيء المستقبلية: لا في الاستشراف والتوقع. ولا في التخطيط والعمل...بل إن القدر يشير إلى أن لله تعالى نظاما صارما يسير عليه الكون. وأن فعل الإنسان من جملة هذا النظام وأداة من أدواته.

الهوامش

١. لقد أثبتُ أن الإسلام يعترف بالمستقبلية ويشجع عليها، وأصلت لذلك من الناحية الشرعية..وهذا في كتبي التالية: أ- الغيب والمستقبل. صدر عن مؤسسة الرسالة. ٢٠٠٦. ب- "نوجود بين مبدئي السببية والنظام" بحث في الأساس الشرعي والنظري لاستشراف المستقبل. يصدر قريبا عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بالولايات المتحدة.

٢. مناهج الأدلة في عقائد الملة. لأبي الوليد محمد بن رشد. ص ١٠٤-١٠٥.

٣. الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي. لمحمد البهي. ص ٦٥. وانظر أيضا:ص ١١٠.

٤. الفكر الإسلامي. لمحمد البهي. ص ٩٩.

٥. راجع: ١٣٠،٢٥٦ / ٤ ٢٧ .te. ٩/٣ ,Emile Bréhier Histoire de la philosophie (تاريخ الفلسفة، لإميل بريهيي).

٦. (بحث في الفهم البشري لدفيد هيوم). ١٤٤ David Hume: Enquête sur l'entendement humain, p

٧. أسأل الله تعالى أن يعينني على إتمام التأليف في هذه القضايا منطلقاً من التراث الإسلامي ومستفيداً من الفكر الأوربي.

٨. اقرأ: (الشكية الفلسفية. لفيردان). Verdan: Le scepticisme philosophique. p 129à134. Enquête sur l'entendement p 152-153

٩. نقله ابن حجر في: فتح الباري. كتاب القدر. ١١/٥٤٠.

١٠. سورة الأنبياء، آية رقم ٢٣.

١١. متن الطحاوية. لأبي جعفر أحمد بن محمد الطحاوي. ص١٧.

١٢. قال العراقي: رواه الطبراني وابن حبان في الضعفاء. المغني عن حمل الأسفار. ٤/٢٦٥. وذكر الهيثمي في مجمع الزوائد- طبعة دار الكتاب العربي. ٧/٢٠٢- أنه جاء عن ثوبان عند الطبراني في المعجم الكبير. وطريق آخر عن ابن مسعود. وكلا الإسنادين ضعيف. قلت: لكن الحديث حسنه ابن حجر في الفتح. ١١/٥٤٠. والسيوطي في الجامع الصغير. وذلك- فيما يبدو – لتعدد طرقه وشواهده.

١٣. رواه ابن عدي وأبو نعيم في الحلية. وضعفه العراقي في المغني. ٤/٢٦٥.

١٤. رواه الطبراني والحاكم في التفسير. وضعفه السيوطي في الجامع الصغير. ١/٢٧٥.

١٥. ذكر ابن القيم أن الحديث رواه ابن حبان في صحيحه عن ابن عباس. وقال: في القلب من رفعه شيء. تهذيب السنن. ٧/٨٥.

١٦. فضل علم السلف على الخلف. ص ١٦-١٧.

١٧. راجع في وجه كلام العلماء في القدر، مع وجود الأحاديث المتقدمة ونحوها: القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة. لعبد الرحمن المحمود. ص ٢٥-٢٦

١٨. المفهم. باب كل ميسر لما خلق له. ٦/٦٦١.

١٩. رواه مسلم في القدر. باب حجاج آدم وموسى. حديث رقم ٢٦٥٣.وسنن الترمذي في كتاب القدر. ح ٢١٥٦. وقال حسن صحيح غريب. وفي مسند أحمد عن أبي عبد الرحمن الحبلي بلفظ قدر عوض كتب. وصححه أحمد شاكر. ح ٦٥٧٩. ٦/١٥١.

٢٠. الإيمان بالقضاء والقدر على طريقة أهل السنة والأثر. لعبد الله آل محمود. ص ١٧١.

٢١. مختصر من حديث علي وآخر لعمران ابن حصين. راجع: البخاري. ك القدر. ب جف القلم على علم الله. ٦٥٩٦. ك التوحيد. باب قول الله تعالى: ولقد يسرنا القرآن. ٧٥٥١. ٧٥٥٢. مسلم. ك القدر. ب كيفية خلق الآدميين. ٢٦٤٧. أبو داود. ب في القدر. ٤٥٢٩. الترمذي. ب ما جاء في الشقاء والسعادة. ك القدر. ٢١٣٦.

٢٢. دفع الشبهة والغرر عمن يحتج على فعل المعاصي بالقدر. لمرعي بن يوسف الكرمي. ص ٧١.

٢٣. العقيدة الطحاوية. ص ٢٢.

٢٤. المنار ٨/١٨١. عند قوله تعالى: (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا). الأنعام ١٤٨.

٢٥. الفتاوى. ٨/١٢٢.

٢٦. الفتاوى.٨/٢٨٩-٢٩٠.وتخريج الآيات وفق تعاقبها في النص: الأعراف ٥٧. النمل ٦٠. التوبة ١٤.

٢٧. دفع الشبهة والغرر. ص ٧٩. وانظر أيضا ص ١٣٨. وكذلك فتاوى ابن تيمية. ٨/٧٠.

٢٨. حاليا تحت الطبع (المعهد العالمي للفكر الإسلامي). عجل الله صدوره.

٢٩. الإيمان بالقضاء والقدر. ص ١٨٠.

٣٠. رواه الترمذي. ك القدر. ب لا ترد الرقى ولا الدواء من قدر الله شيئا ٢١٤٨. وقبله في الطب. ب ما جاء في

الرقى والأدوية.٢٠٦٥. وقال: حسن صحيح. وابن ماجه. ك الطب. ب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء. ٣٤٣٧. وأحمد في المسند. ١١ :١٥. وحسن حمزة الزين إسناده. ١٢/ ١٩٤.

٣١. مدارج السالكين. لابن قيم الجوزية. ١/ ٢٣٢. وانظر تعليق ابن تيمية على مقولة الكيلاني في. الفتاوى. ٨/ ٣٠٦.

٣٢. الفتاوى. ٨/ ٢٧٧. والغريبة كالولادة من أم فقط.

٣٣. مدارج السالكين. ١/ ٢٣٣.

٣٤. هذا لفظ مسلم. في القدر. ب حجاج آدم وموسى. ٢٦٥٢. وأخرجه أيضا البخاري في القدر. ب تحاج آدم وموسى. ٦٦١٤. ورواية أبي داود أكثر تفصيلا. في باب القدر من السنن. ورواه كذلك أحمد في المسند. ٣ :٧٨. والترمذي في القدر. ب ٢. ٢١٣٤. ومالك في الموطأ. ب النهي عن القول بالقدر من كتاب الجامع.

٣٥. اقتباس من حديث أبي هريرة عند الترمذي. وابن ماجه. ونقل المناوي تجويد سنده في فيض القدير. ٣/ ٧٢٩.

٣٦. فتح الباري. ١١/ ٥٧٤.

٣٧. الفتاوى. لابن تيمية. ٨/ ٣٠٤-٣٠٥.

٣٨. راجعها في: فتح الباري.١١/ ٥٧٧-٥٧٨.

٣٩. التمهيد. ١٨/ ١٥ وانظر: إكمال المعلم. ٨/ ١٥١. المفهم. ٦/ ٦٦٨.

٤٠. الفتاوى. ٨/ ١٠٨. وانظر تفاصيل أخرى في الجواب في: ٨/ ١٧٨-١٧٩. ٣٢١-٣٢٢.

٤١. دفع الشبهة والغرر. ص ١٣٢.

٤٢. رواه البخاري. ك التهجد. ب تحريض النبي على قيام الليل. ١١٢٧. ك التوحيد. باب في المشيئة والإرادة. ٧٤٦٥. مسلم. ك صلاة المسافرين. ب ما روي فيمن نام الليل. ٧٧٥.

٤٣. الفتاوى. ٨/ ٢٤٤.

٤٤. رواه الترمذي في السنن: ك القدر. ب ما جاء من التشديد في الخوض في القدر. ٢١٣٣. وقال غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. لكن رواه ابن ماجه في مقدمة السنن. باب في القدر. ص ٣٣. بسند آخر. وهو عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده. ومن المعلوم أن هذا الإسناد حديثه حسن. لذلك قال البوصيري - في الزوائد بحسب نقل المرحوم عبد الباقي -: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات. والحديث رواه أيضا أحمد في المسند.

قائمة المصادر والمراجع

- إكمال المعلم بفوائد مسلم. لأبي الفضل عياض بن موسى بن عياض. حققه يحيى إسماعيل. دار الوفاء. المنصورة. مصر. ط ٢. ٢٠٠٤.
- الإيمان بالقضاء والقدر على طريقة أهل السنة والأثر. لعبد الله آل محمود. ضمن رسائله. نشر وزارة الأوقاف بقطر.
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد. لأبي عمر يوسف بن عبد البر. تحقيق جماعة بإشراف الجهة الناشرة. وهي وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب. طبع على مدى سنوات متفرقة من نهاية السبعينيات إلى أوساط الثمانينيات.
- تهذيب السنن. لابن قيم الجوزية. مطبوع مع مختصر سنن أبي داود للمنذري.
- الجامع. لأبي عيسى بن سورة الترمذي. حققه محمد علي ومحمد عبد الله. دار ابن الهيثم. بالقاهرة. ط ١. ٢٠٠٤.
- الجامع الصحيح. لأبي عبد الله محمد البخاري. مطبوع مع شرحيه: فتح الباري. وعمدة القاري.
- الجامع الصحيح. لمسلم بن الحجاج. مطبوع مع شرحه: الإكمال.
- الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير. لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. دار الكتب العلمية. بيروت. ط ٢. ٢٠٠٦. مطبوع مع شرحه فيض القدير.
- دفع الشبهة والغرر عمن يحتج على فعل المعاصي بالقدر. لمرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي. تحقيق عبد الله بن سليمان الغفيلي. دار المسير. الرياض. ط ١. ١٤١٩هـ.
- السنن. لأبي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه. تحقيق وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي. ١٩٧٥.
- العقيدة الطحاوية. لأبي جعفر الطحاوي.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري. لأحمد ابن علي بن حجر العسقلاني. عن الطبعة التي حققها عبد العزيز بن عبد الله بن باز. ورقمها محمد فؤاد عبد الباقي. دار الحديث. القاهرة. ١٤٢٤هـ.

- فضل علم السلف على الخلف. لابن رجب الحنبلي. عني به محمد أغا النتلي. إدارة الطباعة المنيرية. القاهرة.ط٢ . ١٣٤٧ هـ.
- الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي. لمحمد البهي.دار الفكر. ط٧. ١٩٩١.
- فيض القدير شرح الجامع الصغير. لمحمد عبد الرؤوف المناوي. أخرجه أحمد عبد السلام. دار الكتب العلمية بيروت.ط٣.٢٠٠٦.
- القضاء والقدر في ضوء القرآن والسنة ومذاهب الناس فيه. لعبد الرحمن بن صالح المحمود. دار الوطن. السعودية. ط٢. ١٤١٨هـ.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. لنور الدين علي ابن أبي بكر الهيثمي. بتحرير الحافظين: العراقي وابن حجر.دار الكتب العلمية. ط ١٩٨٨. ورجعت أحيانا إلى نسخة دار الكتاب العربي. بيروت. ط٢. ١٩٦٧.
- مجموع الفتاوى. لأحمد تقي الدين بن تيمية. جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم. الناشر: المكتب التعليمي السعودي بالمغرب.
- مدارج السالكين شرح منازل السائرين. لابن القيم.
- المسند. لأحمد بن حنبل. حققه وأخرجه أحمد شاكر. وأتمه حمزة الزين.دار الحديث. القاهرة.ط١. ١٩٩٥.
- المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار. لزين الدين عبد الرحيم العراقي. مطبوع بهامش إحياء علوم الدين.ط٢. ١٩٩٢.دار الكتب العلمية. بيروت.
- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم. لأحمد أبي العباس القرطبي. تحقيق محيي الدين مستو. ويوسف بديوي. وأحمد السيد. ومحمود بزال.دار ابن كثير. دار الكلم الطيب. كلاهما بدمشق.ط١. ١٩٩٦.
- المنار: تفسير القرآن العظيم. للشيخين محمد عبده ورشيد رضا.دار المعرفة. بيروت. ط٢.
- مناهج الأدلة في عقائد الملة. لأبي الوليد محمد بن رشد. المطبعة الجمالية بمصر.ط٢. ١٩١٠.
- الموطأ. لمالك بن أنس. طبع مصطفى البابي الحلبي بمصر. ١٣٤٨هـ.
- Emile Bréhier: Histoire de la philosophie. Cérès Editions , Tunis , 1994.
- David Hume: Enquête sur l'entendement humain. Traduction d'André Leroy. Editions Montaigne , Paris , 1947.
- Verdan: Le scepticisme philosophique. Editeur Bordas. Paris.

مُقوِّمات العالَميّة في اللغة العربية وتحدياتها في عصر العولمة

أ.د. عبد الرزاق عبد الرحمن السعدي

الجامعة الإسلامية العالميه - ماليزيا

يعنى هذا البحث بالتركيز على خصائص اللغة العربية التي تُؤهلها، لأن تكون لغه عالميه واسعة الانتشار تؤدي دورها في حضارة الأمة الإسلامية خصوصاً والأمم الآخرى عموما، وتُسهم في بناء الحضارة الإنسانية إسهاماً من شأنه أن يسمو بالمجتمعات إلى أعلى مقاماتها وأرفع درجاتها.

وعالميه اللغة العربية غير عولمتها، فعلى الرغم من وضوح مفهوم مصطلح العالمية فإنه لم يكن هناك اتفاق واضحٌ على تحديد مفهوم مصطلح العولمة. فالعالمية نسبة إلى العالم الذي يعيش على هذه الأرض بتنوع شعوبه ولغاته واتجاهاته وألوانه وعاداته وتقاليده. واللغة العربية بما أوتيت من خصائص مؤهلةٌ تأهيلاً كاملاً للعالمية. فهي تصلح لغةً ثانية لتلك الشعوب الناطقة بغيرها لتؤدي دوراً مهماً في بناء حضارتهم.

أما العولمة فقد قيل عنها إنها سلاح ذو حدين. وإنها فكرةٌ في حد ذاتها ليست إيجابية وليست سلبية. وإنها عملية لها مبرراتها وفيها عيوب خطيرة في الوقت نفسه. ويمكن استخدامها في الخير والشر. وقد عرّفها بعض الباحثين بقوله: العولمة مصطلحٌ بدأ لينتهي بتفريغ الوطن من وطنيته وقوميته وانتمائه الديني والاجتماعي والسياسي بحيث لا يبقى منه إلا خادم القوى الكبرى. . ويقول باحث آخر: العولمة تستهدف ثلاثة كيانات: الدولة، والأمة، والوطن. ويسميها أيضاً بثقافة الاختراق: اختراق مقدسات الأمم والشعوب في لغاتها ودولها وأوطانها وأديانها. ويثبت هانس بيتر مارتين وهارالد شومان أن العولمة هي عملية للوصول بالبشرية إلى نمط واحد في التغيير والأكل والملبس والعادات والتقاليد.

ولست هنا بصدد الحديث المفصل عن العولمة إلا أن طبيعة البحث في عالمية اللغة العربية تقتضي أن نشير إلى أن اللغة العربية بعيدة كل البعد عن العولمة بالمفهوم السلبي الذي سقناه آنفاً. فهي لغةٌ تقرُّ بالتثاقف الحضاري بين الشعوب والأمم. وتؤمن بأن العالم يُكمِلُ بعضه بعضاً. ولا

يجوز أن يفرض بعضهم على بعض لغته أو دينه أو موازينه. فالاختلاف في هذه الأطر طبيعي جداً والتعاون ضروري أبداً. وهذا هو واقع البشرية منذ أقدم العصور. فاللغات تلاقحت. والمجتمعات تعاونت. والحضارات عبرت من مكان إلى آخر. وتعايش الإنسان مع الإنسان بسلام ومودة. وإن ما قام بين البشر من حروب ونزاعات واعتداءات تنكرها العقول السليمة. وتحرمها مبادئ الأديان السماوية. وبخاصة دين الإسلام الذي جاء خاتماً للأديان يحمل هداية العالمين دون إكراه لأحد.

فاللغة العربية تكون عالميةً دون أن تلغي اللغات الأخرى: لأنها لا تهدف إلى أن تكون منفردة بالعالم. ولا تنازع اللغات الأخرى في صفوف ناطقيها. ولا تعيب على أي قوم لغتهم. بل هي لغة سمحة تعترف باللغات الأخرى وتتعايش معها وتقر باختلاف الألسن، بل إنها تجعل ذلك آية من آيات الخالق جل جلاله، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ الروم: ٢٢. واللغة العربية تشجع أهل اللغات على إتقان لغتهم واحترامها واحتضانها والاعتزاز بها وعدم التفريط في شيء منها. واللغة ركنٌ مهم من أركان قيام الوطن فالحفاظ عليها جزءٌ من الإيمان لكن اللغة العربية بما حباها الله تعالى من مزايا وخصائص تدعو الناطقين بها وبغيرها إلى معرفتها. وترغبهم في إتقانها. وتحثهم على تعلمها وتعليمها إلى جانب لغاتهم الخاصة بهم. لأنها لغة تحقق لهم نماء روحياً وماديا في الفرد والمجتمع مما قلَّ أن تحققه لغة أخرى. وهي لغة حريصة على أن ينال الإنسان هذا النماء الذي يحقق له سعادة الدنيا والآخرة.

لذا فإن اللغة العربية ليست عولميه بمفهومها السلبي بل هي عالميه. بما أوتيت من خصائص تحفظ لها سر ديمومتها وعالميتها. وهذا ما يقرره هذا البحث الذي سيتولى بيان فضائلها الدينية والعلمية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية. فهي لغة دين وعقيدةٍ وعبادةٍ. وهي لغةٌ تستوعب المصطلحاتٍ العلمية بما أوتيت من نظم الاشتقاق والتصريف والترادف والاشتراك وما إلى ذلك. وهي لغةٌ ينمو صاحبها اقتصادياً واجتماعياً من خلال ممارساتٍ لغويةٍ متنوعةٍ ومجالاتٍ متعددةٍ.

تمهيد:

اللغة هي الروح الحقيقي للمجتمع. والوعاء الرصين لثقافته. والأداة الصالحة للتعبير عن أفكاره وتوجهاته. والحصن المنيع لبقاء انتمائه واستمراره. وباللغة يشعر الفرد بالولاء لحضارته ومجتمعه. واللغة العربية واحدة من اللغات البشرية المختلفة التي جعلها الله تعال آية من آياته.

لكن مجال كل لغة له حدود مكانية وزمانية فهناك لغات قُدِّرَ لها أن تندثربمرور الزمن. وقد عفى عليها الزمان والمكان. وهناك لغات لا تزال حية عاملة بحدود جغرافية معينة وهناك لغات لها جذور منسية مهملة وفروع عامة مستخدمة: لأنها لغة متحركة غير ثابتة على أصولها. وهناك لغات لا تزال قائمة مستخدمة بأصولها وفروعها متطورة بتطور الحياة ومواكبة للزمان والمكان دون تنكر لماضيها وجذورها.

واللغة العربية من هذا النوع الأخير فهي لغة حية واسعة الانتشار وأصولها محفوظة مستعملة. وفروعها متطورة مستخدمة مع ارتباط وثيق بالجذور. فهي لغة يفهمها الناطق بها ويعبر بها عما تدعو الحاجة إليه بأساليب متنوعة وتراكيب

معبرة. والجيل الحديث يدرك اللغة العربية قديمها وحديثها: ويفهمها وينطق بها كما نطق بها الجيل القديم الذي لو عاش إلى عصرنا لفهم ما يتحدث به المُحدَثون في وقت يُدرس فيه ماضي اللغات الأخرى دراسة تراثية تاريخية لا علاقة لها بالواقع العملي لأهل تلك اللغة: لأنها لغات أهملت أصولها واستعملت فروعها فقط وطرأ عليها التغيير وعلى بعضها الاندثار. وسر ديمومة اللغة العربية يكمن فيما تحمله هذه اللغة من خصائص جعلتها لغة حية منتشرة عالمية صالحة لكل زمان ومكان لا تضيق ذرعاً بالتعبير عن كل قضايا الحياة ولا تتراجع أمام اللغات العالمية الأخرى. ويأتي هذا البحث ليتناول بشكل موجز بعض خصائص اللغة العربية التي أهلتها لهذا الموقع العالمي.

تصنيف اللغة العربية:

الانتماء: تنتمي اللغة العربية إلى أسرة اللغات السامية المتفرعة من مجموعة اللغات الأفرو-أسيوية.

الانتشار: اللغة العربية أكبر لغات المجموعة السامية من المتحدثين بها. وإحدى أكثر اللغات انتشارا في العالم. من أصل أكثر من أربعة آلاف لغة على الأرض. ويتوزع المتحدثون بها في المنطقة المعروفة باسم العالم العربي ويبلغ عددهم أكثر من (٣٣٠) مليوناً. بالإضافة إلى بلدان أخرى كإيران وتركيا وتشاد ومالي والسنغال ودول إسلامية وشرق أوسطية أخرى.

الموقف الرسمي: اللغة العربية لغة رسمية في كل دول العالم العربي ولغة رسمية أيضاً في السنغال ومالي وتشاد وأريتريا. وقد اعتمدت لغة رسمية في منظمة الأمم المتحدة كاللغات الأخرى المعتمدة. فإن اللغات العالمية الرئيسة لدى الهيئة الدولية هيئة الأمم المتحدة. هي التي تعتمدها شبكة الاتصالات الدولية الإنترنت. وهي الإنجليزية والفرنسية والروسية والصينية وبدأت اللغة العربية تأخذ موقعها على الشبكة المذكورة بكونها لغة عالمية خامسة وقد أدخلتها الهيئة الدولية واحدة من لغاتها الرسمية منذ ما يزيد على خمسٍ وعشرين سنة مضت.

التوصيف: تحتوي اللغة العربية على ثمانية وعشرين حرفا وتكتب من اليمين إلى اليسار بعكس كثير من لغات العالم ومن أعلى الصفحة إلى أسفلها ويطلق عليها ((لغة الضاد)): لأن هذا الحرف لا وجود له في اللغات الأخرى. والعربية أول لغة تستخدم حرف الضاد.

الإحصاء: قالوا: إن عدد المواد العربية أربعمائة ألف مادة. ولسان العرب يحتوي على ثمانين ألف مادة. وكل مادة ينتج عنها عدد كلمات بسبب الاشتقاق. أما اللغة الفرنسية فعدد كلماتها خمسة وعشرون ألف كلمة.

وأما الانجليزية فعدد كلماتها مائة ألف كلمة.

انتشار اللغة العربية:

جعل الله تعالى لكل كائن حي لغة ومنطقاً. وتميّز الإنسان عن سائر الحيوانات بلغة تمكنه من التعبير بها في شتى مجالات النشاط البشري والحياة الإنسانية. وخص اللغة العربية بخصائص ساهمت في بقائها وانتشارها وتطورها تاريخياً وحضارياً[١].

واحتضنت شبه الجزيرة العربية وجنوبها اللغةَ العربيةَ وسادتْ فيها حضارةٌ خاصةٌ بها قبل ظهور الإسلام. مما أدى إلى تطور اللغة العربية بنثر وشعر رائعين في جودة السبك ورصانة الأسلوب كما نراه واضحاً في خطب وقصائد العرب الجاهليين. وفي الجزيرة العربية تنتشر القبائل العربية ولكل قبيلة لهجتها حتى جاء الإسلام فأقرّ

اللهجات ووحد القبائل على لغة مشتركة في التداول بينها من خلال القرآن الكريم الذي أنزله الله قرآناً عربياً فتلازم تداول القرآن وانتشار الإسلام مع شيوع استخدام اللغة العربية، مما أكسب هذه اللغة حرمة ووسع آفاقها وساعد على انتشارها في مناطق الفتوحات الإسلامية شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً فأصبحت اللغةُ العربيةُ بفرعيها الشفوي والتحريري لغة منتشرة تساعد على نمو الحياة الاجتماعية واتساعها زماناً ومكاناً وموضوعاً.

وقد أشار القرآن الكريم إلى اللغة العربية نطقاً وكتابةً في عدد من آياته وضَمِنَ لهذه اللغة الفصيحة الموحدة استقرارها واستمرارها عبر العصور: لأنها لغة الكتاب الذي قال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩)[٢]. وقد أكسب الإسلامُ اللغةَ العربية قاعدة عريضة ومجالاً رحباً للحيوية والفعالية والنشاط الواقعي بين صفوف المسلمين ممن لسانهم عربي أو عجمي ناطق بها وكان الدخول في الإسلام يعني تعلم اللغة العربية حتى كادت العربية أن تكون مرادفة للإسلام في عصوره الأولى في نظر الشعوب الأخرى من غير العرب.

وقد سأل أبو جعفر المنصور مولىً لهشام بن عبد الملك سنة ١٣٢هـ عن هويته فقال المولى: ((إن كانت العربية لساناً فقد نطقنا بها وإن كانت ديناً فقد دخلنا فيه))[٣].

ثم إن العرب المسلمين الذين هاجروا من الجزيرة العربية واستوطنوا بلداناً حضارية عريقة لم يتنكروا لهويتهم العربية ولم يتركوا لغتهم الأم، بل حافظوا عليها منطلقين من روح الدعوة الإسلامية والأصول الحضارية التي تربَّوا فيها فبقيت شخصيتهم واضحة وذاتهم مفروضة على أرض الواقع مما نحل أهل الألسن الأخرى على محاولة تعلم اللغة العربية وهذا مسلك من مسالك انتشار اللغة العربية.

ثم إن السياسة الإسلامية امتدت خارج حدود الدولة الإسلامية وكانت لغتها العربيةَ: لأنها لغة الحكم السياسي الإسلامي فامتدت إلى حقول التجارة والاتصالات والصناعات والعلوم الطبيعية وقد أمر عبد الملك بن مروان باستعمال اللغة العربية في المراسلات ودواوين الخراج مما كان له أبلغ الأثر في انتشار اللغة العربية[٤].

من خصائص اللغة العربية أنها لغة دين:

حمل العرب الإسلام إلى العالم، وحملوا معه لغة القرآن التي هي العربيه الفصحى. وتعلمت الشعوب المسلمة هذه اللغه في غرب آسيا وشمال أفريقيا ومنهم من ترك لغته الأولى وآثر لغة القرآن وحملهم حبهم للإسلام وحبهم للغته على العناية الفائقة بقواعد هذه اللغة، فكانوا علماء النحو والصرف والبلاغة. حتى أصبحت اللغة العربية لغة عالمية ويشار إليها بأنها اللغة الحضارية في العالم.

فإذا كان المسلمون ينتشرون انتشاراً واسعاً في أرجاء المعمورة الأرضية فإنَّ ذلك يعني أن اللغة العربية موجودة في كل مكان وزمان ينطق بها المسلمون كل يوم صباحاً ومساءً: لأنها لغة الدين الذي يعتنقونه فهم يبدأون إسلامهم بالنطق بالشهادتين: ((أشهد أن لا اله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله)). ويتعبدون الله تعالى بتلاوة القرآن الكريم، وينادون إلى الصلاة بألفاظ عربية من خلال الأذان، وبها تؤدى خطب الجمعة والأعياد، ويستعملون اللغة العربية في صلاتهم من قراءة وتكبير وتحميد وتسبيح وتحيات وصلوات وتسليم ويذكرون الله تعالى ويدعونه ويؤدون مراسيم حجهم ناطقين بهذه اللغة من تلبية وتكبير ودعاء.

وبهذه اللغة يتواصل المسلمون بالتحية والسلام والتهنئة والتعزية ودعاء بعضهم لبعض بالمأثور من دعاء القرآن ودعاء السنة النبوية. ثم إن السنة النبوية القولية وهي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي - جاءت باللغة العربية الفصيحة.

وبناءً على هذه الأهمية العالمية للغة العربية جاءت نصوص جمّة تؤكد على تعلم العربية وإتقانها وتنهى عن إهمالها والخطأ فيها. ومن ذلك ما ورد عن النبي(أنه قال: ((أعربوا هذا القرآن فإن الله يحب أن تعرب آياته))[٤]. وقال عليه الصلاة والسلام: ((إنّ أهل الجنة في الجنة يتكلمون بالعربية من بين سائر اللغات))[٦]. ولما كتبَ كاتبُ أبي موسى الأشعري في البصرة إلى عمر بن الخطاب (في المدينة:

((من أبو موسى))-كتب إليه عمر: ((إذا أتاك كتابي هذا فاضرب كاتبك سوطاً واعزله عن عمله))[٧]. وقيل للحسن البصري: إن لنا إماماً يلحن. فقال: ((أخروه)) وقال: ((اللحن في الشريف كالجُدري في الوجه))[٨].

إن كون اللغة العربية لغةَ دين تجعل الأجيال متصلة جيلاً بعد جيل لأن الإسلام هو الدين الخاتم ولغته باقية ما بقيت الدنيا لن تجد بقعة في هذه الأرض إلا وفيها لغة عربية بتفاوت في الكمية والكيفية بين بقعة وأخرى.

أليست هذه الخصيصة للغة العربية عاملاً مهماً ورئيساً لأن تجعلها لغة عالمية باقية؟ وأنها لغة تشدّ إليها مئات الملايين من أجناس البشر ويفتخرون بأنّ لهم نصيباً منها؟

من خصائص اللغة العربية أنها لغة غنية:

يقول إرنست رينان الفرنسي: ((اللغة العربية بدأت فجأة على غاية الكمال وهذا أغرب ما وقع في تاريخ البشر فليس لها طفولة ولا شيخوخة)).

ويقول الألماني فريتاغ: ((اللغة العربية أغنى لغات العالم)). ويقول وليم ورك: ((إن للعربية ليناً ومرونة يمكنها من التكيف وفقاً لمقتضيات العصر)).

ويقول الدكتور عبد الوهاب عزام: ((العربية لغة كاملة محببة عجيبة تكاد تصور ألفاظُها مشاهد الطبيعة وتمثل كلماتُها خطرات النفوس وتكاد تتجلى معانيها في أجراس الألفاظ. كأنما كلماتها خطوات الضمير ونبضات القلوب ونبرات الحياة)).

هذه شهادات أجنبية وعربية بحق اللغة العربية فهي غنية عن الاقتراض من غيرها من اللغات: وذلك لكثرة مفرداتها وتنوع أساليبها وتعدد صيغها ومرونة معانيها. فهي تعالج كل المسميات وتعبر عن كل الموجودات وتتفنن في حسن الأداء. فمن درس النحو والصرف والبلاغة يدرك ذلك جيداً وليس هناك من لغة تحمل من الغنى ما تحمله اللغة العربية من سعة وآفاق رحبة. وهذا عنصر من عناصر ديمومتها وعالميتها.

من خصائص اللغة العربية الاشتقاق:

قال ابن دحية في التنوير: ((الاشتقاق من أعرب كلام العرب)). والاشتقاق هو أخذ صيغة من صيغة أخرى مع اتفاقهما في المعنى العام والمادة الأصلية لتدل الصيغة الثانية على معنى الأصل بزيادة مفيدة لأجلها اختلفت الصيغتان بعض الاختلاف في الحروف والهيئة مثل اشتقاق ضارب ومضرب من الضرب.

ويرى العلماء أن الاشتقاق ثابت عن الله تعالى وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقد صح في الحديث القدسي: ((يقول الله: أنا الرحمن خلقت الرّحم وشققت لها من اسمي)).

والاشتقاق يكون أصغر وكبير وأكبر كما ذكر

ذلك علماء الصرف بالتفصيل. ونظام الاشتقاق في اللغة العربية يبرهن على سعة هذه اللغة ومرونتها واحتوائها كل ما هو جديد من المسميات ويدل على صلاحها لكل زمان ومكان في التعبير عن حاجات الإنسان المتنوعة وهذه ميّزة تجعل العربية لغةً عالميةً.

من خصائص اللغة العربية مخارج الحروف وصفاتها:

معلوم أن اللغة العربية صوت مشتمل على الحروف: ولهذا الصوت منازل ودرجات قوة وضعفاً ومكاناً، واللغة العربية تملك أوسع مدرج صوتي عرفته اللغات، إذ تتوزع مخارج الحروف على مجرى الصوت ابتداءً من جوف الإنسان مروراً بالحلق وانتهاءً بالشفتين والخيشوم. أما اللغات الأخرى فقد تجد فيها حروفاً أكثر عدداً من حروف العربية لكن صفات حروفها ومخارجها قليلة ومحصورة في مجال ضيق وتزدحم في مخرج دون مخرج. فنجد على سبيل المثال في اللغة الفرنسية تزاحم أصوات الحروف في الشفتين وما تلاها من اللسان والخيشوم فتجدها لغة كثيرة الغنة.

وتتوزع مخارج الحروف في العربية توزيعاً عادلاً على أماكن خروج الحرف بما يؤدي إلى جودة التوازن وجمال الانسجام بين أصوات الحروف. واللغة العربية دقيقة في ذلك فهي تراعي في اجتماع الحروف في الكلمة الواحدة دقة التوزيع والترتيب حتى تتآلف الحروف تآلفاً صوتياً موسيقياً منسجماً مع الذوق البشري السليم. فعلى سبيل المثال: لا تجمع العربُ بين الزاي وبين الظاء أو بين السين أو الضاد أو الذال. ولا تجمع الجيم مع القاف والظاء والطاء والغين والصاد ولا الحاء مع الهاء ولا الهاء قبل العين ولا الخاء قبل الهاء ولا النون قبل الراء ولا اللام قبل الشين.

لذلك نجد أصوات حروف العربية ثابتة في كل زمان ومكان تتناقلها الأجيالُ بأمانة ودقة بفضل إتقان قراءة القرآن وتجويده والالتزام بقواعد التجويد المقررة فيه. ولن تجد مثل هذا الثبات ومثل هذه الميزة في اللغات الأخرى في العالم. وما طرأ من تشويه في بعض الألسنة على مخارج الحروف وصفاتها وبخاصة في اللهجات العامية فهو قليل محدود مفرق بين العرب غير مجتمع في لسان واحد.

ثم إن للأصوات العربية هدفاً بيانياً وقيمة تعبيرية لا تجدها في اللغات الأخرى فلو نظرنا مثلا إلى الغين لوجدناها تفيد الاختفاء والاستتار والغيبة كما قالوا: غاب وغار وغاص وغال وغام. وهكذا الجيم التي تفيد معنى الجمع مثل: جمع وجمل وجمد وجمر وهكذا. ولو فتشت في اللغات اللاتينية مثلا لا تجد مثل هذه الوظيفة للحروف ولا مثل هذه الفروق المعنوية.

من خصائص اللغة العربية ضبط الكلمات:

إن صيغ الكلمات في العربية لها جذور وأصول تُستمد منها. وهي قوالب للمعاني فكل صيغة تحمل مفهوماً خاصاً وإن اتحدت مع أصلها في عموم المعنى. فإذا قلت: شاربٌ ومشروبٌ ومَشْرَبٌ تجد اختلافاً في مدلول كل صيغه مع أن أصل المعنى واحد وهو الشرب فالصيغة الأولى اسم فاعل تدل على فاعل الشرب والثانية اسم مفعول تدل على المادة المشروبة والثالثة اسم مكان تدل على مكان الشرب.

لذا فإن كلَّ لفظ في العربية له وزنه وأصله الذي أخذ منه وفروعه المتولدة عنه ومدلوله الذي تعارفت عليه العرب، وانّ كثرة هذه الألفاظ قد تتشابه في تركيب الحروف وعددها فتختلط المعاني وتتداخل المدلولات. فكان ضبط الألفاظ

بالشكل والهيئة والبناء والصيغة والوزن أمراً ضرورياً انفردت به اللغة العربية فكلمة ((صبر)) يمكن أن تكون فعلاً ماضياً ((صَبَرَ)) ويمكن أن تكون مصدراً ((صَبْرٌ)) ووجود الوزن في الكلمات ينقلنا إلى المدلولات المتنوعة لكل صيغة فمعنى غفر غير استغفر ومدلول كَرُمَ غير مدلول أكرَمَ.

وقد جاء القرآن الكريم بأرقى ما يكن التعبير به من الصيغ وكل صيغة في القرآن تؤدي معناها بإعجاز باهر. فالتعبير بـ ((أنزل)) في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ القدر:١، غير التعبير بـ((نَزَّلَ)) في قوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ النحل: ٤٤. فالأولى تدل على فعل الإنزال دفعة واحدة في ليلة في ليلة واحدة والثانية تدل على كثرة التنزيل كلما دعت الحاجة ليكون واضحاً للناس.

إن هذه الخصيصة في اللغة العربية تجعلها لغة حية متطورة صالحة لكل زمان ومكان وبذلك تكمن عالميتها بجدارة.

من خصائص اللغة العربية الإيجاز:

والإيجاز يعني قلة الألفاظ وكثرة المعاني. وهي ميزة في اللغة العربية لا تجدها في اللغات الأخرى فيمكنك التعبير بالعربية عن معانٍ عديدة بألفاظ قليلة وهو ما عبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: ((أوتيت جوامع الكلم)). وقالت العرب: ((البلاغة الإيجاز)). وقالوا: ((خير الكلام ما قلّ ودلّ)). والقرآن الكريم حافل بالإيجاز المعجز. والإيجاز في اللغة العربية أنواع متعددة ذكرها علماء البلاغة بالتفصيل.

وقد يكون الإيجاز في العربية بالحرف فهناك حروف نقرؤها ولا نكتبها مثل: الألف في لكن وأولئك. ولانكتب في العربية إلا ما نحتاج إليه ونتلفظ به. وقد نوجز الكلمة بإدخال حرف في حرف آخر((الإدغام)) ونضع فوق الحرف (الشَدَّة) لتدل على أن الحرف مكرر وننطق به حرفين. وقد نستغني عن بعض الحروف فنحذفها مثل: ((عَمَّ)) أصلها ((عن ما)) و((ممَّ)) أصلها ((من ما)) و((بِمَ)) أصلها ((بما)).

وقد يكون الإيجاز في حروف الكلمات العربية مقارناً بحروف الكلمات الأجنبية:

حروف الكلمة العربية	حروف الكلمة الإنكليزية
أُمّ ٢ - حروف	Mother- 6 حروف
أبٌ- 2حروف	Father- 6 حروف
أخٌ - 2حرفان	Brother- 7 حروف

وفي العربيه نظام التثنيه والجمع بزيادة حرفين على المفرد، عوضاً عن تكرار الكلمة مرة أخرى أو مرات متعددة.

وقد يكون الإيجاز في التراكيب العربية، ففي الإضافة تجد كلمة متصلة بأخرى بإضافة حركة إعرابية في آخر المضاف إليه فتقول: قلمُ الطالب أو قلمه. وفي الإسناد تذكر المسند والمسند إليه فتقول: أنا طالب بلا رابطة مكتوبة أو ملفوظة. ويتميز الفعل في العربية باستتار الفاعل فيه أحياناً مثل: أصَلي. وقد تختصر الجملة في حرف واحد مثل: ((فِ)) من الأمر بالوفاء و((قِ)) من الأمر بالوقاية و((عِ)) من الأمر بالوعي.

وفي العربية ألفاظ لا نستطيع التعبير عن معانيها في لغة أخرى كأسماء الأفعال مثل: ((هيهات)) و((شتان)). ومثل حرف الاستقبال: ((سأذهب)) أو((سوف أذهب)). وكذلك النفي في العربية لون من ألوان الإيجاز تقول: ((لم أضربه)).

إن هذا النمط من الإيجاز لا يوجد في اللغات الأخرى. وقد رأينا -على سبيل المثال- سورة الفاتحة من القرآن الكريم مكونة من إحدى وثلاثين (٣١) كلمة وحين ترجمت معان تلك الكلمات إلى الإنجليزية وجدناها وصلت إلى سبعين (٧٠) كلمة.

أليس ذلك بكافٍ لأن يجعل اللغة العربية لغة عالمية؟

من خصائص اللغة العربية وجودها في اللغات الأخرى:

لا تكاد تجد لغة في هذه الأرض إلا وفيها كلمات عربية مع تفاوت في العدد. وبخاصة اللغات التي اعتنق ناطقوها الإسلام. فهناك كلمات عربية لا تعد ولا تحصى في اللغات الفارسية والتركية والأوردية والملايوية والسنغالية. وهكذا تجد عدداً غير قليل من الكلمات العربية في اللغات الإسبانية والبرتغالية والألمانية والإيطالية والإنكليزية والفرنسية.

ثم إن كثيرا من اللغات أخذت الحرف العربي في كتابتها كالتركية والفارسية والأوردية والجاوية. فقد كتبت هذه اللغات بالحروف العربية في حقبة زمنية طويلة، ولا يزال بعضها يكتب بالحرف العربي إلى يومنا هذا. بل إن بعض اللغات انقرضت وحلت محلها العربية كما حصل في العراق والشام ومصر بعد أن كانت تسودها الآرامية وغيرها.

اللغة العربية لغة العلوم الطبيعية:

إن الله تعالى شرف اللغة العربية أن جعلها لغة الكتاب العزيز. فقال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ يوسف: ٢. وشرف العرب أن جعلهم حملة الرسالة الإسلامية إلى العالمين، فدخل الناس في دين الله أفواجا رغبة في سعادة الدنيا والآخرة. وامتثلوا أمر هذا الدين الذي وجههم نحو العلم والمعرفة والإبداع والتطوير. حتى برز في أمة العرب والإسلام علماء مبدعون في أنواع المعارف وأصناف العلوم. وسبقوا غيرهم إلى اكتشاف ما في هذا الكون من ظواهر فوضعوا حولها التوصيف والقواعد والتحليل والعلاج واستنبطوا النتائج وقدموا بها خدمة جليلة للإنسانية في كل زمانٍ ومكانٍ. فكانوا بحقٍ سادة العالم علماً وفكراً وابداعا وتدوينا في علوم الدين والدنيا.

لقد دون هؤلاء العلماء اكتشافاتهم في مؤلفات ضبطوا بها كلَّ شاردة وواردة. وأحاطوا من خلالها بجزئيات كلِّ علم إحاطة السوار بالمِعْصم ونظموها بإحكام نَظْماً ثميناً حتى لا ينفرط عقدها ولا تندثر فروعها. وكانت لغةُ تلك المدونات هي اللغة العربية

التي اتسعت مفرداتها وتراكيبها لتستوعب كل العلوم ومصطلحاتها دون أن يعتريها عجزٌ أو تقصيرٌ. فهي لغةٌ لم تضق ذرعاً في التعبير عن تلك العلوم بما أوتيت من نظام بديع في الاشتقاق والتطور الدلالي والمرونة والحيوية وتعدد اللهجات وكثرة المفردات.

لذلك أصبحت اللغةُ العربية لغةً للمدونات والمؤلفات في علوم الطب والكيمياء والفيزياء والهندسة والفلك والرياضيات وغيرها من العلوم التي انتشرت مؤلفاتها باللغة العربية وتداولتها أيادي العلماء شرقا وغربا وانتفعوا بها انتفاعاً كبيرا وجعلوها المصدر الأول حين اعتمدوها في نظرياتهم ومؤلفاتهم. واعترفوا بفضل العلماء العرب والمسلمين على هذا السبق العلمي البديع وبخاصة أوربا في نهضتها العلمية التي اعتمدت على هذه المؤلفات. وبذلك ندرك أن اللغة العربية لغةٌ عالمية في سعتها وانتشارها وأن علماء العرب والمسلمين وما أنتجوه كان جسورَ وصلٍ بين الشرق والغرب ومشعَلَ نورٍ أضاء آفاق المعمورة. هذا بالإضافة إلى ما دونوه في علوم الدين واللغة بأنواعها المتعددة.

وهذا يكشف عن بعض جوانب الموضوع ويثبت بالدليل والبرهان عالمية اللغة العربية وريادتها وتطورها وصلاحيتها لمعالجةِ شؤون العلم والحياة. لعلها تستعيد عافيتها وتستوقد جذوتها ويعود انتشار نورها في وقت تحاكُ فيه التحديات لسحب البساط من تحتها وجعلها لغةً محليةً لقوم مخصوصين مما يفقدها عالميتها وبهاءها الذي عاشت به قروناً وقروناً.

فقد قامت نهضة حضارية إسلامية منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام. وبلغت ذروتها في عصر الخليفة العباسي المأمون (٧٨٦-٨٣٣م). واجتهد المسلمون بترجمة الكتب العلمية من الإغريقية والسريانية والفارسية إلى اللغة العربية. نقلوا من خلالها ذخائر علمية متينة.

كما أن عدداً من العلماء العرب قاموا بترجمة هذه الكتب وقدموا للأمة إنجازاً علمياً كبيراً. وأضافوا إلى هذه الترجمات كثيراً من مبتكراتهم. مما حمل بعض المنصفين من المؤرخين على الاعتراف بفضل العلماء العرب. ولولا أعمالهم لاضطر علماء النهضة الأوربية أن يبدؤوا من حيث بدأ هؤلاء ولتأخَّر سَيرُ المدنية طويلاً.

ولقد كان ذلك العصر عصراً ذهبياً بالنسبة إلى اللغة العربية. فقد أصبحت لغةَ للعلم زخرت بآلاف المقابلات والمصطلحات والمأثورات في مختلف فروع العلم التي تناولها العلماء العرب بالدراسة وبرزوا فيها وعلّموا غيرهم. حتى أخذ علماء عصر النهضة الأوربية ما شاء لهم أن يأخذوا من معين العرب والمسلمين الزاخر بالمعارف العلمية والإنسانية.

وكانت علوم إحياء -على سبيل المثال- من بين العلوم التي أولاها هؤلاء العلماء العرب اهتمامهم دراسة وبحثاً وتأليفاً باللغة العربية مما كان له أثر بالغ على الأجيال المتعاقبة عبر القرون إلى يومنا هذا. ولا يزال المتخصصون بعلوم الأحياء اليوم يرتعون من نبع العلماء العرب المسلمين الفياض وإرثهم الحضاري واللغوي في علوم النبات والزراعة والحيوان والحشرات. وهكذا شأن العلوم الأخرى من طب وفيزياء وكيمياء ورياضيات وفلك وغيرها.

عربية المصطلحات العلمية:

من الأمور الضرورية في لغة العلوم أن تكون هناك مصطلحات موحدة منضبطة لكل علم من العلوم. بحيث لا يدل المصطلح الواحد على

معنيين. ولا يكون للمعنى الواحد أكثر من مصطلح: لأن ذلك يجعل المصطلحات مرتبكة داخل العلم الواحد. فالبيروني مثلاً يستعمل مصطلح ((الخط المنحني)) ويعني به ما يقصده العلماء اليوم بـ(الخط المنكسر)).

إن توحيد المصطلحات العلمية للعلوم مسؤولية القائمين على اللغة العربية أفراداً وهيئات وبخاصة المجامع العلمية التي تقوم بوضع المصطلحات.

وان التساهل في إطلاق مصطلح واحد على معنيين مختلفين في علمين يؤدي إلى تضارب وخلط كاستعمال كلمة (جذر) مصطلحاً للجزء الذي يغيب من النبات في الأرض، ومصطلحاً للعد المجهول في الجبر.

إن لغة العلم ومصطلحاته يجب أن تعبر تعبيراً دقيقاً واضحاً عن وجوه العلم المختلفة للوصول إلى التفريق بين ما هو صحيح وما هو خطأ.

إن اللغة العربية قادرة على وضع المصطلحات العربية في العلوم، وليست عاجزة عن ذلك، وان عدم الإلمام باللغة العربية لا يعد دليلاً على قصور هذه اللغة في التعبير عن المجالات العلمية المختلفة.

وقد عجت كتب العلوم الطبيعية بالمصطلعات العلمية باللغة العربية فاستعملوا-على سبيل المثال-الأكسير، والقيراط، والانبيق، والدربة، والتجربة وغيرها كثير.

وحدة اللغة العربية في العلوم:

يدور مفهوم شائع بين المثقفين والكتاب والباحثين بأن اللغة العربية تختلف باختلاف موضوعها، فهناك لغة للعلم ولغة للأدب نثراً أو شعراً، ولغة للسياسة، ولغة للاقتصاد، ولغة للتجارة، وما إلى ذلك.

ومن الضروري تصحيح هذا المفهوم لأنه إذا قصد به لغة المصطلحات، فصحيح أنّ لكل موضوع وفن مصطلحاته المغايرة لمصطلحات الفن الآخر، أما إذا قصد به التعبير بلغة خاصة لكل علم فإنه لا فرق في اللغة العربية من حيث حصول الدلالة المقصودة بين علم وآخر، فاللغة العربية واحدة بمفرداتها وتراكيبها.

يقول الدكتور عمر فروخ: ((لأنّ الألفاظ وحدها لا تنشئ اللغة، وإنما ينشئ اللغة تراكيب النحو فيها ثم وجوه البيان والبلاغة))[٢٠].

فاللغة العربية واحدة والأساليب مختلفة في قوة الدلالة وضعفها، وفي وضوح المعنى وخفائه، وفي سهولة الألفاظ وصعوبتها، وهذا ما نجده في القرآن الكريم الذي عالج في آياته كثيراً من الموضوعات بلغة واحدة وبأساليب متنوعة تجعل الأثر واضحاً في دقة مطابقة الكلام لمقتضى الحال في آيات الذكر الحكيم.

فنجد أنّ ((هذه الآيات الكريمة في موضوعات مختلفة وقد جاءت كلها في سبك واحد واضح بين بليغ، والقراء المعاصرون لنا يتلونها كلها بأحكام التجويد، وربما رفعوا بها طبقات أصواتهم أو أجروها في ألحانهم فلا يختلف في ذلك كله قوله تعالى:

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

يس: ٤٠، من قوله تعالى:

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾

الإنسان: ١٤، على بعد ما بين الموضوعين)).

إفادة العالم من مدونات العرب:

لا ريب في أن القارئ لمؤلفات ابن سينا وابن الهيثم والبيروني وجابر والخوارزمي والرازي وابن النفيس والزهراوي والصوفي وابن يونس وابن

العوام وغيرهم ليمتلكه العجب ويأخذه الإكبار والإجلال لهؤلاء العلماء على ما قدموه من أسلوب علمي أخاذ ولغة عربية فصيحة سليمة كتبوا بها مؤلفاتهم في الفلك والرياضيات والضوء والهندسة والجبر والطب والكيمياء.

ولقد طوّعوا اللغة العربية لمصطلحات هذه العلوم الطبيعية المختلفة مما حمل المنصفين على الاعتراف بأن الينبوع الأول للعلوم الطبيعية إنما تفجر في العصر العربي الإسلامي الذي ازدان بأمثال هؤلاء العلماء.

وقد امتلكت أوربا زاد نهضتها العلمية عن طريق الأندلس التي سطعت فيها شمس الحضارة العربية الإسلامية عدة قرون. وعن طريق صقلية التي دانت للحكم العربي الإسلامي بضعة قرون. وعن طريق الحروب الصليبية ثم عن طريق الدولة العثمانية في شرق أوربا.

وظلت كتب العلماء العرب هي المراجع المعتمدة في جامعات أوربا في قرون عديدة. فأنشئت الجامعات الأوربية على غرار جامعة الأزهر. وترجمت الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية واللغات الأجنبية الأخرى. وسطعت شمس الحضارة العلمية على أوربا حين ضعف أمر الأمة العربية وانحسرت عن التمسك بحضارتها العتيدة.

إفادة العرب القدامى من غيرهم:

قبل اثني عشر قرناً من الزمان وفي عهد الخليفة العباسي المأمون تحديداً توافد المترجمون على بيت الحكمة في بغداد ونقلوا إلى العربية ذخائر الكتب العلمية التي كتبها الإغريق والفرس والهنود والسريان والقبط وغيرهم.

وكان الخليفة المأمون يشجعهم ويوليهم اهتمامه ويغدق عليهم المال ترغيبا لهم في نقل هذا الإرث الحضاري للأمم إلى اللغة العربية في عدد من أنواع العلوم كالطب والفلسفة والمنطق والأخلاق والسياسة والفلك والرياضيات والتشريح والنبات والحيوان وغيرها من العلوم. حتى أصبحت بغداد حينئذ مركز إشعاع علمي حضاري دانت لها الحضارة الإنسانية.

وقد نقل العلماء العربُ روائع أبقراط وفيثاغورس وأفلاطون وأرسطو وبطليموس وجالينوس وديسقوريدوس وإقليدس وأشميدس وغيرهم من علماء أثينا والإسكندرية[١١].

وهكذا استمرت الحركة العلمية في النمو والازدهار. وشملت الحواضر العربية كلها من بغداد إلى دمشق إلى القاهرة إلى مراكش إلى الأندلس. فعرفت الأمة العربية بذلك طب أبقراط وفلك بطليموسى وهندسة إقليدس وغير ذلك.

وأكبَّ علماء العرب المسلمين على التأليف في هذه العلوم بلغة عربية سليمة حتى نبغ من العلماء العرب مئات يقرنون بأعظم العلماء المشهورين في الأمم الأخرى. وهذه هي تآليفهم التي طبع قسم منها ولا يزال معظمها مخطوطاً تغصّ بها دور الكتب والمتاحف. وقد صرح بعض المصنفين من مؤرخي العلم بأن الحضارة الإنسانية مدينة للعلماء العرب في كل فروع المعرفة كابن الهيثم والصوفي والبيروني والكندي. وأنه لولا أعمال العرب لاضطر علماء النهضة الأوربية أن يبدأوا من حيثُ بدأ هؤلاء ولتأخر سير المدينة عدة قرون ورغم المعوقات التي واجهت العرب والمسلمين من المغول والتتر والاستعمار فإن ما أنتجه العرب يعد مفخرة يفاخرون به أوروبا لكن أثر تلك المعوقات حالت دون أن يكون نصيب الأمة العربية متقدماً على أوروبا وتكون اللغة العربية هي لغة العلم العالمية.

إفادة المعاصرين من القدامى:

حقق علماء العرب والمسلمين القدامى منجزات رائدة خالدة في العلوم الطبيعية جاءت بلسان عربي مبين. كتبها أسلافنا من الناطقين بالضاد. وجادت بها قرائحهم وعقولهم النيرة حتى أصبحت مشعلاً وبحراً زاخراً بالمعرفة عبر عدة قرون أيام كان العصر الإسلامي زاهراً وما بعده من عصور إبان عصور النهضة الأوربية.

إن لغويي العرب والمسلمين قد عنوا عناية فائقة في مجال العلوم الطبيعية وقدموها مفصلة مدققة باللغة العربية ومنها ما ترجم إلى لغات أخرى عديدة.

وعبروا عن المصطلحات العلمية باللغة العربية مما جعل اللغة العربية تستوعب أعداداً هائلة منها وقد أفاد منها العلماء المعاصرون في تدوين المعاجم العلمية المتخصصة مثل: الدكتور أحمد عيسى الذي ألف ((معجم أسماء النبات)) عام ١٩٢٦م. والذي يذكر فيه أن مما عني به عناية خاصة وبذل الجهد في جمعه وتحقيقه أسماء النبات ومرادفاتها في جميع العصور ومن مختلف البلدان العربية كمصر والسودان وبلاد العرب الأخرى كاليمن والعراق وسوريا وفلسطين وبلاد المغرب وأنه أفاد من مدونات العرب القديمة التي عنيت بالنبات وأسمائه.

وكذلك الدكتور محمد شرف الذي ألف قاموسا في العلوم الطبية والطبيعية سنة ١٩٢٦م. وقد عني فيه أشد العناية بالرجوع إلى ما كتبه الأسلاف من العرب في هذا الشأن ويقع هذا القاموس فيما يقرب من ألف صفحة ويضم أكثر من أربعين ألف مصطلح.

وهكذا الأمير مصطفى الشهابي الذي ألَف ((معجم الألفاظ الزراعية)) عام١٩٤٣م جمعه في عشرين سنة وضم تسعة آلاف لفظ فرنسي أو علمي ووضع أمامها ما يقابلها بالعربية معتمداً بذلك على كتب الفلاحة العربية واليونانية وعلى مفردات ابن البيطار ورسائل الأصمعي في الخيل والنبات والشجر. وهكذا فإن المجامع اللغوية التي قامت في بلدان الوطن العربي قد اعتمدت على ما دونه علماء العرب السابقون في إرساء المصطلحات العلمية في العلوم الطبيعية .

وإذا تركنا علماءنا العرب المعاصرين وذهبنا إلى العلماء المعاصرين من غير العرب فإننا نجدهم قد أفادوا من مصادر العلوم الطبيعية التي ألفها علماء العرب القدامى إفادة كبيرة يطول الحديث عنها في هذا البحث ويمكن أن يذكر ذلك في دراسة خاصة وبحث مستقل .

التحديات أمام اللغة العربية:

سأل طالب في بيروت أستاذه عن المعنى العربي لمصطلح أجنبي فقال له الأستاذ: وهل العربية لغة ؟!

لقد اتخذت محاولات الطعن في العربية أشكالا ومظاهر شتى. فهي تلبس تارة ثوب الطعن في الأدب القديم وصحته، وتظهر تارة بمظهر تشجيع اللهجات المحلية لتفتيت اللغة الواحدة وتمزيق الناطقين بها. وتارة تلبس ثوب الثورة على القديم والدعوة إلى التجديد. فمن مناد بالتمرد على الأسلوب العربي القديم. وهو لا يتمرد في حقيقته على قِدَم الأسلوب وإنما يتمرد على صحة اللغة وسلامتها. ومن قائل بضيق العربية وقصر باعها عن مواكبة الحضارة، ومن مصرح لهجر الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني. ومن داع إلى تغيير القواعد، ومن داع للاعتراف بالعامية وما فيها من أدب وفن .! ويلبس كل ذلك ثوب الإصلاح اللغوي.

وبلغ الأمر بأحدهم أنه لا يرى سبباً لهزيمة

العرب إلا لغتهم الفصحى. أو يراها من أسباب هزيمتهم. وثان نظر إلى تخلف العرب العلمي في عصر الذرة فأعلن أنه لا يرى لهذا سبباً غير تمسك العرب بلغتهم في مراحل التعليم عامة والتعليم العالي منها خاصة. وثالث لم يجد داء عند العرب أخطر من بقاء الحروف العربية في أيدي أصحابها. فدعا إلى نبذها وإحلال الحروف اللاتينية محلها ودعا آخرون إلى اللهجات المحلية وتشجيع دراسة تلك اللهجات باسم البحث العلمي في علم اللغة وفقهها. كما دعوا إلى العامية ودراستها. وما هذا إلا دعوة مفرقة ممزقة بطريقة علمية في عصر تبحث فيه الأمة عن وحدتها وترفع فيه شعار قوميتها. ولقد تأسى كثير من أصحاب هذه الدعوات بما فعله مصطفى كمال أتاتورك في تركيا حين نبذ الحروف العربية وكتب اللغة التركية بالحروف اللاتينية فقطع بذلك كل صلة للشعب التركي بمحيطه الشرقي والعربي والإسلامي ظناً منه أن ذلك يجعل تركيا في صدارة العالم المتقدم .

ويقول الإنكليزي (ويلوكس): ((إن العامل الأكبر في فقد قوة الاختراع لدى المصريين هو استخدامهم اللغة العربية الفصحى في القراءة والكتابة)). وما يزال أحد الشوارع في حي (الزمالك) بالقاهرة يحمل اسمه. ودفعت هذه الاتهامات أحد المفكرين إلى أن يصرخ من المرارة : ((من حق إسرائيل أن تحيي العبرية الميتة. ومن واجبنا أن نميت العربية الحية)). ويقول الدكتور عمر فروخ في هذا المعنى: ((أعجب من الذين يدرسون اللغات الميتة. ومن واجبنا أن نميت لغة حية كالعربية)).

إن من يراجع الوثائق التي بدأت بها عملية الاحتلال البريطاني لمصر يكتشف أن أول أعمال الاحتلال هو وضع الخطة لتحطيم اللغة. يبدو ذلك واضحاً في تقرير لورد دوفرين عام١٨٨٢ حين قال : إن أمل التقدم ضعيف (في مصر) ما دامت العامة تتعلم اللغة العربية الفصيحة.

وقد توالت هذه الحرب ليس في مصر وحدها بل في الشام والمغرب بأقطاره كلها في محاولات قدمها كرومر وبلنت من ناحية ولويس ماسينيون وكولان في المغرب. ثم تقدم رجال يحملون أسماء عربية للعمل بعد أن مهد لهم الطريق ويلوكس والقاضي ديلمور. وحيل بين اللغة العربية وبين أحكام المحاكم المختلطة والأجنبية.

وكان التعليم في البلاد العربية المحتلة يتم كله باللغات الأجنبية (الإنجليزية في مصر والسودان والعراق). والفرنسية في (سورية وتونس والجزائر والمغرب). فقد كانت لحظة النفوذ الأجنبي ترمي إلى:

أولا: تحويل أبجدية اللغات الإقليمية إلى اللاتينية وكانت تكتب أساسا بالحروف العربية. كما حدث في إندونيسيا وبعض بلاد إفريقية وآسية.

ثانياً: تقديم اللغات الأجنبية في الأقطار الإسلامية على اللغة العربية .

ثالثاً: تقديم اللهجات واللغات المحلية وتشجيعها والدعوة إلى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية.

رابعاً: ابتعاث الطلاب إلى الغرب لدراسة لغاته. وكان ذلك إيمانا بأن اللغة هي الوجه الثاني للفكر. وأن من يجيد لغة لا بد أن يعجب بتاريخها وفكرها ويصير له انتماء من نوع ما إلى هذه الأمة .

وكانت الحملة على اللغة العربية الفصحى من خلال حجج ضعيفة واهية منها : صعوبة اللغة. ومنها التفاوت بينها وبين العامية. وكان فرض

اللغات الأجنبية في مختلف أقطار الأمة الإسلامية عاملاً هاماً في فرض ثقافاتها ووجهة نظر أهلها والوقوف موقف الإعجاب بالغاصب والعجز عن مواجهته. ومن يدرس تجارب التعليم الغربي في البلاد العربية يجد الولاء الواضح للنفوذ الغربي.

وفي البلاد الإسلامية غير العربية فعل الأجنبي فعله في إفريقية وآسيا خاصة. ففي إفريقية عمد الإنجليز في نيجيريا إلى نقل حروف اللغات المحلية من العربية إلى الحروف اللاتينية فضلا عن عملية القضاء على التراث الإسلامي التي تعرضت للحريق للقضاء على كل أثر علمي عربي بعد قطع التيار الحضاري العربي القادم من شمال إفريقية ومصر.

وفي غرب إفريقية عمد الاستعمار الفرنسي إلى القضاء على اللغة العربية بعد معركة معها في الجزائر خلال مائة عام كاملة، وقد جاء هذا كله بعد أن بلغت اللغة العربية كل وصف حتى أصبحت لغة التخاطب بين قبائل نصف القارة كما أشار إلى ذلك (توماس أرنولد) في كتابه ((الدعوة إلى الإسلام)). وبعد أن كانت بعوث إفريقية ترسل إلى مكة والأزهر أصبحت ترسل إلى الغرب.

وبعد أن كانت اللغة العربية قد شاركت بحروفها وألفاظها في كل اللغات الأساسية في إفريقية وهي الهوسا والماندنجو والوولوف والسواحلية والصومالية ولغات النيجر والدناكل في إثيوبيا وإرتيريا. عمد النفوذ الأجنبي إلى إيقاف كل ذلك وإحياء الثقافات الإفريقية القديمة وصبغها بصبغة إقليمية تساعد على إثارة التعصب وإقامة القوميات المحدودة المحلية في نطاق قبلي ليستغلوا هذه الروح في إقامة سد مرتفع في وجه انتشار اللغة العربية مع نشر الثقافة الإنجليزية والفرنسية من خلال اللغتين ليتحقق الاستعمار الثقافي الكامل.

وهكذا أصبحت اللغتان الإنجليزية والفرنسية - كل في منطقة سيطرتها - لغة أساسية في مراحل التعليم المختلفة. وغلبت اللهجات القومية ولغة المستعمر ليس على مناهج التعليم فحسب بل على أعمال المصارف والمحاكم والدواوين.

أما في آسيا فقد استطاعت اللغات الأجنبية في جنوب شرق آسيا (الملايو - أندونيسيا - ماليزيا -تايلاند) السيطرة. وتراجعت اللغة العربية ثم تراجعت الحروف العربية أيضاً في تركيا وإندونيسيا.

وفي أندونيسيا وأرخبيل الملايو نجد الصورة قائمة. فقد تعرضت أندونيسيا بعد الاستقلال للتحديات في مجال اللغة فكتبت اللغة الأندونيسية بالخط الروماني (اللاتيني) بدلاً من الخط العربي المحلي. وأصبحت العربية لغة أجنبية لا يقرؤون ولا يكتبون بها، وأصبح العدد الأكبر قادرا على أن يقرأ اللغات الغربية وخاصة الإنجليزية.

وإذا أردنا حصر التحديات التي واجهتها اللغة العربية فإننا نلخصها بالتالي:

١-استبدال العاميه بالفصحى.

٢-تطوير الفصحى حتى تقترب من العامية.

٣-الهجوم على الحروف العربية والدعوة إلى استعمال الحروف اللاتينية.

٤-إسقاط الإعراب في الكتابة والنطق.

٥-الدعوة إلى إغراق العربية في سيل من الألفاظ الأجنبية.

٦-محاولة تطبيق مناهج اللغات الأوروبية على اللغة العربية ودراسة اللهجات والعامية.

المواجه:

وقبل الدخول في المواجهة علينا أن نشخص

الأمراض التي نعاني منها على المستوى اللغوي فالتشخيص نصف العلاج .

إن التردي في عصور الانحطاط كان عاملاً من عوامل ضعفنا اللغوي. وهذا التردي لم يكن مقصوراً على العامة من الناس بل شمل العلماء والفقهاء حتى كان يعجز الكثير منهم عن كتابة رسالة خالية من العجمة. بريئة من الركاكة أو العامية. سليمة من الخطأ. وكانت دروس الفقه والدين بل دروس النحو والبلاغة تلقى بلغة مشوبة بالعامية منحطة عن الفصحى. أما أساليب العرب الفصيحة والكلام البليغ فقد كانوا بعيدين عنه كل البعد. وكل ما تصبو إليه النفوس وترتفع إليه المطامح أن يقلد الكاتب أسلوب الحريري في مقاماته أو القاضي الفاضل في رسائله ومكاتباته.

لقد اختفت الفروق اللغوية وأصبحت الألفاظ المتقاربة مترادفة. ولم يبق الترادف مزية من مزايا العربية بل مرضاً من أمراضها الوافدة المنتشرة. وغلب على الناس استعمال الألفاظ في معانيها العامة فضاعت من اللغة بل من التفكير مزية الدقة التي عرفت بها العربية في عصورها السالفة. وأدى ذلك إلى تداخل معاني الألفاظ حين فَقَدت الدقة واتصفت بالعموم. وفقد الفكر العربي الوضوح حين فقدته اللغة نفسها. واتصفت بالغموض. وانفصلت الألفاظ عن معانيها في الحياة وأصبحت عالماً مستقلا يعيش الناس في جوه بدلاً من أن يعيشوا في الحياة ومعانيها.

إن الموقف يلقي أمامنا مشكلة النهوض باللغة العربية وقدرتها على الوفاء بحاجات أهلها في هذه الحياة الجديدة سواء أكان في ميدان العلوم أم الفن والأدب بأغراضه وآفاقه الحديثة. أم في ميدان الحياة العملية بما فيها من مستحدثات لا ينقطع سيلها. كما يدفعنا باتجاه التحرر من آثار عصور الانحطاط من جهة ومن التقليد الأجنبي والعجمة الجديدة التي أورثنا إياها عصر الاستعمار والنفوذ الأجنبي من جهة أخرى.

إن المطلوب تكوين وعي لغوي صحيح يساير وعينا السياسي والفكري بل هو الأساس لتكوين تفكيرنا تكويناً صحيحاً. والأخذ بأيدينا نحو الوحدة اللغوية والتحرر اللغوي والقضاء على التجزئة والشعوبية أو النفوذ الأجنبي في ميدان اللغة والفكر.

إن التعليم الجامعي العلمي خاصة في كثير من أقطار العروبة ما زال باللغات الأجنبية: فهو إنكليزي في بعض الأقطار. فرنسي في بعض الأقطار. روسي في الأقطار الأخرى. ولا توجد صيدلة عربية ولا طب عربي.

وما زال هناك إلى الآن من يجادل لإبقاء تدريس العلوم باللغات الأجنبية. لقد انقسم العرب إبان عهد الاستعمار إلى مجموعتين: الأولى هي الدول التي حافظت على اللغة العربية طوال فترات الاحتلال. ولكن العجب أن تتصاعد فيها آراء تشكك في صلاحية اللغة العربية لاحتواء العلوم الحديثة. والثانية: هي مجموعة الدول التي استطاع المستعمر فرض لغته عليها. وهي على العكس بذلت جهوداً مضنية لاستعادة مكانة اللغة العربية. ومنذ سنوات ظهرت حلقة من برنامج الاتجاه المعاكس في محطة الجزيرة القطرية الفضائية كان موضوعها عن صلاحية اللغة العربية في تدريس العلوم. وكان النقاش بين أستاذين جامعيين عربيين : الأول يدعو إلى تدريس العلوم باللغة الإنكليزية وهو سوري. والثاني يدعو إلى تعريب التعليم وهو جزائري.

إن كثيراً من دعاة العروبة لا يحسنون لغتهم. وهذا ما دفع أحد المفكرين إلى القول بأن هناك

إهانة توجه إلى العربية: تتجلى هذه الإهانة في ثلاثة أمور:

١. السيل من الأفلام والمسلسلات والتمثيليات والمسرحيات والأغاني باللغة العامية.

٢. بعض الزعماء العرب يخلط العربية بالعامية. وهم مولعون بخفض المرفوع وجر المنصوب.

٣. تقليد المنتصر.

وإذا نظرنا إلى ما يفعل أصحاب اللغات الأخرى لخدمة لغاتهم لوجدنا أنفسنا مقصرين كثيراً.

فالإنكليز مثلا يفعلون العجب في تعميم لغتهم، ويبتكرون الحيل الطريفة لتحبيبها إلى النفوس حتى أصبحت الإنكليزية لغة العلم والعالم. ومعاً.

وقد حفظ لنا تاريخنا جهود رواد بذلوا ما بوسعهم لخدمة هذه اللغة. فمثلا لما تولى سعد زغلول وزارة المعارف في مصر كان التعليم في المراحل الأولى باللغة الانكليزية: كان كتاب الحساب المقرر على الصف الابتدائي تأليف (مستر تويدي). وكذلك سائر العلوم. فألغى سعد هذا كله. وأمر أن تدرس المقررات كلها باللغة العربية. وأن توضع مؤلفات جديدة باللغة القومية. وبذلك المسلك الناضج حفظ لمصر عروبتها. وهذا الصنيع دفع أحد المفكرين المصريين إلى القول: ((إن سعداً أحسن إلى جيلنا كله يجعلنا عرباً)) فكم سعداً نحتاج إليه؟

وفي العراق شرع الرئيس الراحل صدام حسين قانون حماية اللغة العربية وفرض استعمالها في شؤون البلاد كلها. ولم يسمح بوضع اعلان أو تسمية شركة أو مادة إعلامية إلا أن تكون باللغة العربية وأمر بمراقبة المخاطبات التحريرية بين مؤسسات الدولة محذرا من الأخطاء اللغوية.

خصائص أخرى في اللغة العربية:

إن في اللغة العربية خصائص كثيرة وإفرادها بالبحث يحتاج إلى مجلدات. وحسبنا أن نشير هنا إلى عنوانات بعض تلك الخصائص تذكيراً بأنها اللغة المؤهلة للعالمية قبل غيرها.

١. وجود اللهجات في اللغة العربية دليل انتشارها ومرونتها.

٢. وجود القواعد النحوية والصرفية والبلاغية فيها دليل انضباطها.

٣. وجود التشبيه والاستعارة والمجاز فيها دليل حيويتها.

٤. وجود الاشتراك والترادف وغيرها دليل سعها وشمولها.

٥. وجود علم العروض فيها دليل دقتها.

خلاصة البحث:

بيّن البحث أهمية اللغة العربية وحاجة العالم إليها. وأوضح أن مقومات العالمية فيها قائمة وأنها لا تدخل في إطار العولمة بمفهومها السيئ لأنها لا تلغي اللغات الأخرى. وذكر البحث جملة من خصائص اللغة العربية التي من شأنها أن تجعلها لغةً عالميةً دون منازع وذلك كونها لغة دينٍ وعلمٍ، ولغةَ اشتقاق واشتراكٍ وترادفٍ وإيجازٍ وضبطٍ. وأنها لغة المدونات الأولى للعلوم عامة وللعلوم الطبيعية خاصة وأنها تواجه تحديات كبيرة وأن المواجهة مطلوبة لحمايتها من أعدائها.

التوصيات والمقترحات:

١. اتخاذ قرار رسمي سياسي عربي إعلامي بإعادة لغة العلوم إلى عربيتها كما كانت في سالف عهدها اعتزازاً بلغة القرآن الكريم.

٢. قيام العرب والمسلمين ساسةً ومثقفين بفتح مراكز لتعليم اللغه العربية في الدول الناطقة بغيرها. وتأليف الكتب المنهجية المتطورة العصرية لهذه اللغة كما هو شأن تعليم اللغات الأخرى وبخاصة الإنجليزية .

٣. الاتفاق على إدخال اللغة العربية في تكنولوجيا هذا العصر. ومطالبة الشركات المصنعة أن تضع العربية في جميع الأجهزة المصنعة وما يرافقها من تعليمات وبخاصة أجهزة الحاسوب.

مصادر البحث وهوامشه:

١- ساطع الحصري. أبحاث ودراسات على ضوء الأحداث والنظريات. الطبعة الثانية. سلسلة التراث القومي. بيروت مركز دراسات الوحدة العربية.١٩٨٤م . ص٤٥.

٢ د.نازلي معوض أحمد. التعريب والقومية العربية في المغرب العربي. سلسلة الثقافة القومية (٦). مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت ١٩٩٦م. ص١٥.

٣- الدوري. عبد العزيز الدوري. التكوين التاريخي للأمة العربية. دراسة في الهوية والوعي. بيروت ١٩٨٤م . ص١٩.

٤- د.نازلي معوض أحمد. التعريب والقومية العربية.ص١٨.

٥- ابن فلاح. منصور بن فلاح اليمني. المغني في النحو. تحقيق د. عبد العزيز السعدي. طبع سنة ١٩٩٩م في بغداد. ج١ ص ٤٥.

٦- المصدر السابق: ج١ ص ٤٦.

٧- المصدر السابق: ج١ ص ٤٦.

٨- المصدر السابق: ج١ ص ٤٦.

٩- المبارك . د. مازن المبارك . النصوص اللغوية. دار الفكر دمشق.ط الثالثة. ١٤٠١هـ=١٩٨١م. ص١٦٥.

١٠- فروخ. د. عمر فروخ . لغة العلم. بحث منشور في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة. الجزء ٤٧. سنة ١٤٠١هـ=١٩٨١م. ص٢٥-٣٠.

١١- المصدر السابق: ص٢٦.

١٢- منتصر. الدكتور عبد الحليم منتصر. خصائص اللغة العربية في التعبير العلمي. بحث منشور في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة. الجزء ٣٣ص ٤١. سنة ١٣٩٤هـ=١٩٧٤م.

١٣- الدفع. د. علي عبد الله الدفع ود. جلال شوقي. أعلام الفيزياء في الإسلام . مؤسسة الرسالة. ط الأولى ١٤٠٤هـ=١٩٨٤م. بيروت.

١٤- النجار. د. زغلول راغب النجار ود. علي عبد الله الدفاع. إسهام علماء المسلمين الأوائل في تطور علوم الأرض. طبع مكتب التربية العربي لدول الخليج ١٤٠٩هـ=١٩٨٨م.

١٥- الدفاع. د. علي عبد الله الدفاع. أثر علماء العرب المسلمين في تطور علم الفلك. ط الثانية ١٤٠٥هـ١٩٨٥م.

المستدرك على ديوان جرير

د. طراف طارق النهار
صنعاء - اليمن

يتكون هذا البحث الموسوم بـ: «المستدرك على ديوان جرير» من أبيات ومقطوعات شعرية خلا ديوان جرير المطبوع منها، إذ تم استدراكها من عدد من المصادر المتنوعة التاريخية منها والأدبية، وكتب المعاجم والبلدان...وغيرها، وقد اختلطت نسبة بعض الأبيات بين جرير وغيره من الشعراء في بعض المصادر، فآثرت أن أضعها في نهاية البحث تحت عنوان: ما يُنسب إلى جرير وإلى غيره، وبما أن جريراً من شعراء الهجاء المقدَّمين في العصر الأموي؛ فلا غرو أن نجد أغلب هذه الأبيات والمقطوعات تعبر عن هذا الغرض، مع وجود أغراض شعرية أخرى.

المقدمة:

الحمد لله، حمداً يكون لقائله ذُخراً، والصلاة والسلام على نبيه القائل: إن من الشعر لحكمةً وإن من البيان لسحراً. أمَّا بعدُ:

فتواصُلاً مع جهودٍ سابقةٍ في الاستدراك على بعض دواوين الشعراء، جاء في مقدمتهم ديوان الفرزدق - إذ تم استدراك ما يربو على مئةٍ وخمسينَ بيتاً على ديوانه - جاء هذا الجهد المتواضع في الاستدراك على ديوان جرير، ليكون حلقة أخرى في سلسلة حلقات، ستمتد إلى شعراء أخرين بعون الله.

إنَّ هذه الاستدراكات تعزز الفكرة القائلة بضياع الشعر العربي في ثنايا خزائن التراث، وتكشف عن جوانب من حياة هؤلاء الشعراء، وربما تضع أمام الباحثين مادَّةً أدبيةً لإعادة النظر في تقويم بعض جوانب الأدب العربي الذي لم تكن الأحكام التي قيلت بشأنه دقيقة، كما أنها تمثل ثروةً لغويةً مضافة، ولمَّا كانت الرواية الشفوية

رافداً من روافد الشعر. وفي ظل ضياع كثير من تراثنا، فإن عملية الجمع والتدوين تظل قاصرةً عن استكمال جمع الشعر. ولذا فإن جهود الباحثين في الاستدراك على ما جُمِع ونُشِرَ من شعر تظلُّ متواصلة ما دامت من جهد البشر.

ويأتي هذا البحث ليصب في هذا السياق، فقد جمعت من شعر جرير المُستدرك على ديوانه، واحداً وستينَ بيتاً، تراوحت في أشكالها بين البيت الواحد، وثلاثة عشر بيتاً، وأود الإشارة إلى أن ما استُدرك من أبيات، إنما كان مصدره الكتب المطبوعة، أمَّا المخطوطة فتحوي كثيراً منها، والزمن وجهود الباحثين وحده الكفيل بإخراجها، لتنضم إلى مثيلاتها.

ووضعت في نهاية البحث بعض الأبيات التي جاءت نسبتها في بعض المصادر لجرير، وفي بعضها الآخر لغيره من الشعراء، أو بقيت بدون نسبة إلى شاعر معين.

وفي نظرة فاحصة للموضوعات التي دارت عليها هذه الأبيات والمقطوعات، نجد أن معظمها انصبَّ على الهجاء، ولا غرو إذا ما علمنا أنَّ جريراً لم يكن له شرفُ عائلة كريمة يَعتدُّ بها ويُفاخر بمآثرها؛ وجدنا تفسيراً لكثْرة هجائه للآخرين وسلاطة لسانه، ولا أدلَّ على ذلك من جواب الأخطل بعدما سئل عن نفسه وعن جرير والفرزدق، فقال: «أنا أمدحهم للملوك، وأوصفهم للخمر، والفرزدق أفخرنا، وجرير أهجانا وأسبُّنا وأسهبُنا». وفي إجابةٍ عن سؤالٍ آخر يقول الأخطل عن جرير: «دعوه فإنَّه كان بلاءً على مَنْ صُبَّ عليه.... والله لو تركوه لأبكى العجوز على شبابها، والشابة على أحبابها». كما أنه بقي أربعين سنةً لا يعرف من الشعر إلا الفخر والهجاء.

وللتدليل على شدة هجائه وإجادته في هذا اللون من الشعر وغيره، ما نجده في حُكم مروان بن أبي حفصة، على شعره وشعر الفرزدق والأخطل، بعدما طلب منه ابن سلام الجمحي أن يقول رأيه شعراً، وذلك لأن الكلام يرويه كل قوم بأهوائهم، فقال:

ذهب الفرزدق بالفخار وإنما ... حُلوُ القصيد ومُرُّهُ لجرير

ولقد هجا فأمضَّ أخطل تغلب ... وحوى اللها ببيانه المشهور

كلُّ الثلاثة قد أبرَّ بمدحه ... وهجاؤه قد سار كلَّ مسير

فهو كما نراه حكم للفرزدق بالفخار، وللأخطل بالمدح، وبالهجاء وجميع فنون الشعر لجرير.

والحقيقة لا بد من الإشارة إلى الخلل الذي وقع في ديوان جرير المطبوع، وإغفال المحققين لهذه الأبيات والمقطوعات، أو عدم وصولها إلينا، ومما لاشك فيه، أن لديوان جرير مخطوطات متعددة، جمعها وصنفها واهتم بشرحها العلماء، وصل إلى أيدينا منها نسخ تتفق كلها في ترتيب القصائد والأبيات، لكنها تختلف في الشرح، أمَّا النسخ التي لم تصلنا فربما حوت من هذه الأشعار المستدركة بعضها، وقد جمع الدكتور نعمان محمد أمين طه في مقدمته لديوان جرير، المخطوطات التي اعتمد عليها المحققون، وتناولها بالتعريف والوصف وأجملها بالآتي:

١ - مخطوطة محفوظة في لينغراد في المتحف الأسيوي تحت رقم: ٢٦٢.

٢ - مخطوطة ليدن محفوظة في مكتبة ليدن في هولندا تحت رقم: God.Warn 633..

٣ - مخطوطة رامبو من نسخ المدينة المنورة تقع في ٨٨٣ ورقة.

٤ - مخطوطة دار الكتب المصرية تحت رقم: ٧٧٤ أدب.

٥ - مخطوطة د. سخاو محفوظة في مكتبة كمبردج تحت رقم: D.D.5.10.

٦ - مخطوطة محفوظة في المتحف البريطاني تحت رقم: (٦٠٢١ مغربي).

وفضلاً عن احتمال وجود بعض هذه الأشعار المستدركة في بعض النسخ التي لم تصلنا أقول: إن الإغفال الذي وقع، ربما يكون سببه أن معظم شعر جرير كان في مدح البيت الأموي، وتعداد مآثرهم وذكر مزاياهم الحميدة؛ مما كُتِبَ له الذيوع والانتشار الواسع: أمَّا هذه الأبيات المفردة والمقطوعات التي جمعتها، فإنها تتسم بشيء من الخصوصية الفردية. وربما قالها في مساحات ضيقة من الناس، فلم تنل مثل ذلك الاهتمام، على الرغم من وجود إحداها في أخي الخليفة سليمان ابن عبد الملك، وهو مروان. ولا بد من الإشارة إلى أن الدكتور نعمان جمع في نهاية ديوان جرير بعض الأبيات المنسوبة لجرير، أو تلك التي اختلطت نسبتها بين جرير وغيره من الشعراء، في بعض كتب الأدب واللغة والبلدان والتاريخ، في حين خلت نسخ ديوان جرير المحققة الأخرى من هذا العمل. وفيما يأتي ثبتٌ بالمستدرك على ديوان جرير.

المُستَدرَكات

مرض جرير، فقالت أم غيلان لأبلق[١]: قل لجرير إن أم حكيم أم ولدك سحرتك، فقال له ذلك، فغضبت أم حكيم، وقالت لجرير: والله لا أرضى أو تهجوه، فقال جرير يُعيِّر الأبلق بأنَّه أبلق وبغير ذلك[٢]: (من البسيط).

يا أبْلقَ الكشْحِ إنَّ النَّاسَ قَدْ علمُوا
أنَّ المُهاجِرَ يخْزي كُلَّ كذّابِ[٣]

لَوْ كُنْتَ شاوَرْتَ ذا عقْلٍ فأرْشدني
يوْمَ الفرِيقيْنِ ما دَنَّسْتَ أثْوابي

قدْ كُنْتُ عنْدَكَ قَبْلَ الفعْلِ ذا أربٍ
مُسْتحْكماً بعراقي الدلْوِ أكْرابي[٤]

لوْ كُنْتَ صَاهرْتَ إنَّ الصِّهْرَ ذُو نَسَبٍ
فِيْ مازِنٍ أوْ عَديٍّ رَهْطِ منْجابِ[٥]

ما كُنْتَ ذا الجلْدةِ البَلْقاءِ تُعْجِبُني
سوْف السَّوابِقِ ريْحَ الكوْدنِ الرَّابي[٦]

كان أخوال الفرزدق من بني شيبم، وأمه لينة بنت قرظة. فقال جرير[٧]:(من الوافر).

أمُخْلِيَةٌ عَلَيَّ بَنُو شُيَيْمٍ
بِأجْدَعَ لا يذُبُّ عَنِ الذِّمَارِ[٨]

تَرَى الضَّحَّاكَ يَمْشِي مُزْمهلاً
كَأنَّ أبَاهُ زَيْدُ بْنُ ضِرارِ[٩]

وقال جرير في حضرة الحجاج[١٠]: (من الوافر).

رَأوا فَرَساً مُقارِنَةً حِماراً
وَكَيْفَ يُقارِنُ الفَرَسُ الحِمارَا

فتبسم الحجاج من قوله .

وجاء - تحت باب المتبجح بأن كلابه تُسَرُّ بمجيء الضيف - الاستشهاد بقول جرير[١١]: (من الطويل)

ومستنبح تهوي مساقط رأسه

إلى كل شخص وهو للسمع أصور

يصفقه أنف من الريح بارد

ونكباء ليل من جمادى وصرصر

حبيب إلى كلب الكريم مناخه

بغيض إلى الكوماء والكلب أبصر

حضأت له ناري فأبصر ضوءها

وما كان لولا خطأة النار يبصر

دعته بغير اسم هلم إلى القرى

فأسرع يبوع الأرض والنار تزهر

فلما أضاءت شخصه قلت مرحباً

رشدت وللضالين بالنار أبشروا

فجا ومحمود القرى يستفزه

إليها وداعي الليل بالصبح يسفر

تأخرت حتى لم تكد تصطفي القرى

على أهله والحق لا يتأخر

وقمت بنصل السيف والبرك هاجد

لها زره والموت في السيف ينظر

فأغضضته الطولى سناماً وخيرها

ولاء وخير الخير ما يتخير

فأوفضن عنها وهي ترغو خشاشة

بذي نفسها والسيف عريان أحمر

فباتت رحاب جونة من لحامها

وفوها بما في جوفها يتغرغر

وفي تناول الرؤوس بالرماح يقول جرير[13]:

(من الطويل).

كأن رؤوس القوم فوق رماحنا

غداة الوغى تيجان كسرى وقيصرا

وقال جرير يهجو التيمي[14]: (من البسيط).

يغلي الجعالة منظور وثعلبة

والغائب القهوس المنظور أوبته

في كل حي أباها منهم نفر

وابنا شعاعة والسفار تنتظر[15]

شهد عتبة بن أبي سفيان موقعة الجمل مع عائشة رضي الله عنها. وهرب فحمله عصمة بن أبير. من تميم الرباب حتى أتى المدينة. فقال جرير[16]: (من الطويل).

وفى ابن أبير والرماح شوارع

لآل أبي العاص وفاء مشهرا[16]

ولابن أبي سفيان عتبة بعدما

رأى الموت قد أنحى عليه فعسكرا

ولي الخوارج بعد شبيب البطين[17]. فغلب على سوق الأهواز. فسار سفيان إلى البطين فقاتله أياماً. فطلب أصحابه الأمان فأمنهم وتفرقوا. وهرب البطين فظفر به الحجاج بعد ذلك فقتله في دار قومه. فقال جرير[18]: (من الرجز).

قد نصر الحجاج والله نصر

أخزى شبيباً والبطين إذ كفر[19]

حدث الأصمعي أن هارون الرشيد كان له فرس أدهم يقال له (الربذ) فابتهج به يوماً. فقال: يا أصمعي! خذ بناصية (الربذ) ثم صفه من (قونسه) إلى (سنبكه)[20]. فإنه يقال: إن فيه عشرين اسماً من أسماء الطير: قال: فقلت نعم يا

أمير المؤمنين! وَأُنْشِدُكَ شعراً جامعاً لها من قول جرير[21]: (من الكامل)

وأقبُّ كالسِّرحان تمَّ له
ما بين هامته إلى النَّسْرِ[22]

رحبت نعامته ووُفِّر فرخه
وتمكَّنَ الصُّردان في النَّحْرِ[23]

وأناف بالعصفور في سعف
هام أشمّ مُوثَّقِ الجذْرِ[24]

وأزدان بالديكين صَلْصَلَهُ
ونبت دجاجته عن الصَّدْرِ[25]

والناهضان أُمِرّ جلزهما
فكأنما عُثِما على كسرِ[26]

مُسْحَنْفِر الجنبين مُلْتَئِم
ما بين شِيمَتِهِ إلى الغرِّ[27]

وَصَفَتْ سُمَاناه وحافره
وأديمه ومنابتُ الشَّعْرِ[28]

وسما الغراب لموقعيه معاً
فأبين بينهما على قَدْرِ[29]

واكتنَّ دون قبيحه خُطَّافه
ونأت سَمامته على الصَّقْرِ[30]

وتَقَدَّمَتْ عنه القَطاة له
فنأت بموقعها عن الحُرِّ[31]

وَسَمَا على نقويه دُونَ حِداته
خَرَبان بينهما مَدى الشِّبْرِ[32]

يَدَعُ الرضيم إذا جرى فِلَقاً
بتوائم كمواسم سُمرِ[33]

رُكْبن في مَحْضِ الشَّوَى سَبِطٍ
كَفْتِ الوثوب مُشَدَّدِ الأسرِ[34]

قافية السين

قال جرير يهجو قوماً[35]: (من المتقارب).

ألا قَبَّحَ المَلأُ النابذو
ن نبذَ الدماميل في المجلسِ

كأنَّ مقالغ أضراسهمْ
إذا كشروا جيفُ الخنفسِ

قافية العين

وقال جرير في مروان بن عبد الملك، وكان قد مات بعدما وقع بينه وبين أخيه سليمان خلاف[36]: (من الطويل).

لقدْ غادرَ القومُ اليمانونَ إذْ غدوا
بوادي القرى جُلْدَ الجنانِ مُشيَّعا[37]

ومن بني عبيد بن خزيمة: حنظلة بن أصيلة. وأمه بنت البياع، وله يقول جرير[38]: (من الكامل).

قَيْسُ تعدُ لكَ السليلَ ومعبداً
وفخرتَ يابن أصيل بالبياع

قافية اللام

وقال جرير في يوم ذي نجب[39]، وقد قُتل حُشيش[40]:(من الوافر).

لَقدْ صَدعَ ابْنُ كَبْشَةَ إذْ أتانا
حُشَيْشٌ حيْن ناشتْهُ العوالي[41]

عقر ذكوان بعيراً لغالب، عليه أم الفرزدق، فقال جرير[42]: (الطويل).

لعمْري لقدْ أخْزى أبـاك بسعْيه

وأمّـك ذكْـوان الـذي لا يُصاوله

وقال جرير يفتخر[٤٣]: (من الطويل).

ومنـا رئيْس القوْم يـوْم حماهُم

وغـادر قيْساً فـي سنان وعامـل

يـثوْب اليْـه ثابت الطيْر بعْدما

كبا في نجيْع من دم الجوْف سائل[٤٤]

على بيْضة الهرماس حتّى تطايرتْ

خذاريْف عنْ قحْف من الرّأس مائل[٤٥]

قافية الميم

وفي مقتل قتيبة بن مسلم الباهلي. يقول جرير مخاطباً قاتليه[٤٦]: (من الطويل).

ندمْتم على قتْل الأغرّ ابْن مُسْلم

وأنْـتم إذا لا قيْـتُمْ الله أنْـدمُ

لقدْ كنْتم مـنْ غـزوه في غنيْمة

وأنْتم لـمنْ لا قيْتمْ اليْوم مغْنمُ

على أنّـهُ أفْضى إلـى حُـوْر جنّة

وتُطْبقُ بالبلْوى عليْكم جهنّمُ

قافية النون

أسَرَ أسيد بن جَنَاءة السَليطي. الحكم بن مروان بن زنباع يوم الصرائم[٤٧]. حين أغارت عبس على قوم من بني حنظلة. فقال جرير[٤٨]: (من الوافر).

ومـا ابْـنُ جنـاء بـالوغْد الـوَانْ

يـوْمَ شـدّ الحكمَ ابْـنَ مـرْوانْ

ما ينسب إلى جرير وإلى غيره

قِيلَ لرجل: كيف أكل فلان؟ فقال: كما لا يُحبه البخيل. ويتمثّل في هذا الباب بقول جرير[٤٩]: (من الرجز).

كـالحُوْت لا يـلْهيْه شيءٌ يلْهمُهْ

يُصْبحُ ظمْآن وفـي البحْر فمُهْ

وجاء تحت حمد الحلم وذم السَفه قول جرير[٥٠]: (البسيط).

بني غـديْ ألا يا انْـهوْا سفيهكمْ

إن السَفيه إذا لم يُنْه مأمورْ

وقال جرير[٥١]: (من الطويل).

مـرمـون مـن لـيث عـليه مـهابة

تـفادى الأسـود الغلب منه تفاديا

وقال (من الوافر)[٥٢]:

أروني من يقوم لكم مقامي

أروني من يقول لكم مقالي

الخاتمة

بعد هذه الرحلة الممتعة في كتب التراث. تبين أنها تحتوي على كنوز أدبية تحتاج إلى من يُميط اللثام عنها. لتأخذ طريقها إلى أيدي الباحثين والمهتمين بتراثنا العربي.

إن مسألة الاستدراك على دواوين شعراء قدامى. تبيَّن أنَّ ما وصلنا من أشعارهم لا يمثل جل إنتاجهم الشعري. وأن كثيراً منه قد فقد. أو لم تصل إليه أيدي المحققين والباحثين بعد. ولا أدلَّ على ذلك من قول أبي عمرو بن العلاء: ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله. ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير.

إنَّ ما تحويه المصادر المطبوعة أو تلك التي لم تحقق بعد، من الأشعار تحتاج إلى جهودٍ كبيرةٍ لإخراجها إلى النور. لذا فإن الباحث يوصي بالآتي:

١ - الوقوف على هذا التراث والاهتمام به. لأن من شأن ذلك أن يشكل رافداً لغوياً مضافاً أفادت منه كتب اللغة والمعجمات، وامتد الاستشهاد به إلى كتب التاريخ والبلدان ... وغيرها.

٢ - الإفادة من هذه المُستدركات في فهم وتصور جوانب الحياة المختلفة في تلك العصور. وربما لتصحيح بعض المفاهيم الخاطئة عنها.

٣ - التنسيق بين الباحثين في مجال الاستدراك. وذلك لجمع جهودهم في كتاب يكون مصدراً يرجع إليه الباحثون.

* * *

الحواشي

١) وهو الأبرص الأسيدي الكاهن. وأم غيلان بنت جرير. وكان زوجها له. والأبلق لقبه. ينظر البرصان والعرجان والعميان. الجاحظ. تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون. دار الرشيد. ١٩٨٢م: ٤٢.

(٢) البرصان والعرجان والعميان والحولان:٤٢. وينظر أنساب الأشراف. أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري. (ت ٢٧٩هـ) حققه وقدم له: الأستاذ سهيل زكار. والدكتور رياض زركلي. ط١. ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م. دار الفكر - بيروت:١٢/ ٩٢. الأبيات: ١، ٢، ٤ مع اختلاف. والبيت الرابع في كتاب نسب قريش. لأبي عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري (١٥٦هـ - ٢٣٦م). عُني بنشره: إ. ليفي بروفنسال - دار المعارف: ٤٤٠.

(٣) الكشح: ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف. وهو من لدن السرة إلى المتن. لسان العرب. ابن منظور. (ت٧١١هـ) ط١. ١٤٠٥هـ. دار إحياء التراث العربي. مادة (كَشَحَ): ٢/ ٥٧١.

(٤) الكرب: الحبل الذي يُشد على الدلو. لسان العرب مادة: (كَرَبَ): ١/ ٧١٤.

(٥) رهط منجاب هم لؤي بن الحارث بن سامة وأولاده: عباد. ومالك. وزائدة. وعبد الله. وهم رهط منصور بن منجاب. ينظر كتاب نسب قريش: ٤٤٠.

(٦) الكودن: البرذون يُشبَّه به البليد. لسان العرب مادة (كَدَنَ): ١٣/ ٣٥٦.

(٧) أنساب الأشراف:١١/ ٢٨٢-٢٨٣. وجاء في الأصل: لا بذب عن الدمار.

(٨) شبيم: وهو بطن من بني ضبة. قال ابن دريد في بني ضبة: شتيم بن ثعلبة بن ذؤيب بن السيد. ذكره بالتاء والياء. وشتيم من شتامة الوجه وهو قبحه. ينظر الأنساب. عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني. (ت٥٦٢هـ). تقديم وتعليق عبد الله عمر البارودي. ط١/ ١٤٠٨هـ. دار الجنان - بيروت: ٢/ ٤٠٢.

(٩) المزنهل: هو المنتصب. ينظر تاج العروس: ٧/ ٢٦١.

(١٠) أنساب الأشراف:١٢/ ٢١٧.

(١١) محاضرات الأدباء: ٢/ ٥٩٣. كتاب الحيوان. الجاحظ.(ت٢٥٥هـ) . تحقيق وشرح: عبد السلام هارون. دار إحياء التراث العربي: ٣٨٥. البيت الثالث فقط. ديوان الحماسة. لأبي تمام. محمد عبد المنعم خفاجي. ١٢٧٤هـ - ١٩٥٥م. مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده - مصر: ٢/ ٢٩٦. وقال آخر. وأمالي المرتضى. الشريف المرتضى. (ت٤٣٦هـ). تحقيق: الشيخ أحمد ابن الأمين الشنقيطي. ط١/ ١٣٢٥هـ - ١٩٠٧م. مكتبة المرعشي النجفي - قم: ٤/ ٣٠. الأبيات كاملة. الفايق في غريب الحديث. أحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي. (ت٣٨٨هـ). تحقيق: عبد الكريم إبراهيم العزباوي. جامعة أم القرى: ١/ ٥٩٨.

(١٢) محاضرات الأدباء: ٢/ ٣٠٧. ديوان المعاني. لأبي هلال العسكري. دار الجيل - بيروت.: ٢/ ٧١.

(١٣) أنساب الأشراف:١١/٢٨٢. والقهوس المذكور هو: رجلٌ من التيم. وكان ابنه حضر يوم شعب جبلة فنـر إلى غطفان. والتيمي هو علقة التيمي الشاعر من بني تيم بن عبد مناة. ينظر إكمال الكمال: ٦/٢٥٨.

(١٤) القهوس: الرجل الطويل. لأنه ينحني ويحدودب. وقيل لأنه يتقهوس إذا جاء منحنياً يضطرب. ينظر تاج العروس: ٤/٢٢٧. ولسان العرب مادة: (قَهَسَ): ٦/١٨٤.

(١٥) أنساب الأشراف:١١/٥. ويُنظر البيت الأول في: الفتنة ووقعة الجمل. سيف بن عمر الضبي الأسدي. (ت٢٠٠هـ). تحقيق: أحمد راتب عرموش. ط١/١٣٩١هـ. دار النفائس بيروت: ١/١٧٥. تاريخ مدينة دمشق. ابن عساكر. (ت٥٧١هـ) تحقيق: علي شيري. ١٤١٥هـ. دار الفكر: ٣٨/٢٦٤. الإصابة في تمييز الصحابة. ابن حجر العسقلاني. (ت ٨٥٢هـ). تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود. ط١/ ١٤١٥هـ. دار الكتب العلمية - بيروت. ٤/٤١٤. تاريخ الأمم والملوك. ابن جرير الطبري. (ت ٣١٠هـ). تحقيق: نخبة من العلماء. مؤسسة الأعلمي - بيروت: ٣/٥٤٠.

(١٦) يشير جرير إلى قصةٌ عتبة بن أبي سفيان، وعبد الرحمن ويحيى ابني الحكم يوم الهزيمة. وقد في البلاد. فلقوا عصمة بن أبير التيمي. فقال هل لكم في الجوار؟ قالوا: مَنْ أنت؟ قال: عصمة بن أبير. قالوا: نعم. قال: فأنتم في جواري إلى الحول. فمضى بهم ثم حماهم وأقام عليهم حتّى برئوا. ثم قال: اختاروا أحب بلد إليكم أبلغكموه. قالوا: الشام. فخرج بهم في أربعمائة راكب من تيم الرباب. حتى وغلوا في بلاد كلب. فقالوا وفَّيت ذمتك وذممهم وقضيت الذي عليك فارجع. وفي ذلك قال جرير هذا الشعر. ينظر تاريخ دمشق: ٣٨/٢٦٤. الإصابة: ٤/٤١٤. تاريخ الطبري: ٣/٥٤٠.

(١٧) وهو مسلم بن عمران الكوفي. ينظر تهذيب الكمال. أبو الحجاج يوسف المزي. تحقيق الدكتور: بشار عواد معروف. ط٤. ١٤١٣هـ. مؤسسة الرسالة: ٣٥/٣٨.

(١٨) أنساب الأشراف: ٨/٣٦.

(١٩) شبيب بن يزيد بن أبي نعيم الشيباني. رأس الخوارج بالجزيرة. وفارس زمانه. والبطين: هو مسلم بن عمران الكوفي. ينظر تهذيب الكمال: ٣٥/٣٨. وسير أعلام النبلاء. الذهبي. (ت٧٤٨هـ) تحقيق: شعيب الأرنؤوط. وحسين الأسد. ط٩. ١٤١٣هـ. مؤسسة الرسالة - بيروت: ٤/١٤٦.

(٢٠) القونس: عظم ناتئ بين أذني الفرس. والسنبك طرف الحافر وجانباه من قدم. ينظر لسان العرب مادة: (قَنَسَ): ٦/١٨٠.

(٢١) العقد الفريد. شهاب الدين أحمد المعروف بابن عبد ربه الأندلسي. تقديم الأستاذ: خليل شرف الدين. ط٢/ ١٩٩٠م. دار ومكتبة الهلال - بيروت: ١/٩٦. المزهر في علوم اللغة وأنواعها. للسيوطي. (٩١١هـ). ط١/١٩٩٨م. تحقيق. فؤاد علي منصور. دار الكتب العلمية - بيروت: ١/٢٩٩. نهاية الأرب في فنون الأدب. شهاب الدين أحمد ابن عبد الوهاب النويري. (ت ٧٣٣هـ). وزارة الثقافة والإرشاد القومي. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر: ١٠/٢٣-٢٧. الروض الأنف في شرح السيرة النبوية. أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي. (ت ٥٨١هـ) تحقيق: عبد الرحمن الوكيل. دار النصر للطباعة: ٤/٩.

(٢٢) الأقب: اللاحق المخطف البطن. السرحان: الذئب. الهامة: أعلى الرأس. وهي من أسماء الطير. النسر: ما ارتفع من بطن الحافر.

(٢٣) رحبت: اتسعت. نعامته: جلدة رأسه. الصردان: عرقان في أصل اللسان. النحر: موضع القلادة من الصدر.

(٢٤) أناف: أشرف. العصفور: منبت الناصية. وهو عظم ناتئ في كل جبين. موثق: أي شديد قوي. الجذر. الأصل من كل شيء.

(٢٥) الديكان: واحدهما ديك. وهو العظم الناتئ خلف الأذن. الصلصل: بياض الناصية. الدجاجة: اللحم الذي على زوره بين يديه.

(٢٦) الناهضان: واحدهما ناهض. وهو لحم المنكبين. والناهض: فرخ القطا. وأمر جلزهما: فتل وأحكم. والجلز: الشد. وعثما على كسر: أي كأنهما كسرا ثم جبرا. والعثم. الجبر على عقدة وعوج.

(٢٧) مستنفر الجبين: منتفخهما. وشيمته: منخره.

(٢٨) السماني: طائر وهو موضع من الفرس.

المستدرك على ديوان جرير

(٢٩) الغراب: رأس الورك. ويقال للصلوين: الغرابان.

(٣٠) اكتن: أي استتر والقبيح الساقين. والخطاف من أسماء الطير. والسمامة: دائرة تكون في عنق الفرس.

(٣١) القطاة: مقعد الردف. وهي من أسماء الطير. والحر من الطير يقال أنه ذكر الحمام. وهو من الفرس سواد يكون في ظاهر أذنيه.

(٣٢) النقوان: واحدهما نقو. وهو عظم ذو مخ.

(٣٣) الرضيم: الحجارة المكسورة فلقاً. والمواسم: جمع ميسم الحديد أي في صلابتها.

(٣٤) الشوى: هنا القوائم والواحدة شواة. ويقال فرس محض الشوى إذا كانت قوائمه معصوبة. وكفت الشيء إذا جمعته وتممته.

(٣٥) محاضرات الأدباء: ٣/٥٦٢.

(٣٦) كتاب نسب قريش: ١٦٣.

(٣٧) وادي القرى. وادٍ بين الشام والمدينة. وهو بين تيماء وخيبر. فيه قرىً كثيرة. وبها سُمي وادي القرى. معجم البلدان. ياقوت الحموي. (ت ٦٢٦هـ) دار إحياء التراث العربي - بيروت: ٤/٣٣٨.

(٣٨) أنساب الأشراف: ١٢/٣٩.

(٣٩) وهو موضع كانت فيه وقعة لبني تميم على بني عامر بن صعصعة. دعت بنو عامر حسان بن معاوية ابن آكل المرار الكندي وهو ابن كبشة. امرأة من بني عامر بن صعصعة بعد وقعة جبلة بحول. إلى غزو بني حنظلة وهونوا أمرهم عليه. فساروا إليهم في جمع وثروة. وقد استعد بنو يربوع لهم ووقعت الحرب فقتل ابن كبشة الملك وأسر يزيد بن الصعق وغيره من وجوه بني عامر ومن تبعهم. ينظر معجم البلدان: ٥/٢٦١.

(٤٠) أنساب الأشراف: ١٢/١٦٩. وحشيش: هو حشيش بن نمران من بني رباح بن يربوع. ينظر إكمال الكمال: ٣/١٥٣.

(٤١) ابن كبشة: وهو آكل المرار الكندي. وكبشة امرأة من بني عامر بن صعصعة. ينظر معجم البلدان: ٥/٢٦١.

(٤٢) أنساب الأشراف: ١٢/٩٨.

(٤٣) أنساب الأشراف: ١٢/١٧٥.

(٤٤) النجيع من الدم ما كان إلى السواد. ويقال: طعنة تمج النجيع أي دم الجوف. تاج العروس: ٥/٥١٩.

(٤٥) الهرماس: من أسماء الأسد. ويقال: تركت السيوف رأسه حذاريف أي قطعاً كل قطعة كالخذروف. ينظر تاج العروس: ٦/٨٠. ولسان العرب مادة (هَرْمَس): ٦/٢٤٨.

(٤٦) البداية والنهاية. الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي. (ت٧٤٧هـ) تحقيق: علي شيري. ط١/ ١٤٠٨هـ. دار إحياء التراث العربي - بيروت: ٩/١٩١. حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقدماء. لأبي محمد عبد الله بن محمد العبد لكاني (ت٤٣١هـ) تحقيق: محمد جبار المعيبد. منشورات وزارة الإعلام - بغداد. ١٩٧٣م: ١/١١٩. الوافي بالوفيات. صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي. تحقيق: أحمد الأرنؤوط. وتركي مصطفى. دار إحياء التراث العربي. بيروت - لبنان: ٢٤/١٤٦. مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة أحوال الزمان. عفيف الدين. عبد الله بن أسعد اليافعي اليمني. (ت٧٦٨هـ). تحقيق: عبد الله الجبوري. ط١/ ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م. مؤسسة الرسالة - بيروت: ١/٢٢٨. وفيات الأعيان وأنباء أهل الزمان. أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان. (ت ٦٨١هـ). تحقيق: الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة- بيروت. ١٩٦٨م: ٤/٨٨. وفيه: على أنه أفضى إلى حوز ربه. الشعور بالعور. صلاح الدين الصفدي. (ت٧٦٤هـ). تحقيق: الدكتور عبد الرزاق حسين. ط١/١٤٠٩هـ. دار عمار - عمان: ١/١٩٤.

(٤٧) الصرائم: موضع كانت فيه وقعة بين تميم وعبس. معجم البلدان: ٣/٤٠٠.

(٤٨) أنساب الأشراف: ١٣/١٩٧. وقد جاء في الأصل: جناة. وبه لا يستقيم الوزن. وعجز البيت فيه اضطراب.

(٤٩) محاضرات الأدباء: ٢/٥٥٣. وفيها يقول جرير. وقد وردت نسبة البيت إلى رؤبة في المصادر الآتية: كتاب الصناعتين: ٧٦. جمهرة الأمثال. لأبي هلال العسكري. دار الفكر - بيروت. ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م: ١/٢٠١. البصائر والذخائر. لأبي حيان التوحيدي. (ت٤١٤هـ). تحقيق: الدكتورة وداد القاضي. ط٤/١٤١٩هـ-١٩٩٩م. دار صادر - بيروت: ٩/١٥٠. درر السمط في خبر السبط. ابن الأبار: ١١٩. وعجز البيت في: الفايق في غريب الحديث: ٢/١١٩. بدون نسبة. التمثيل والمحاضرة. لأبي منصور

الثعالبي.(ت ٤٢٩هـ). تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو. ١٣٨١هـ- ١٩٦١م. دار إحياء الكتب العربية - القاهرة: ٢٦١. بدون نسبة. مجمع الأمثال. الميداني: ١/٤٤٧. شاعر. المستقصى في أمثال العرب. الزمخشري: ١/٢٣٤. الراجز. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب: ٤/٥١. الراجز. شرح الرضي على الكافية. الاستراباذي. (ت٦٨٨هـ). تصحيح وتعليق: يوسف حسن عمر. مؤسسة الصادق - طهران: ٢/٢٦٩. بدون نسبة. وفتح الباري شرح صحيح البخاري. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. تحقيق: محب الدين الخطيب. دار المعرفة - بيروت: ١٠/٧٨. شاعر. وقد ورد عجز البيت في همع الهوامع. جلال الدين السيوطي. (ت٩١١هـ). تحقيق: عبد الحميد هنداوي. المكتبة التوفيقية - مصر: ١/١٤٤. وفيه: عجز البيت.

(٥٠) التذكرة الحمدونية تصنيف ابن حمدون. محمد بن الحسن بن محمد بن علي. تحقيق: إحسان عباس وبكر عباس. ط١/ ١٩٩٦م. دار صادر - بيروت: ٥/١٩٢. لجرير. البيان والتبيين: ١/١٤٧. قال الشاعر. (بني عدي ألا ينهو...). جمهرة الأمثال: ١/٥٢١. قول الشاعر. (بني تميم...). بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس. ابن عبد البر القرطبي. (ت٤٦٣هـ). تحقيق: محمد مرسي الخولي. ط٢/ ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م. دار الكتب العلمية - بيروت: ٢/٦١٩. وقال آخر. (بني هلال...). قال الأحوص: (بني هلال...). شعر الأحوص الأنصاري. جمعه وحققه: عادل سليمان. وقدم له د. شوقي ضيف. الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر. ١٣٩٠هـ- ١٩٧٠م: ١٢٧.

(٥١) التذكرة الحمدونية: ٧/٣٠٦. لجرير. وورد اسم الشاعر ذو الرمة في المصادر الآتية: الكامل في اللغة والأدب. المبرد. (ت٢٨٥هـ). طبعة جديدة عني بها الشيخ أحمد كنمان. ط١/١٩٩٥م. دار الفكر العربي - بيروت: ١/٣٠٩. (مرمين من ليث...اسود الغاب). الحماسة المغربية. لأبي العباس أحمد ابن عبد السلام الجراوي التادلي. تحقيق. محمد رضوان الداية. ط١/١٩٩١م. دار الفكر المعاصر - بيروت: ١/١٩٣. لسان العرب: ١٥/١٥٠. ديوان شعر ذي الرمة. راجعه وقدم له: زهير فتح الله. ط١/١٩٩٥م. دار صادر - بيروت: ٤٥٠. والبيت ضمن قصيدة طويلة.

(٥٢) التذكرة الحمدونية: ٧/٣٠٦. لجرير. وتنسب للشريف الرضي. ديوانه: ٣/١٧٦. وتنسب أيضاً للفرزدق برواية أخرى: (إذا ما الأمر جلَّ عن العتاب). ديوان الفرزدق. شرحه الأستاذ علي خريس. ط١/ ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م. منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت: ٧٤.



كتاب «المنتخل» هو «للثعالبي» وليس «للميكالي»

أ.د.عبد الرازق حويزي

كفر الزيات - مصر

لا يزال تراثنا العربي يغط في كثير من حالات الإشكال والاضطراب بما طرأ عليه من أوهام الرواة، وعبث النساخ، وأهواء المغرضين وتداخل الآراء، وغير ذلك مما طمس كثيراً من أوجه الحقائق، وغير معالم الصواب في غير قليل من جوانب هذا التراث، واتجاهاته على مختلف منازعه ومشاربه.

ففي مواضع غير قليلة نقف على رأي ما لعالم ما في مصدر ما. ثم ما نلبث أن نجد هذا الرأي منسوباً لغيره في بعض المصادر الأخرى، وما أكثر هذا النوع! بل نجد قصائد برمتها منسوبة لأكثر من شاعر!. وهذا الأمر نجده بعينه في شتى صنوف العلم كالحكم والأمثال والقصص والأخبار. وكل هذا التداخل يؤدي بلا شك إلى صعوبة دراسة هذا التراث، ويقف حائلاً منيعاً أمام كل من أراد الوصول إلى الحقيقة العلمية المطلقة في مختلف قضاياه.

وليت هذا الإشكال وقف عند هذا الحد، إذن لسهل الأمر، وهان الخطب. لقد امتد التداخل إلى نسبة مؤلفات بأكملها إلى غير مؤلفيها، حيث نجد في بعض الأحيان كتاب ما منسوباً من قبل بعض العلماء أو المحققين وهماً إلى غير صاحبه.

وخذ على ذلك مثالاً بكتاب "نقد النثر" الذي نشره "د.طه حسين" وآخرون منسوباً إلى "قدامة بن جعفر ت ٣٢٧هـ"، والصواب أنه "لإسحاق بن إبراهيم بن وهب الكاتب" وأن عنوانه الصحيح هو "البرهان في وجوه البيان". على ما ذهب بعض العلماء الأثبات. وخذ على ذلك أيضاً مخطوط "رياض الألباب ومحاسن الآداب". الذي نسبه أحد النساخ لحاجة في نفسه إلى "النواجي ٨٥٩هـ"!، وقد أثبتنا بما لا يدع مجالاً للشك من خلال الأدلة المادية المحسوسة أن مؤلفه هو "الشريف الأسيوطي ت ٨٥٩" والأمثلة على ذلك كثيرة جداً. وقد يطول بنا الأمر لو رحنا نعدد نماذج منها، وقد يخرجنا هذا التعداد عن موضوعنا الرئيس.

ففي هذا النوع من الوهم يتم التعرف على المؤلف الحقيقي للكتاب، ومن ثم رد الأمر إلى

نصابه وهناك نوع آخر من الأوهام يصعب معها التعرف على المؤلف الحقيقي، ومن هذا النوع من الكتب كتاب تحفة الوزراء المنشور أكثر من مرة على أنه للثعالبي ت ٤٢٩هـ، وقد نبه غير واحد من الدارسين إلى أنه نشر ملفقاً، منهم د. جليل العطية في تحقيقه لكتاب "آداب الملوك" ص ١٦. ومنها كتاب "المحاسن والأضداد" المنشور للجاحظ. وقد شكك في نسبته إليه غير واحد من الباحثين. وانظر في ذلك مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين ص ٧٥. وعلم الاكتناه العربي الإسلامي ص ٣٥١.

إذن هناك بعض المصنفات التراثية حدث وهم في نسبتها إلى غير أصحابها، وفات هذا الوهم على بعض المحققين. فتركوا هذه المؤلفات منسوبة إلى غير أصحابها!. وتم معرفة المؤلفين الحقيقيين على يد بعض الباحثين. فبادروا إلى رد الأمر إلى صوابه، وهناك بعض المصنفات التراثية تم نشرها منسوبة إلى غير مؤلفيها، ونبه على ذلك بعض الباحثين. إلا أنهم لم يتمكنوا من نسبة هذه المؤلفات إلى أصحابها لغموض الأمر. وقد أدليت بدلوي في هذا النوع أيضاً. فتناولت بالنقد المطول كتاب "الحكم والأمثال" الذي وقف على نشره منسوباً "لأبي أحمد العسكري" أربعة أشخاص. وصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٦م. وأوضحت في نقدي أن هذا الكتاب ليس "لأبي أحمد العسكري ت ٣٨٢هـ" وأنه مختصر من كتاب" ربيع الأبرار للزمخشري ت ٥٣٨هـ" وأضاف إليه الناسخ بعض الإضافات العلمية التي ترجع إلى ما بين القرن الخامس والثامن الهجريين. أي بعد وفاة أبي أحمد العسكري بما يقرب من أربعة قرون!

ولا شك أن تدارك كل هذه الأوهام، ومحاولة تصحيحها لرد الأمور إلى نصابها، ووضع النقاط على الحروف، ومن ثم إظهار الوجه المشرق الوضاء لهذا التراث العريق يتطلب من الباحثين والمحققين العرب كثيراً من الجهود المكثفة المتواصلة. والسطور التالية تتصل بهذا الأمر اتصالاً وثيقاً، فهي تحاول طرح قضية خطيرة، وشائكة في الوقت نفسه. تنصب هذه القضية على تصحيح نسبة أحد المؤلفات التراثية النفيسة إلى مؤلفها الحقيقي. وتستمد هذه القضية أهميتها من أهمية الكتاب موضوع الدراسة، ومؤلفه، وعصره.

هذا الكتاب هو كتاب "المنتخل" الذي يعد في طليعة المختارات الشعرية بما يضم بين دفتيه ثروة شعرية هائلة. تأنق مؤلفه في اختيارها، وأعمل ذوقه في اصطفائها، فجاءت كالرياض الناضرة، والبساتين الزاهرة، والثمار الناضجة، وجعلت من هذا الكتاب أثراً نفيساً، ومؤلفاً خالداً تبوأ مكانة سامية بين المختارات الشعرية كالمعلقات، والمفضليات، وحماسة أبي تمام، وحماسة البحتري، وجمهرة أشعار العرب، وحماسة الظرفاء، ومنتهى الطلب، والتذكرة السعدية، وغيرها.

فقد ضم هذا الكتاب (٣٠٧٤) ما بين نتفة، ومقطعة، وقصيدة، احتوت - حسب إحصاء المحقق - على حوالي (٦٠٠٠) بيت. ولا شك أن هذه ثروة شعرية قل أن نجدها في كثير من المصادر التراثية. وقد تصدى لتحقيق هذا الأثر العريق محقق جليل. يشهد له نتاجه العلمي بحسن النية وسلامة الطوية، وهو د. "يحيى الجبوري".

والدكتور "يحيى الجبوري" محقق ثبت. طارت شهرته في عالم التحقيق العلمي بما خدم التراث العربي بآثار تشهد له بالإخلاص في القول والعمل. وخير دليل على ذلك الدواوين الشعرية التي تولى جمعها وتحقيقها وإخراجها. ولعل مما يدل على تفانيه في إنجاز مشاريعه العلمية أن ظل كتاب

كتاب «المنتخل» هو للثعالبي، وليس للميكالي

"المنتخل" أكثر من ربع قرن من الزمان في دائرة اهتمامه - على حد قوله ص ٦-٩: "فيرجع عهدي بهذا الكتاب إلى ما قبل ربع قرن أو ينوف... فقد صحبت هذا الكتاب وصحبني شاباً وكهلاً وشيخاً. فهو يمثل قطعة عزيزة من نفسي. وردحاً طويلاً من عمري. فقد استنفذ سنوات طويلة من خيرة سنوات العمر. كان فيها الخير والخصب والعطاء. فقد كنت حين أركن الكتاب متحسراً عليه. وأدعه فترة من الزمن... وقد أنجزت في فترات تأجيله عشرة كتب. ولكن بقيت عيني عليه. ونفسي فيه. وأملي في إنجازه. فكنت أخشى أن يطويني الموت قبل أن أتمه".

وبعد. فإني أكرر ما قلته سلفاً أن ما نهض به أستاذنا الدكتور "يحيى الجبوري" من أعباء نشر هذا وبما يطلع علينا به بين الحين والآخر من ذخائر تراثنا العربي، وهو على ما قام به من جهد مذكور مشكور يضرب لنا المثل الأعلى. والأنموذج الأكمل للأستاذ الجامعي المعطاء. الذي لا يقتصر دوره على مجرد إلقاء الدروس على طلابه. أو الجذل بالحصول على كرسي زائل. أو منصب إداري زائف. إنه الرجل الذي خدم العلم بكل ما يملك. وأعطى في هذا المجال وما استبقى شيئاً تحت حافزه من ضميره النقي. وإخلاصه النادر. ورغبته الجامحة في العطاء. وما ملحوظتنا التالية إلا وجهة نظر. له أنه يأخذ بها. أو ألاَّ يأخذ. وللقارئ الكريم ذلك الحق أيضاً. وهي لا تغض بأية حال من الأحوال من الجهد المبارك المشكور. والعبء الضخم الذي ناء بحمله طيلة أكثر من ربع قرن من الزمان. لم يغب الكتاب فيها عن خاطره ودائرة اهتمامه. فهذه الملحوظات هي في حقيقة الأمر منه وإليه. ولولا جهده ما تم تسطيرها هنا. فله الشكر مرة ثانية.

وقد شغلت زمناً بكتاب "المنتخل" بحكم اهتمامي بالتراث العربي خاصة بالتراث الشعري في العصر العباسي. فكنت أرجع إليه في جمعي لبعض الدواوين الضائعة. فرجعت إليه في جمعي لديوان القاضي" علي بن عبد العزيز الجرجاني ت ٣٩٢هـ. وديوان "أبي الفرج ابن هندو ت٤٢٣هـ". ورجعت إليه كثيراً في الاستدراكات التي نشرتها على بعض الدواوين الشعرية. بل رجعت إلى مختصر منه لم يرجع إليه المحقق في تحقيقه. هذا المختصر لابن الظهير الإربلي ت ٧٧٧هـ". وهو بعنوان: "محقق الأمل في المنتخب من المنتخل" وهو في دار الكتب المصرية برقم ٣٠٧ أدب تيمور، وحدا بي رجوعي المتكرر إلى كتاب " المنتخل" وكذا اشتماله على أكثر شعر "القاضي الجرجاني مما لم أجده في مصدر آخر إلى إعطانه من الاهتمام مالم أعطه لأي مصدر تراثي آخر. وتمخض اهتمامي به إلى تحبير هذا البحث.

وما سأطرحه في السطور التالية هو مجرد رأي، أنا مقتنع به شخصياً كل الاقتناع، ولم يأت هذا الاقتناع إلا بعد الدراسة المتأنية. والنظر المتكرر في نصوص الكتاب. ومنهجه. واستنباط الأدلة المادية المحسوسة على سلامة الرأي الذي سأطرحه. والحقيقة أنني لا أفرض رأيي- وما ينبغي لي - على أحد . و أتعصب تعصباً مقيتاً لهذا الرأي، ولا أحب لنفسي ذلك بل دائماً أردد مقولة الإمام "الشافعي" - رحمه الله تعالى-: "إن رأيي صواب يحتمل الخطأ. ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب".

وتتلخص القضية في محاولة التوصل إلى المؤلف الحقيقي لكتاب "المنتخل" هل هو "أبو الفضل الميكالي" كما ذهب محققه، واعتمده في نشره. فصدر الكتاب منسوباً "للميكالي" عن دار

الغرب الإسلامي - بيروت ٢٠٠٠م. أو هل مؤلفه "أبو منصور الثعالبي" كما سأجليه في السطور المتواضعة التالية؟

هذا هو عمود قضيتنا. وهذا هو هدفنا من تدبيج هذه السطور. ولكي أوضح الأمر كان لزماً علينا التنقير في مصادر التراث العربي. ومحاولة استنطاق هذه المصادر. وسرد كل ما يتصل بالإشارة إلى هذا الكتاب لدى القدماء والمحدثين على حد سواء. ثم ندلي بدلونا. ونثبت رأينا الذي دعانا إلى طرق هذا الموضوع.

وأقول: إن ما سأورده - من المصادر التراثية لا يساعد على كشف الحقيقة، ويعين على الوقوف على وجه الصواب. بل يزيد الأمر غموضاً فوق غموض. ويضاعف من إرباك القلم فوق إرباكه. وقد وَسَّعَ دائرةَ الغموض عدم إفصاح المؤلف عن هويته بشكل مباشر في مقدمته المبتسرة للكتاب. أو في متنه. إذ الكتاب كلّه مختارات شعرية. لم تتخللها فصول نثرية. وهذا الأمر ذكرنا بكتاب "المنتخب في محاسن أشعار العرب" الذي نشره الدكتور "الفاضل" عادل سليمان" في مكتبة الخانجي منسوباً" للثعالبي" - كما ورد على غلاف مخطوطه - ونص على أنه ليس للثعالبي. وأنه لمؤلف مجهول قديم. إذ لم يجد في الكتاب الأدلة المفصحة عن مؤلفه. لأنّ الكتاب كلّه مختارات شعرية غير متضمنة من الأخبار ما يشير إلى هوية مؤلفه.

وقبل عرض آراء العلماء فيها أقول: إن لدينا كتابين. أحدهما موسوم بـ: المنتحل". نشره أحمد أبو علي" منسوباً "للثعالبي". والآخر موسوم بـ:"المنتخل". نشره د. "يحيى الجبوري". منسوباً "للميكالي" في دار الغرب الإسلامي - بيروت- ٢٠٠٠م". وقال: إن "الثعالبي" اختصر كتابه "المنتخل" من كتاب "الميكالي". وأما نسبة "المنتخل" المتداول في أيدي الناس الآن على أنه "للثعالبي" فهذا ما لم يقل به أحد حسب ما بحثت. وهذا ما سأثبته في هذه السطور. أما بالنسبة للقضية فأرى أن من الأنسب قبل الخوض في تناصيلها محاولة لإحقاق الحق إذ جاء ما صدر من العلماء إزاء هذا الأمر في جدول على هذا النسق:

المنتخل للثعالبي

المؤلف	المصدر	الصفحة
الصفدي	الوافي بالوفيات	٦٤١
أبو علي	مقدمة المنتحل	١٣١/١٩
بروكلمان	تاريخ الأدب	٣
سركيس	معجم المطبوعات	١٩٣/٥
د. العطية	ديوان الميكالي	٦٦٠/١
د. الجبوري	مقدمة تحقيقه	١٠-١١

المنتحل للثعالبي

المؤلف	المصدر	الصفحة
ابن خلكان	وفيات الأعيان	٣٦١/٢

المنتخل للميكالي

المؤلف	المصدر	الصفحة
ياقوت	معجم الأدباء	١٧٦٠
الكتبي	فوات الوفيات	٤٢٨/٣
الصفدي	الوافي بالوفيات	٢٣٢/١٩
البغدادي	هدية العارفين	٢٦٦/١
بروكلمان	تاريخ الأدب	١٩٩/٥

المنتخل للميكالي

المؤلف	المصدر	الصفحة
ابن خلكان	وفيات الأعيان	١٠٩/٥
د. العطية	ديوان الميكالي	١٠-١١
د.الجبوري	مقدمة تحقيقه	١٨

وأشير من واقع هذه الآراء وقبل تعقيبي عليها وعلى غيرها إلى أننا لا نحصل مما أوردناه من آراء في هذه الجداول بطائل. فقد ذهب بعض العلماء إلى نسبة الكتابين لكل من "الثعالبي" و"الميكالي"؟.

كتاب "المنتخل" هو "للثعالبي" وليس "للميكالي"

وأرى أن السبب في ذلك راجع إلى التصحيف الذي نال من عنوان الكتاب. ومن ثم نشأ الغموض. وضياع الحقيقة مما حدا بمؤلف شهير مثل "ابن خلكان ت ٦٨١هـ" إلى أن ينسب في كتابه "وفيات الأعيان" "المنتحل مرة "للثعالبي" في موضع. ومرة أخرى "للميكالي" في موضع آخر فتأمل!. وإمعاناً في البحث عن الحقيقة في هذا الأمر أثبت هنا بعض الآراء السابقة وغيرها مما يتصل بقضيتنا بشيء من التفصيل لنقف على أبعادها:

أ- ذكر الأستاذ "أحمد أبو علي" في صدد توثيق "المنتحل"- بالحاء المهملة- "للثعالبي" ما نصه ص٣: "ولا ندحة من تنبيه القارئ إلى ما جاء في وفيات الأعيان لابن خلكان من نسبة هذا الكتاب للأمير أبي الفضل الميكالي المتوفى سنة ٤٣٦هـ. حيث قال ما نصه في ج٢ ص ٧٧ عند ذكر ابن العميد الكاتب بعد ما ألمّ بشيء من شعره: "وذكر الأمير أبو الفضل الميكالي في كتاب المنتحل.... وجاء في فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج٢/٢٥ في ترجمة الأمير المذكور ما نصه: " وله من التصانيف كتاب المنتحل. كتاب مخزون البلاغة... بيد أن الأمر فيه نكتة لا بد من إظهارها: " وهو أن الأمير الميكالي كان ممدوح الثعالبي. وله قصائد سيارة فيه. نال عليها جوائزه السنية، فلا غرو إذا ألف كتاباً مثل هذا. نسبه إليه أو انتحله الأمير لنفسه، وسكت عنه الثعالبي، أو أن هذه التسمية مقصودة من الإمام الثعالبي. لم يلاحظها الأمير الميكالي. وعلى هذا فتسميته بالمنتحل لا غرابة فيها. خصوصاً إذا نظرنا إلى قول المؤلف في مقدمته: إنه أودعه" ما ينخرط في سلك الرسائل والمخاطبات. ويندرج في أثناء الإخوانيات، والسلطانيات".

وأعقب على هذا النص فأقول:

- يعالج الأستاذ "أحمد أبو علي" في السطور السابقة قضية توثيق" المنتحل". وليس المنتخل". وانتهى إلى أن الثعالبي ألف" المنتحل" وأهداه إلى الميكالي فادعاه لنفسه. وهذا رأي جيد - إلى حد ما - سيفيدنا فيما بعد بصدد الحديث عن المؤلف الحقيقي" للمنتخل" بالخاء المعجمة.

- صدر الأستاذ "أحمد أبو علي" في رأيه هذا دون أن يقف على كتاب " المنتخل" المنشور حالياً. وهو موضوع حديثنا.

ب- لم يذكر المستشرق الألماني "كارل بروكلمان" في كتابه تاريخ الأدب العربي ص ١٩٩/٥ اسم "المنتخل . فكل حديثه يدول حول "المنتحل". فعزاه "للميكالي" عندما ترجم له. وسماه مرة أخرى باسم "كنز الكتاب" وعزاه "للثعالبي" في ترجمته إياه. وبهذا يكون قد نسب "المنتحل" مرة لهذا. ومرة لذاك. قال في ص ١٩٣/٥: إن "كنز الكتاب "ينسب في كمبردج إلى "الميكالي". وإن "أحمد أبا علي "نشره في الإسكندرية بعنوان "المنتحل". وسرد "بروكلمان" الدراسات عنه في مجلة ZDMG وغيرها، وأفصح عن قيام الألمعي ت ٩٢٨هـ بشرحه.

وأعقب على هذا فأقول: لم يتطرق هذا المستشرق إلى كتاب "المنتخل" فكل حديثه يدور حول "المنتحل". وأنه للميكالي". وينسب "للثعالبي أيضاً. وقد نشره "أحمد أبو علي". وهذا كلام من لم يقف على "المنتخل الذي ظهر حديثاً.

ج- وذهب د. "فؤاد سزكين" في كتابه تاريخ التراث العربي مج٢ (الشعر) - ج١- ص١٢٤ إلى أن اسم الكتاب هو "المنتخب الميكالي". وقال: يبدو أن مؤلفه هو أبو الفضل عبيد الله بن أحمد بن علي الميكالي". ثم قال: في مج٢ج٤- ص٢٥٨: "يمكن أن

تكون المختارات الشعرية التي وصلت إلينا بعنوان: "المنتخب للميكالي ...من صنعه".

وعقب د. "يحيى الجبوري" محقق الكتاب موضوع الدراسة بقوله: "والعبارة فيها تمريض وعدم الجزم بنسبة الكتاب إلى الميكالي"، وأضاف قائلاً: والكتاب للميكالي. وتعززه النسخة الثانية التي في مكتبة جامعة كمبردج... ولم يتطرق سزكين إلى هذه النسخة".

وأعقب على ما ذهب إليه العلامة "سزكين" فأقول: إن عدم قطعه بنسخة المنتخب (المنتخل)" "للميكالي" كان في محله. كما سيتضح لنا، بيد أنه لم يعز الكتاب إلى مؤلِّف بعينه. ولم يقل الكلمة الفصل في هذا الشأن. ويحسم قضية: المنتحل". والمنتخل.

د- وذهب د. جليل العطية: في مقدمته لديوان "الميكالي" ص ١٠-١١. وفي مقدمته لتحقيق كتاب درج الغرر ودرج الدرر ص ١٣-١٤ إلى أن كتاب المنتخل - بالخاء المعجمة - هو من تصنيف الميكالي. واعتمد في ذلك على ما ورد لدى ياقوت في معجم الأدباء (٥/٢٠٩-ط٢- القاهرة-١٩٢٢م). وابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات ٢٥/٢ (ط. إحسان عباس حسب ما ورد في فهرس المصادر). والصفدي في الوافي بالوفيات ١٩/٣٤٩ط (فيسبادن). وأضاف أن هذا الكتاب يضم "مختارات شعرية. انتحلها من عيون الشعر العربي، وأعجب الثعالبي بهذا الكتاب فانتخبه في جزء، وصل إلينا منتخب الثعالبي. ونشر في مصر - الإسكندرية ١٩٠١م باسم المنتخل". وأعقب على هذا النص فأقول: هذا الرأي منشور منذ أكثر من عشرين سنة. وقبل صدور "المنتحل" بثلاث عشرة سنة. والدكتور "العطية" معذور فيما ذهب إليه إذ لم يقف على المنتخل"، ولم يطلع على منهج مؤلفه، وطبيعة المادة العلمية التي احتواها. ومصادرها. فالملاحظ أنه حاول أن يوفق بين ما ورد في المصادر بشأن نسبة " المنتحل . و"المنتخل". فذهب إليأن المنتخل من تأليف "الميكالي" دون أن يقف عليه. وأن المنتحل" هو للثعالبي انتحله من كتاب منتخل الميكالي .

هذا هو رأي الدكتور الفاضل. وهذه وجهة نظره. وهو مشكور على اجتهاده. وإبداء رأيه مهما تكن طبيعة هذا الرأي. بيد أن الذي نود الإشارة إليه أن هذا الرأي كان له أثره فيمن أتى بعده. أذكر منهم على سبيل المثال والاستدلال لا على سبيل الحصر الدكتور"يحيى الجبوري" الذي تأثر بهذا الرأي تأثراً شديداً، وحدا به تأثره إلى أن ينشر كتاب" المنتخل" منسوباً إلى غير مؤلفه الحقيقي. حيث نسبه لأبي الفضل الميكالي". والحقيقة أنه ليس له. كما سيتضح لنا. وانظر فيمن شايع هذا الرأي مجلة العرب ص ٩٤-٩٦- السنة ٢٣-٢٠٠٠م. وموقع الجمعية الدولية للمترجمين العرب على شبكة الإنترنت بتاريخ ١٤/٢/٢٠٠٦م في التعريف بكتاب "المنتحل" للثعالبي.

هـ - وقال د. "يحيى الجبوري" في مقدمة تحقيقه لكتاب " المنتخل" ص ١٨-١٩ ما نصَّه: "المنتخل بالخاء المعجمة من فوق من مصنفات أبي الفضل الميكالي، جاء ذكره لدى ياقوت، وابن شاكر الكتبي، والصفدي. والكتاب مختارات شعرية. انتخلها من عيون الشعر العربي الجاهلي، والإسلامي، والأموي. والعباسي حتى زمنه. واتخذ اسمه (المنتخل) من طبيعة اختياره. فكأنه انتخل الشعر العربي. واختار منه هذه المجموعة الكبيرة التي بلغت حوالي ستة آلاف بيت. وإذا كان القدماء من الكتاب والمؤلفين قد ذكروا كتاب المنتخل فإن المتأخرين قد غفلوا عنه. فلم يذكره حاجي خليفة

كتاب «المنتخل» هو «للثعالبي» وليس «للميكالي»

في كشف الظنون. ولا إسماعيل باشا البغدادي في هدية العارفين. ولا إسماعيل باشا بن محمد أمين البابانى البغدادي في إيضاح المكنون. ولعلهم حين ذكروا كتاب الميكالي ذكروا بعضها. ثم قالوا: وغير ذلك. وقد يتصحف المنتخل بحذف نقطة الخاء فيسمى المنتحل. ويشتبه بالمختصر الذي انتحله الثعالبي من المنتخل. وقد حصل ذلك . ثم ناقش الدكتور الجبوري كلا من "بروكلمان". وسزكين". وانتهى إلى أن كتاب" المنتخل هو للميكالي. وقد يصحف كتاب الميكالي فيسمى المنتحل. وسمي المنتخب تبعاً لمضمونه كما في النسخة التركية. وقد اختصره الثعالبي. فانتخل منه جزءاً. سماه المنتحل. وهو المطبوع في الإسكندرية سنة ١٩٠١. ولدينا نسخة أخرى من منتحل الثعالبي أتم من المطبوعة. وأكثر منها شعراً".

وأعقب على جانب من هذا النص فأقول: اعتمد د. "الجبوري" في ذلك - حسب ما ورد في هوامشه وقائمة مصادره - على ما ورد لدى ياقوت في معجم الأدباء ١٧٦٠/٤ (ط. إحسان عباس على ما ورد في الهامش). وابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات ٢٥/٢ (ط. إحسان عباس حسب ما ورد في فهرس المصادر). والصفدي في الوافي بالوفيات: ٣٤٩/١٩ط. (فيسبادن).

وقد رجعت إلى معجم الأدباء (ط.إحسان عباس)- الطبعة التي رجع إليها د. الجبوري- فوجدت أن المذكور لدى "ياقوت" هو "المنتحل" - بالحاء المهملة - وليس المنتخل كما ذهب الدكتور الجبوري.

وفي قول د. يحيى الجبوري: "ولا إسماعيل باشا البغدادي في هدية العارفين. ولا إسماعيل باشا بن محمد أمين البابانى البغدادي في إيضاح المكنون" انظر. حيث يستشعر من كلامه أن" إسماعيل باشا الثاني شخص آخر غير الأول. وأن الكتاب الثاني ألفه شخص آخر غير الشخص الأول. والصواب أن الاسم واحد لشخص واحد. والكتابين "هدية العارفين". و"إيضاح المكنون" لهذا الشخص. فالصواب أن يقال "ولا إسماعيل باشا في هدية العارفين. وإيضاح المكنون".

وأقول: وأما مناقشة ما انتهى إليه الدكتور "الجبوري" في نسبة "المنتخل" للميكالي" فلعل السطور التالية تثبت اختلاف وجهة نظرنا مع ما انتهى إليه من أن كتاب "المنتخل - بالخاء المعجمة- من تأليف " الميكالي. وهذا الاختلاف - بالطبع - لا يفسد للود قضية كما قال أولو العلم. ذلك الود الذي يرجع إلى عهد بعيد منذ أن تتلمذت على كتب الدكتور الفاضل المنشورة عن الأدب الجاهلي. وشعر المخضرمين. وغير ذلك من الدواوين المحققة.

و- ووقفت في موقع الجمعية الدولية للمترجمين العرب على شبكة الإنترنت بتاريخ ٢٠٠٦/٢/١٤م على بعض الآراء بخصوص المنتحل - بالحاء المهملة - في صدد التعريف بهذا الكتاب بعد أن أشير إلى طباعته منسوباً "للثعالبي على يد "أحمد أبو علي". هذا طرف منها: "ينسب الكتاب في كثير من كتب التراجم والأدب إلى أبي الفضل الميكالي ممدوح الثعالبي وصديقه الأكبر. وقد رجح د.الجادر أن يكون الكتاب من تأليفهما معاً على غرار الخالديين. وأن الأدلة مجتمعة تقود الباحث إلى طريق مسدود فيما إذا أراد أن يحدد نسبة الكتاب إلى أحد الرجلين. وفي مكتبة أيا صوفيا مخطوطة منه منسوبة إلى الميكالي. وأخرى في دار الكتب بمصر منسوبة إلى الثعالبي سنة ١٣٢١هـ. المرجع: الثعالبي ناقداً وأديباً. د.محمود عبد الله الجادر صفحة ٥٨" أ.هـ.

وأعلق على اشتراك الثعالبي والميكالي في تأليف - المنتحل- بالحاء المهملة - قائلاً: الكتاب من تأليف "الثعالبي". وليس للميكالي فيه شيء يذكر. وأن اسمه الصحيح هو "المنتحل". وليس "المنتخل". وكل ذلك سيتضح لنا بعد قليل من خلال الأدلة الناصعة. ثم إنّ الأدلة التي رصدناها هنا لم تقدنا إلى طريق مسدود لا في حقيقة مؤلف المنتحل - بالحاء المهملة - و"المنتخل" بالخاء المعجمة.

وجاء في الموقع نفسه أيضاً بعد سرد عدة من آراء العلماء. والتنبيه على سرعة تسرب التصحيف إلى عنوان كتاب "المنتحل": إلا أنني لم أعثر على من سمى كتاب الثعالبي بالمنتحل من المنتخل. ولم يأت الثعالبي على ذكر ما يفهم منه أنه اختار كتابه هذا لا من كتاب الميكالي ولا سواه. لذلك أرى أن نتريث في تغيير عنوان الكتاب حتى نقف على حجة ناصعة. تسوغ لنا هذا التصرف" أ.هـ.

وأقول: أما أن التصحيف نال من العنوان فغيره من "المنتخل" إلى "المنتحل" الذي نشره "أحمد أبو علي" فلا. فالمنتخل شيء. والمنتحل شيء آخر. كما سنثبت الآن. وأما عدم إطلاق اسم المنتحل من "المنتخل" على الكتاب الذي نشره أحمد أبو علي باسم"المنتحل "فأقول: هناك نسخة اعتمد عليها د. الجبوري في تحقيق"المنتخل". وهي مختصرة منه. عنوانها يقترب من هذا العنوان. فعنوانها هو: منتخب المنتخل للثعالبي من كتاب المنتخل لأبي الفضل الميكالي. وأما ما جاء في الرأي السابق من ضرورة التريث في تغيير عنوان الكتاب حتى نقف على حجة ناصعة. تسوغ لنا هذا التصرف" فهذا- بلا شك- عين الصواب.

ز- وأدرجت د." ابتسام مرهون الصفار" في كتابها: رؤية معاصرة في التحقيق والنقد" ص ٥٤ كتاب المنتحل ضمن مؤلفات الثعالبي". وقالت إنه يسمى المنتخل أيضاً. وأنه نشر قديماً في الإسكندرية بعناية أحمد أبو علي".

وأقول: هذا الرأي مثبت في كتاب الدكتورة المنشور هذا العام ٢٠٠٨م. أي بعد نشر المنتخل بثماني سنوات. والحقيقة أن المنتحل كتاب والمنتخل كتاب آخر. ففي المنتخل زيادات كثيرة جداً تعدل ما ضمّه"المنتحل". ولا يعني كون "المنتحل" مختصراً بالفعل من المنتخل أنهما كتاب واحد. ثم إن الذي نشر قديماً هو المنتحل" وليس"المنتخل" المنشور عام ٢٠٠٠م.

وأعود إلى رأس أمري فأقول: إن لدينا الآن كتابين منشورين. أحدهما موسوم بـ"المنتخل" بالخاء المعجمة- موضوع حديثنا - وهو منشور للميكالي". والآخر بـ"المنتحل" بالحاء المهملة. وهو للثعالبي. اختصره من "المنتخل" نشره أحمد أبو علي" في الإسكندرية ١٩٠١م.

ويتلخص رأيي في أن كتاب"المنتخل - بالخاء المعجمة- المتداول في أيدي الناس الآن على أنه للميكالي". ليس للميكالي!. بل هو للثعالبي! ولم أجد من قطع بهذا "الرأي صراحة فيما طالعت ونقبت. ومن هنا أقول: إن الكتابين " للثعالبي. وليس للميكالي فيهما شيء يذكر. ألف "الثعالبي" "المنتخل وأهداه للميكالي". ثم انتحل منه "المنتحل . وهذه أدلتنا:

أولا: الأدلة الداخلية:

وهي الأدلة التي استندنا في استنباطها على ما ورد داخل كتاب "المنتخل". وهي:

(١) خلو الكتاب من شعر "الثعالبي":

لعل من أوضح الأدلة على نسبة كتاب"المنتخل" "للثعالبي" يكمن في خلو هذا الكتاب على ضخامته. وكثرة ما اشتمل عليه من أشعار من بيت واحد من

كتاب «المنتخل» هو «للثعالبي» وليس «للميكالي»

شعر" الثعالبي". ولو كان مؤلفه "الميكالي" حقاً كما ذهب د. "العطية". ود."الجبوري" وغيرهما لاختار "الميكالي" من شعر أديب كبير "كالثعالبي" الذي أهداه طائفة من مؤلفاته، مما جعله ذا منزلة عالية في نفسه، ولعده" الميكالي" كغيره من الشعراء الكثيرين الذين ضمهم كتاب "المنتخل"، والذين يصل عددهم إلى أكثر من (٢٥٠) شاعراً كما ذهب "بروكلمان" في كتابه تاريخ الأدب العربي ١٩٣/٥.

(٢) خلو الكتاب من شعر "الميكالي":

ومن أدلتنا أيضاً على عدم صحة نسبة الكتاب "للميكالي"، وصحة نسبته " للثعالبي" خلوه من بيت واحد"للميكالي"، وقد اعترف د."الجبوري"- محقق الكتاب- بذلك في هامش ص ٧٦٢. إن خلو الكتاب من شعر "الميكالي"، و" الثعالبي" معاً ينطوي على نكتة خفية، تكمن في أمرين، أولهما يتمثل في أن كتاب "المنتخل" ربما يكون من تأليف "الميكالي"!، وهذا ما يدحضه خلو الكتاب من شعر "الثعالبي". فلو كان الكتاب من تأليف "الميكالي" لاختار من شعر "الثعالبي" بعض المختارات. أما الأمر الثاني فيكمن في أن "الثعالبي" هو المؤلف الحقيقي للكتاب، وأنه أهداه "للميكالي"، وهذا ما نقطع به، وقد حاول "أحمد أبو علي" الإفادة من فكر الإهداء في إثبات نسبة "المنتحل للثعالبي" وقد نسب "للميكالي في بعض المصادر"، وبما أن كتابنا "المنتخل" مرفوع من"الثعالبي" "للميكالي"، إذن فلا حاجة "للثعالبي" أن يضع بين يدي "الميكالي" شعراً، هو من إبداع "الميكالي"، فهذا الشعر يمثل الابن الشرعي "للميكالي"، أما المقطعة المنسوبة "للميكالي"في نسخة "المنتحل" للثعالبي" ص ٢٢٨ المختصرة من "المنتخل" فهي من تخاليط الناسخ، إذ هي خالصة النسبة "للقاضي التنوخي ت ٢٤٢هـ" وهي في ديوانه المنشور في مجلة المورد ص٥٩مج١٢-ع١-١٩٨٤م، ونفى د."يحيى الجبوري" نسبتها عن الميكالي في هامش ص ٧٦٢.

(٣) والدليل الثالث على عدم نسبة كتاب"المنتخل" "للميكالي"، ونسبته "للثعالبي"يكمن في إعجاب "الميكالي" نفسه ببعض المقطعات الشعرية، نجده حافظاً لها، منشداً إياها " للثعالبي" ليرويها " الثعالبي" في كتبه المختلفة، ولا نجد أثراً لهذه المقطعات في"المنتخل" - وهو كما نعرف كتاب وضع خصيصاً للمختارات من جيد الشعر-، فلو كان"المنتخل" من تأليف"الميكالي" حقاً لكان أولى بأن يضم بين دفتيه هذه المقطعات، حيث إنها أثيرة عنده، مفضلة لدى ذوقه، وحتى يتضح لنا الأمر أورد هذه المقطعات مخرجاً إياها على هذا النحو:

- فمنها النتفة التالية [من مجزوء الرجز]

شَكْوى إليكَ ما وَجَدْ
مَنْ خانَهُ فيكَ الجَلَدْ
حَيْرانُ لَوْ شِئْتَ اهْتَدَى
ظَمْآنُ لَوْ شِئْتَ وَرَدْ

فهذه النتفة أوردها" الثعالبي" في كتابه الكناية والتعريض ٦٥، وصدرها بقوله: ومن ظريف الكناية عن القبلة ما أنشدنيه أبو الفضل عبد الله بن أحمد الميكالي لهبة الله بن المنجم"، وذكر النتفة، ورواها أيضاً، لهبة الله بن المنجم"، دون تصدير في كتابه يتيمة الدهر ص ٢٩٣/٣، والإعجاز والإيجاز ص ٢٤٢، وكذلك في خاص الخاص ١٧٨.

- ومنها النتفة التالية [من مجزوء الرمل]

لكَ وُدٌّ جَبَرْتَنا
ه فأعيانا صدوغَهُ

فــــإذا ودُك مـمُـــــــا
كُــنــت بــالأمـــس تـبـيـغــهُ

فهذه النتفة أوردها" الثعالبي في كتابه الكناية والتعريض ١٢٦. وصدرها بقوله: وأنشدني أبو الفضل الميكالي لأبي بكر العلاف في الزجاجي النحوي". وذكر النتفة. وأوردها أيضاً في كتابه"ثمار القلوب"ص٦٨١. وصدرها بقوله: أنشدني الأمير السيد- أدام الله تمكينه لابن العلاف في الزجاج. فقال: وذكر النتفة". و السيد الأمير هو أبو الفضل الميكالي على ما درج "الثعالبي" على تسميته في كتاب"ثمار القلوب.

- ومنها النتفة التالية [من الوافر]

أيـا بـرد الـشـبـاب لـكـنت عـنـدي
مـن الـحـسـنـات والـقـسـم الـرغـوب
لـبـسـتـك بـرهـة لـبـس ابـتـذال
عـلـى عـلـمـي بـفـضـلـك فـي الـثـيـاب
ولـو مـلـكـتُ صـونـك فـاعـلـمـنـه
لـصُـنـتـك فـي الـجـديـد مـن الـعـيـاب
ولـم ألـبـسـك إلا يـوم فـخـر
ويـوم زيـارة الـمـلـك الـلُـبـاب

فهذه المقطعة أوردها" الثعالبي في كتابه"ثمار القلوب"ص٥٩٨. وصدرها بقوله:قد أكثروا من هذه الاستعارة: ومن أحسن ما سمعت فيها أن أنشدنيه الأمير السيد- أدام الله تأييده - لابن الرومي في عبيد الله بن عبد الله بن طاهر.

- ومنها النتفة التالية [من الوافر]

أجـلْ عـيـنـيـك فـي عـيـنـي تـجـدْهـا
مـشـرَبـةَ نـدى ورْد الـخـدود
وصـافـحْـنـي تـجـدْ عـبـقـاً بـكـفـي
يـضـوعُ إلـيـك مـنْ ردْعِ الـنُـهُـود
وخُــذْ سـمْـعـي إلـيـك فـإنَّ فـيـه
بـقـايـا مـن حـديـث كـالـعُـقـود

فهذه المقطعة أوردها" الثعالبي" في كتابه" يتيمة الدهر ١٠٦/١. وصدرها بقوله: وأنشدني الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي هذه الأبيات ولم يسم قائلاً. ثم وجدتها في بعض التعليقات منسوبة إلى بعض آل حمدان".

وذكر المقطعة.

- ومنها النتفة التالية [من الكامل]

نـبِّـئـتُ أنــك مُـنـشـدٌ مـا قـلـتـه
فـي سَـبِّ عـرضـك لا تـخـاف وعـيـدي
والـكـلـبُ لا يـخـزى إذا أخـسـأتـه
والـقـار لا يـخـشـى مـن الـتَّـسـويـد

فهذا المقطعة أوردها " الثعالبي" في كتابه يتيمة الدهر ص٢٧٦/٣. وصدرها بقوله: وأنشدني له الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي". وذكر النتفة:

- ومنها النتفة التالية التي ذكرها الثعالبي في كتابه يتيمة الدهر ص٢٧٩/٣ في سياق القصة التالية:

"أنشدت الأمير أبا الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي هذا البيت- بيت مذكور هناك- وحكيت له هذه الحكاية في المذاكرة. فقال لي: أتعرف من أين سرق صاحب معنى هذا البيت؟ فقلت: لا والله. قال: إنما سرقه من قول القائل. ونقل ذكر العين إلى ذكر الصدغ: [من مجزوء الرمل]

لــدغــتْ عــيْــنـك قـلـبـي
إنَّــمــا عــيْــنـك عــقْــربُ

لـكـن الـمَـصَـةُ مـن ريـقـ

ـك تـريـاقٌ مـجـرَّبُ

فقلت لله در مولانا الأمير! فقد أوتي حظاً كثيراً من التخصص بمعرفة التلصص".

ومنها النتفتان التاليتان: [من مجزوء الكامل]

الـريـحُ تـحْـسُـدُنـي عـلـيـ

ـك ولـم أخـلـهـا فـي الـعِـدَى

لـمـا هـمـمْـتُ بـقـبْـلَـة

رَدَّت عـلـى الـوجـه الـرّدَى

وأنشدني له [من الوافر]

وَقَـالـوا: أيُّ شَـيْءٍ مِـنْـهُ أحْـلَـى؟

فَـقُـلْـتُ: الـمـقـلـتـان الـمُـقْـلـتَـانِ!

نَـعـم والـطُّـرَّتَـانِ هُـمَـا الـلّـتَـانِ

عَـلَـى عُـمـر الـهـرنـدي فـتـنـتـانِ!

فهاتان النتفتان أوردهما"الثعالبي" في كتابه يتيمة الدهر ٤١٤/٣. وصدرهما بقوله: أنشدني الأمير أبو الفضل عبيد الله ابن أحمد الميكالي له:". أي: لأبي القاسم عمر بن عبد الله الهرندي، وذكر النتفتان.

فكل هذه الأشعار كان أولى بها كتاب" المنتخل" لو كان "الميكالي"هو مؤلفه الحقيقي.

(٤) أما الدليل الرابع فيكمن في بُعد الكتاب عن منهج"الميكالي"المتمثل في الشغف بالمحسنات البديعية: ولتوضيح ذلك أقول: كان "للميكالي" منهج عرف به نظم شعره، سار على هذا المنهج في كل مقطعة من المقطعات التي نظمها، وضمّها ديوانه المتداول في أيدي الناس. يتمثل هذا المنهج في الولع بتكلف المحسنات البديعية. والسعي الحثيث المتواصل وراء تصيدها، وقد أشار إلى ذلك غير واحد من النقاد، منهم "الحصري القيرواني ت٤٥٣هـ "في كتابه" زهر الآداب" ص٥٠٤/١. وص ٦٩١/٢. هذا. فضلاً عن كون "الميكالي" أحد أفراد مدرسة تحتاج إلى دراسة جادة من باحث جاد، مدرسة ذات منهج طريف في توظيف الجناس في الأبيات والنتف الشعرية، والحرص على التلاعب بالألفاظ من أجل أحداثه. ألا وهي مدرسة "جناس القوافي في القرن الرابع الهجري". ومن أعلام هذه المدرسة غير "الميكالي": "أبو الفتح البستي ٤٠٠هـ. والقاضي أبو بكر عبد الله بن محمد البستي". و"أبو سعد عبد الرحمن بن محمد بن دوست"، و"أبو عبد الرحمن محمد بن عبد العزيز النيلي". و" أبو سهل بكر بن عبد العزيز النيلي". و"أبو الحسن أحمد بن المؤمل". انظر في ذلك يتيمة الدهر ١٤٨/٤، ٣٠٣، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٨، ٤٣٠.

إن منهج"الميكالي" الذي ولع به في نظمه لا نرى له أدنى أثر في اختيار المادة الشعرية لكتاب "المنتخل". ولو كان هذا الكتاب من تأليفه بالفعل لرأيناه يركّز في اختياراته على المقطعات التي تتسق ومنهجه في النظم، وهو التكلف بالمحسنات البديعية، خاصة"جناس القوافي" الذي أشار إليه بعض النقاد كما سبق أن ذكرت.

(٥) تكرار تعبيرات ومفردات بعينها في مقدمة كتاب"المنتخل". وفي بعض كتاب "الثعالبي". ولإيضاح ذلك رأيت إيراد نص مقدمة الكتاب المبتسرة، والتي لم تتجاوز سبعة أسطر. لنرى أن كل ألفاظ هذه المقدمة من أسلوب الثعالبي الذي استعمله بكثرة في مؤلفاته، وها هو ذا نص هذه المقدمة:

"أما بعد حمد الله الذي هو أول الفرقان، وآخر دعوى أهل الجنان. **والصلاة والسلام على خير مولود، دعا إلى خير معبود، فإن هذا الكتاب**

أودعناه من جيد الشعر ومحكمه وأمثاله وحكمه. وقلائده وفرائده وشوارده وفوارده للجاهليين والمخضرمين والمتقدمين من الإسلاميين والمحدثين والمولدين والعصريين. وما ينخرط في سلك الرسائل والمخاطبات. ويندرج في أثناء الإخوانيات والسلطانيات. ويستعان به في سائر أنواع المكاتبات وأخرجناه في خمسة عشر باباً ليقرب متناوله. ويدل على آخره أوله. والله الموفق لإتمام العمل. والمعيذ من الخطأ والزلل أ.هـ.

هذه هي مقدمة الكتاب الموجزة جداً، أردفها المؤلف بعناوين أبواب الكتاب. وأسماء الشعراء الذي اختار لهم شعراً. والسؤال الآن هو: هل تفصح هذه الكلمات القليلة عن أسلوب مؤلفه. ومن ثم عن هويته؟. هذا ما سيتضح لنا في الكلمات التالية:

ورد في مقدمة "المنتخل" ص ٤٩ ما نصه:

أ- "والصلاة والسلام على خير مولود، دعا إلى خير معبود".

فهذا الأسلوب من الأساليب التي استعملها "الثعالبي". حيث ورد بفصه ونصه في كتابه "نثر النظم وحل العقد" ص٢٢٩.

ب- وورد في المقدمة أيضاً ص ٤٩ ما نصه: "وشوارده وفوارده".

فهاتان اللفظتان نجدهما في عنوان الباب العاشر في كتاب لباب الآداب. حيث ورد العنوان هكذا: "في فنون مختلفة وفرائده وشوارده وفوارد..." ووردتا أيضاً في كتاب سحر البلاغة وسر البراعة ص ١٧٥ تحت عنوان: "كتاب الشوارد والفوارد".

ج- وورد في المقدمة أيضاً من ص ٤٩ ما نصه: "ما ينخرط في سلك".

فنجد ما يشبه هذا كثيراً في أسلوب "الثعالبي". كما في ثمار القلوب٢١٣. ويتيمة الدهر ٤/٣٥٤. وتتمة يتيمة الدهر. وخاص الخاص ٤٢. وسحر البلاغة وسر البراعة ص٩١. ص١٠٤.

د- وورد في المقدمة أيضاً من ص ٤٩ ما نصه: "ويندرج في أثناء".

فهذه الجملة نجد لها مثيلا في كلام الثعالبي في كتابه نثر النظم وحل العقد في قوله ص ٣٦: "وإن أدرجتني في أثناء الغفلة". وورد ما يشبهها في كتاب وسحر البلاغة. وسر البراعة في ١٣٦ في قوله: "أدرجتني في أثناء الغفلة".

هـ- وورد في المقدمة أيضا ص ٤٩ ما نصه: (وفي نسخة وأخرجته) في خمسة عشر باباً.

هذا القول نجده برسمه ووسمه في صدر بعض مؤلفات "الثعالبي". فنجده في صدر كتابه الإعجاز والإيجاز ص ٨ في قوله: "وأخرجته في عشرة أبواب". ونجده في صدر كتابه الكناية والتعريض ص ٦ في قوله: "وأخرجته في سبعة أبواب". ونجده في يتيمة الدهر ص ٤/٦٤ في قوله: وأخرجته في عشرة أبواب.

و- وورد في المقدمة أيضاً من ص ٤٩ ما نصه: "ليقرب متناوله. ويدل على آخره أوله".

نقف على ما يقرب من هذا في يتيمة الدهر ص ٦٤/٥. حيث ورد فيها ما نصه: "لما كان أول كتاب مرتهناً بآخره. وصدره موقوفاً على عجزه".

ز- وورد في المقدمة أيضاً عنوان الباب الثاني الجملة التالية: "ما يجري مجراها".

فقد وردت في يتيمة الدهر مرتين في ص ١/ ٢٩١. وفي ص ٤/ ٢٣٠. ووردت في عنوان الباب الخامس من كتاب: "لباب الآداب". وفي عنوان الباب السابع عشر من كتاب "أحسن ما سمعت" ص ١٣٩. وفي كتاب سحر البلاغة. وسر البراعة ص٥٩.

كتاب «المنتخل» هو «للثعالبي» وليس «للميكالي»

ح- وورد في المقدمة في عنوان الباب الرابع ما نصه: "**وما ينضاف إليها**".

فنقف على هذه الجملة في كتاب سحر البلاغة وسر البراعة ص٣٧. ونقف عليها أيضاً في عنوان الباب التاسع من كتاب لباب الآداب.ووردت في يتيمة الدهر أربع مرات في ص ١/ ٢٢، ٢/ ٣٥، ٦٧، ١٥٨.

فهذه الجمل والتعبيرات كلها مما كان يؤثره "الثعالبي" في تآليفه المختلفة، فهي من أسلوبه الذي عرف به، يدل على ذلك تكرار الجملة أكثر من مرة في مؤلفاته، وهذا الأمر يقطع برد هذه المقدمة إلى "الثعالبي"، ومن ثم نسبة تأليف كتاب "المنتخل"- بالخاء المعجمة- إليه.

ولا نود مغادرة هذا الدليل دون أن نتعرض لما ذهب إليه د."زكي مبارك" في كتابه النثر الفني في القرن الرابع الهجري ص٢/ ٢٣٠ بخصوص أسلوب "الثعالبي". فقد قال: "ولنقيد هنا أن الثعالبي كثير الاستغلال لألفاظ معاصريه، فهو لا يملك كل ما نثره من الاستعارات والتشبيهات، وله عذره في ذلك، فقد شغل بجمع طرائف التعبير حتى يمكن الحكم بأن أخيلة غيره كانت تسبق إليه من حيث لا يحتسب، وإن كنّا لا نبرئه من قصد السرقة ونية الانتهاب"أ.هـ.

وأقول ظاهر هذا الكلام من الممكن أن يمس دليلنا، والحقيقة أنه لا يمت بصلة إلى ما نحن بصدده، بيد أن الإمعان في الوقوف على الحقيقة هو الذي دعانا إلى التطرق إلى الحكم القاسي للدكتور زكي مبارك على "الثعالبي"، وتعقيبنا على ما ذهب إليه يتلخص فيما يلي:

أ- أن هذا الحكم ملقى على عواهنه، لا تسنده الأدلة الكافية، ولا تعززه البراهين الشافية.

ب- أن الدكتور عندما أثبت رأيه هذا أحالنا على زهر الآداب ج٥، دون أن يحدد صفحة معينة، كما أحالنا على مقدمة كتاب " سحر البلاغة وسر البراعة" ص١١٤، ١١١٥!. فرجعت إلى فهرس المصادر المثبت في نهاية كتابه لأرى أي طبعة اعتمد عليها من "زهر الآداب"، فوجدته يذكر أن الكتاب طبع في أربعة أجزاء فقط!فتأمل.

ورجعت إلى مقدمة "سحر البلاغة" ص٣، ٤ فوجدت "الثعالبي" يذكر بالحرف الواحد ما نصه - ونقل الحصري هذا الكلام في زهر الآداب١/ ١٢٧-١٢٨: "أخرجت بعضه من غرر نجوم الأرض، ونكت أعيان الفضل من بلغاء العصر في النثر، وحللت بعضه من نظم أمراء الشعر الذين أوردت ملح أشعارهم في كتابي يتيمة الدهر، فلفقت جميع ذلك ونسقته، وسردته، وسقته...". ثم ذكر "الثعالبي" في المقدمة ذاتها ص ٥-٦أسماء الكتاب والأدباء والشعراء الذين أخرج الكتاب من كلامهم، وذكر في كتاب الأمثال في ص ١٨٥ من كتاب"سحر البلاغة وسر البراعة"ما يفيد بأنه رد كلام كل أديب إليه، قال في ذلك: وقد اعتمدت بهذا الكتاب الأخير (كتاب الأمثال) أن يكون غرره كلها مستقلة بأنفسها منسوبة إلى أربابها الذين هم أفراد الدهر، وأعيان العصر في أنواع النثر". فأي أمانة نطلبها بعد كل هذا الصدق؟، وأي أمانة ننشدها بعد هذا التوثيق؟.

وقلت آنفاً: إن رأي الدكتور "زكي مبارك" لا يعنينا في دليلنا هذا في شيء، سواء أكانت الأساليب التي أوردتها آنفاً من مقدمة " المنتخل من بنات إنشائه أم أخذها من غيره، إذ لم ينسب "المنتخل" إلى غيره إلا" للميكالي". وهذه الأساليب لم تأت فيما وصل إلينا من أدب "الميكالي" على حين ترددت بكثرة كما أوضحنا في مؤلفات "الثعالبي".

(٦) أما دليلنا السادس على نسبة كتاب "المنتخل "للثعالبي". كمصطلح العصريين . فهذا المصطلح يعد من بنات أفكار "الثعالبي". حيث عرف به دون سابقيه. استعمله في التعبير عن الإشارة إلى ذكر معاصريه من الشعراء. نقف على هذا اللفظ كثيراً في مؤلفاته. وكأنه كان يدرك تماماً أن هذا المصطلح لم يستعمل من قبل. ولذلك أكثر من استعماله. وقد بحثت عن استعمال هذا المصطلح لدى من سبقه من العلماء والأدباء والشعراء فلم أجد أحداً منهم أتى على ذكره. وقد تعقبت هذا اللفظ في بعض مؤلفاته فوقفت عليه في:

اسم المصدر	المواضع	أرقام الصفحات في المصدر
ثمار القلوب	١٢	٣٩، ٢٢٥، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٧٤، ٢٧٨، ٤٨٩، ٥٢٧، ٥٤٠، ٦٦٥، ٦٦٦، ٦٧٨.
يتيمة الدهر	١١	١٧/١، ٢٤، ١٧٣، ٢٩٩/٣، ٣٠٠، ٤٠٠، ٤٦/٤، ١٠١، ١٤٧، ٢٤٩. وتتمة يتيمة الدهر ٢٧٤
الإعجاز والإيجاز	٢	٢١٥، ٢١٧
خاص الخاص	٢	١٠٠، ١٤٨
من غاب عنه المطرب	١	٧٩
الكناية والتعريض	١	٤٣



إنّ استعمال "الثعالبي" لهذا المصطلح في مؤلفاته بهذه الكثرة. وعدم وروده لدى السابقين. ووجوده في مقدمة: المنتخل لهو دليل دامغ على نسبة كتاب "المنتخل" إليه.

(٧) ويكمن الدليل السابع في تشابه عناوين أبواب "المنتخل" مع عناوين طائفة من عناوين أبواب بعض مؤلفات "الثعالبي". ويعد هذا أيضاً أحد الأدلة المهمة على عدم نسبة كتاب "المنتخل" "للميكالي" ونسبته "للثعالبي". إذ لم يقتصر أمر تشابه مقدمة "المنتخل" - كما رأينا على ابتسارها - على الجمل والمفردات. والعبارات التي تتردد بكثرة في مؤلفات "الثعالبي". بل تجاوز التشابه ذلك إلى تشابه آخر أعم وأشمل. يكمن هذا التشابه في عناوين الأبواب. حيث نجد معظم عناوين "المنتخل" هي عناوين مستعملة بفصها ونصها في كتب "الثعالبي" الأخرى. وهذا بيان ذلك:

اسم الكتاب	عنوان الباب	رقم الباب
-المنتخل	في وصف الخط والكتابة والبلاغة نظماً ونثراً	١
- من غاب عنه المطرب	وصف الخط والبلاغة وما يجري مجراها	١
- المنتخل	في التهاني والتهادي وما يجري مجراها	٢
- أحسن ما سمعت	في التهاني والتهادي	٢٠
- سحر البلاغة	كتاب التهاني والتهادي وما ينخرط في سلكلها	٩٢
- لباب الآداب	في التهاني والتهادي	٣
- يتيمة الدهر	في التهاني والتهادي (عنوان فصل)	ص٢/٢٧٧
- المنتخل	في التعازي والمراثي.	٣
- لباب الآداب	في التعازي والمراثي وما يشاكلهما.	٣
- أحسن ما سمعت	في المراثي والتعازي.	٢١
- سحر البلاغة	كتاب التعازي وما يليق بها.	١٠٥
- المنتخل	في مكارم الأخلاق والمدائح ونحوها.	٤
- أحسن ما سمعت	في مكارم الأخلاق وفي المدائح.	١٦
- لباب الآداب	في الممادح والأثنية وما يجري مجراها.	٥
- المنتخل	في الاستماحة والشفاعة والهز والاستعانة	٥
- لباب الآداب	في الاستماحات والشفاعات وما يشاكلهما	٧
- المنتخل	في الشكر والثناء وما يقاربهما	٦
- يتيمة الدهر	في الشكر والثناء (عنوان رئيس)	ص ٤/٣٦١
-أحسن ما سمعت	في الشكر والعذر والاستماحة والاستباحة وما يجري مجراهما	١٧
- المنتخل	في الهجاء والذم وذكر المقابح	٨
- لباب الآداب	في المقابح والمساوئ وما يدانيها	٦
- أحسن ما سمعت	في مساؤى الأخلاق والأهاجي	١٨
- المنتخل	في الإخوانيات وما يشملها.	١١
- لباب الآداب	في الإخوانيات وما يتصل بها.	٢
-من غاب عنه المطرب	في الإخوانيات وما ينضاف إليها	
- سحر البلاغة	في الإخوانيات وما يجانسها	
- المنتخل	في العيادة وما ينضاف إليها	١٤
- أحسن ما سمعت	في الأمراض والعيادات وما ينضاف إليها	١٩
- سحر البلاغة	كتاب العيادة وما يجانسها	٨٥

وهناك تشابه أكثر من هذا حاصل بين عناوين المنتخل وعناوين كتاب آخر للثعالبي هو نثر النظم وحل العقد. ويلاحظ تشابه أرقام حتى الأبواب بين المنتخل وبعض مصادر الثعالبي المذكورة في هذا الجدول! فما بالنا بتشابه المادة العلمية بين المنتخل وهذه المؤلفات؟

ومن المؤكد أن الميكالي لم يكن من الضحالة الفكرية واللغوية إلى هذا المستوى. بحيث يعجز عن تدبيج مقدمة لكتابه تكون من بنات أفكاره. فيهرع إلى كتب الثعالبي ليأخذ منه ألفاظاً وجملاً وعبارات وأنساقاً بعينها مما هو أثر لدى الثعالبي ويؤسس على ما أخذه هذه الكلمات القليلة جداً لتكون مقدمة لكتاب. ومن المؤكد أيضاً أن القدرة التأليفية لدى الميكالي لم تضمحل إلى الحد الذي يدعوه إلى أخذ عناوين المنتخل من عناوين شهيرة في مؤلفات الثعالبي.

إنّ ورود الألفاظ والجمل والعبارات في المنتخل. وترددها في كتاب الثعالبي أمر يقطع بعدم نسبة كتاب المنتخل للميكالي. ويقطع من جانب آخر بنسبته للثعالبي.

(٨) إنّ هذا التشابه في عناوين المنتخل مع عناوين بعض كتب "الثعالبي" أوجد تشابهاً آخر في محتوى الكتاب من مادة شعرية. حيث وجدنا ما يقرب من ٨٠٪ من مادة الكتاب مأخوذة من كتب الثعالبي! خاصة كتاب يتيمة الدهر. وتخريجات المحقق تثبت ذلك. فهل خلت خزانة كتب (الأمير) "للميكالي" من الكتب إلا من مؤلفات الثعالبي؟!. وأين كانت الدواوين الشعرية ومصادر التراث العربي منذ وجدت وحتى بداية القرن الخامس الهجري؟!.

لا شك أن اشتمال كتاب "المنتخل". على ما يقارب من ٨٠٪ من مادته العلمية نجدها في كتب الثعالبي أمر يقرر عدم نسبته للميكالي. ويؤكد نسبته للثعالبي. ويؤكد ذلك ما لمسته في كتب الثعالبي" الأخرى. فمن ينظر في المادة الشعرية في كتابه يتيمة الدهر. ثم يقوم بعرضها على بعض مؤلفاته الأخرى سيجد أن الثعالبي جعل كتابه يتيمة الدهر أساساً لطائفة من مؤلفاته. فأخذ مادتها. ووزعها على هذه المؤلفات لاسيما كتبه: "الإعجاز والإيجاز". و"أحسن ما سمعت" و من غاب عنه المطرب. و الكناية والتعريض. و نثر النظم وحل العقد. و لباب الآداب. و المنتخل فتأمل!

(٩) وتمثل عناوين بعض المخطوطات أحد الأدلة التي تقطع بعدم نسبة كتاب المنتخل للميكالي. ولبيان هذا الأمر أقول: أما بالنسبة للنسخ المخطوطة المعتمدة في التحقيق. فلا تقطع عناوينها مجتمعة بنسبة "المنتخل للميكالي".. إن المحقق اعتمد في تحقيق هذا الكتاب ونشره على ثلاثة مخطوطات. ونسخة مطبوعة من مختصر المنتخل. هذه النسخ هي:

أ- نسخة الأصل التركية. وهي نسخة استانبول رقم ٢٦٣٤. وقال المحقق- وقوله مطابق لما أورده من صور لصفحات العناوين: "صفحة العنوان: في أعلاها بحرف صغير. وبخط رقعة قوله: كتاب الأبيات المنخرطة في المراسلات. وهذه العبارة تعريفية بالكتاب. مقتبسة من مقدمة الكتاب من قول المؤلف... وتحته بخط كبير وحديث انطمس بعضه: أدبيات "المنتخل للميكالي".

وأقول: إنّ هذه النسخة هي أقدم النسخ. حيث جاء في آخرها ما يفيد بأن تحريرها كان في عام ٦١١هـ. أي بعد وفاة "الميكالي" بمائة وثمانين سنة تقريباً.

فإذا نظرنا إلى عنوان هذه النسخة. وهي أقدم

كتاب "المنتخل" هو "للثعالبي" وليس "للميكالي"

النسخ وجدنا ما يدعونا إلى التشكك في نسبة كتاب "المنتخل" للميكالي" من عدة أوجه، هي:

أ- أن العنوان مكتوب بخط حديث - كما قال المحقق - ويبدو لي أن صفحة العنوان فقدت، فحاول الناسخ إثبات العنوان على سبيل الاجتهاد في التخمين.

ب- أن عنوان أقدم النسخ فيه طمس - كما قال المحقق - وربما لو لم يحدث هذا الطمس لبرح الخفاء، وزال الإشكال. فمن يدرينا؟ فلعل مكان هذا الطمس نسبة الكتاب صراحة "للثعالبي".

ج - عنوان النسخة لا يقطع بنسبة الكتاب صراحة للميكالي. إذ جاء العنوان هكذا "أدبيات المنتخب للميكالي". فلو كان الكتاب من تأليف "الميكالي" لجاء العنوان هكذا: "أدبيات المنتخب الميكالي". أو "أدبيات المنتخب من تأليف "الميكالي"، فالجار والمجرور يوحيان بأنه ربما تم انتخاب هذا الكتاب، وتقديمه هدية للميكالي. وهذا ما نقطع به.

وعليه فيلزم مراجعة ما انتهى إليه المحقق مستنداً على اشتمال هذه النسخة على شعر أكثر مما ورد في المنتحل، حيث قال ص٢١ معقباً على الإحصائية التي رصدها: "أن نسخة المنتخب للميكالي الأصل التركي تزيد على منتحل الثعالبي المخطوط بـ ٢٠٢٤ بيتاً، وتزيد على المطبوع بـ٢٤٦٢ بيتاً. ومن هنا يصح القول ويثبت بأن منتحل الثعالبي هو مختصر كتاب منتخل الميكالي".

وأقول: إن استناده على كثرة الأبيات لإثبات اختصار "الثعالبي" لكتاب "الميكالي" لا يمثل في حقيقة الأمر دليلا. نعم، لا أنكر أن "المنتحل" مختصر من "المنتخل". بل نتفق مع المحقق في ذلك. بيد أن الذي لا نقر به ولا نشايعه فيه هو أن كتاب "المنتخل" من تأليف "الميكالي". فالكتابان لمؤلف واحد هو "الثعالبي"، ألف أولهما وهو المنتخل، ورفعه - على ما نرجح - هدية "للميكالي" ثم بادر "الثعالبي"، واختصر "المنتخل" في كتاب وسمه بـ "المنتحل".

كان هذا عن أقدم نسخة، وهي النسخة التي اتخذها المحقق أصلاً.

٢- أما النسخة الثانية، وهي نسخة جامعة كمبردج، فهي النسخة الوحيدة التي نسب فيها الكتاب للميكالي" صراحة هكذا: "كتاب المنتخل تأليف أبي الفضل عبد الله (كذا والصواب عبيد الله) بن أحمد بن علي الميكالي"، فأقول: على الرغم من نسبة هذه النسخة صراحة" للميكالي" فإنني أشكك في نسبتها إليه استناداً على ما انتهى إليه المحقق بشأن هذه النسخة في قوله: "بين هذه النسخة وبين كتاب التمثيل والمحاضرة شبه كبير من حيث الترتيب والرواية وتسلسل الأبيات". ومعروف أن كتاب "التمثيل" والمحاضرة للثعالبي"، وهذا الأمر الذي انتهى إليه المحقق يعزز من وجهة نظري نسبة "المنتخل" "للثعالبي". هذا من ناحية، ويقرر من ناحية أخرى تأخر نسخ هذه النسخة على يد أحد النساخ المتأخرين-على النسخة تملكات ترجع إلى سنة١٠٠٦هـ كما نص المحقق - الذي أثبت العنوان منسوباً "للميكالي" استنادا على ما أوردته بعض المصادر التراثية التي أشرنا إليها سلفا، أو انقياداً للوهم الناشئ من إثبات الجار والمجرور في أقدم النسخ، فظن أن الكتاب "للميكالي" مع أنه مقدم "للميكالي" على سبيل الإهداء على ما نرجح.

٣- أما النسخة الثالثة المعتمدة في عمل المحقق والمرموز إليها بالرمز (م) والتي تمثل "المنتخب من المنتخل" فهي "للثعالبي" كما ورد في صفحة عنوانها في عمل المحقق. ولا يعتد بما

ورد عن القدماء بنسبتها "للميكالي". وقد اعتمد المحقق على نسخة مخطوطة تختلف عن النسخة المنشورة على يد أحمد أبي علي. هذا بالإضافة على اعتماده على هذه المطبوعة أيضاً.

وهكذا نلاحظ أن ليس ثمة إجماع في عناوين المخطوطات الثلاث المعتمدة في عمل المحقق على نسبة الكتاب للميكالي. وهكذا نرى أن بعض العناوين كتبت حديثاً. واجتهد بعض النساخ في إكمال هذه العناوين بعزو الكتاب للميكالي .

ونؤكد على حقيقة أجمع عليها أولو العلم: وأرباب التحقيق. ألا وهي كون ما ورد من عزو بعض المخطوطات على أغلفتها ليس كافياً في نسبة المخطوطة إلى المؤلف - (انظر في ذلك مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين ص٧٥. وعلو الاكتناه العربي الإسلامي لقاسم السامرائي ص ٣٥١وغيرهما من الكتب التي اهتمت بالحديث عن قواعد التحقيق)- فقد يكون المثبت على صفحة الغلاف قاطعاً بشيء، وواقع المادة العلمية داخل الكتاب والمنهج في سردها ينطق بشيء آخر هو عين الصواب. وهذا ما نذهب إليه في تدبيج هذا البحث المتواضع.

ثانيا: الأدلة الخارجية:

أما الأدلة الخارجية على تأليف الثعالبي للكتاب، والتي استخرجتها من قرائن من حياة "الثعالبي". وبعض المصادر فأسوقها كالتالي:

(١) ذهب بعض المعاصرين الذين قالوا بتأليف "الميكالي" لكتاب "المنتخل" إلى أن "الثعالبي" نهض باختصاره في كتاب "المنتحل". وقد ذهبوا إلى ذلك ليقرروا نسبة "المنتخل" للميكالي".

والحقيقة أن اختصار مؤلفات الآخرين ليس من منهج "الثعالبي" في نتاجه التأليفي. بل إن مصنفي العصر العباسي لم يألفوا هذا المنهج. حيث كانوا يعيشون في عصر شهد من العمق الفكري. والسمو الثقافي. والازدهار الحضاري ما حفزهم على الإبداع والتجديد. وباعد بينهم وبين الاختصار والتلخيص.

إن اختصار الكتب بدأ يأخذ طريقه نحو الظهور بصورة واضحة بداية من أواخر القرن السابع الهجري وحتى مطلع العصر الحديث أي في عصور الضعف والاضمحلال الفكري. والكبت الشعوري. وخذ على ذلك مثالاً بابن الظهير الإربلي ت ٦٧٧هـ". فقد اختصر كتاب "المنتخل" في مؤلف عنوانه: "محقق الأمل في المنتخب من المنتخل". واختصر كذلك كتاب أمثال الشريف الرضي ت ٤٠٦هـ". هذا ولم يشر أحد ممن ترجموا "للثعالبي" إلى أنه اختصر كتاباً. وكيف يقدم على ذلك ورصيده من المؤلفات جاوز مائة كتاب.

(٢) وبالنسبة لفكرة الاختصار التي هي من بنات أفكار معاصرينا دون القدماء. وتذرع بها هؤلاء المعاصرون ليقرروا تأليف "الميكالي للمنتخل". وليوفقوا بين المنتحل و المنتخل. ومن ثم الخروج من مأزق الإشكال واللبس الحادث من جراء الوهم والتصحيف. وأقول: معروف أن "للثعالبي" باعاً طويلاً في التأليف الأدبي. إذ أربت مصنفاته على مائة مصنف. فشهرته في هذا المجال تفوق بكثير شهرة "الميكالي". وهذا بدوره يدعونا إلى طرح هذا السؤال: ما الداعي الذي يحدو "بالثعالبي" للإقدام على اختصار مثل هذا الكتاب بعد إنجازه كل هذا المصنفات الكثيرة جداً؟ وهل يعقل قيامه باختصاره ممن يهدي إليهم مؤلفاته؟ من المؤكد أن الإجابة على ذلك تكمن في ألاّ شيء يدعوه إلى هذا الاختصار خاصة وأن أكثر من ٨٠٪ من مادة "المنتخل" وارده في مؤلفاته المتعددة كما ذكرنا آنفاً. وأن كتاب "المنتخل"

كتاب «المنتخل» هو «للثعالبي» وليس «للميكالي»

صحيح النسبة إليه. ولا تقل هذه النسبة عن صحة نسبة "المنتحل" إليه أيضاً.

(٣) ومن الأدلة التي تقطع بعدم تأليف الميكالي لهذا الكتاب عدم نسبته إليه إلا بعد عصره بما لا يقل عن قرنين من الزمان. فقد ترجم له بعض معاصريه. منهم: "الثعالبي ت ٤٢٩هـ- صديق عمره - في يتيمة الدهر ص/٣٥٤- ٣٨١. وذكره كثيراً في كثير من كتبه. ودرج على إهدائه طائفة من مؤلفاته -كما ذكرنا في هذا البحث نقلا عن غيرنا -ومنهم أيضاً: الباخرزي (ت ٤٦٧هـ) - رفيقه - في دمية القصر ١٤٧/٢ -١٥٢. ومنهم صديقه الثالث: "المطوعي" الذي ألف عنه كتابه "درج الغرر، ودرج الدرر". وأتى فيه على كثير من نماذج أدبه شعراً ونثرا. ولم يذكر واحد منهم أنه ألف المنتخل.

(٤) معروف عن الثعالبي أنه كان يحوّر في محتويات كتبه، ويسلخ بعضها من بعض، ويضيف إلى المسلوخ بعض المواد العلمية الجديدة. وكان يضطر تبعاً لما أضافه من جديد إلى إحداث بعض التغيير في عناوينها يتسق وهذا الجديد. وقد اعترف بذلك نفسه في مقدمة كتابه سحر البلاغة وسر البراعة ص٣ حيث قال: إنه لفقه من كتابه يتيمة الدهر. واعترف بذلك غير واحد من المتخصصين في دراسة أدب الثعالبي. أذكر منهم على سبيل المثال والاستدلال - لا على سبيل الحصر - الأستاذة الفاضلة الدكتورة: ابتسام مرهون الصفار وهذا نص ما ذكرته في كتابها القيم الموسوم:- "رؤية معاصرة في التراث والنقد ص ٦٣-٦٤. الذي ضمنته قائمة بمؤلفات الثعالبي. تعد آخر قائمة منشورة. حيث إن كتابها صدر هذا العام ١٤٢٩هـ -٢٠٠٨م: "إن الاطلاع على قائمة كتب الثعالبي. ومقارنة ما طبع منها بعضها ببعض يطالعنا على منهجه في التأليف والبحث لأن الثعالبي يكرر كثيراً ما كتبه في كتب سابقة. ويؤلف كتاباً جديداً وباسم جديد مع إضافة بعض الفصول وبعض المعلومات الجديدة... هذه الملاحظة تجعلنا نعيد النظر في قائمة كتبه التي طالت وكثرت مع ما فيها من تراث ضخم. وعلم غزير. خلفه الثعالبي وراءه. ولعلنا نستطيع أن نقرن كتاب جوامع الكلم مع كتاب جواهر الحكم. وسر الأدب في مجاري كلام العرب. وكتاب الظرائف واللطائف مع كتاب الملح والطرف وكتاب لفائف المعارف. واللطف واللطائف. وربما نستطيع أن نقرن أيضاً كتابيه: مدح الشيء وذمه. وكتاب المديح مع التمثيل والمحاضرة الذي عقد فيه فصولاً كثيرة في مدح الشيء وذمه. ونقرن أيضاً كتاب من غاب عنه المطرب. ومن غاب عنه المؤنس مع كتاب مؤنس الوحيد. والفصول الأولى من كتاب الاقتباس من القرآن الكريم فيه بعض التشابه في المنهج الذي سلكه الثعالبي ثمار القلوب". وقد اعترف "الثعالبي" بذلك في مقدمة كتابه الموسوم بـ"سحر البلاغة وسر البراعة" ص ٥- ٦. حيث قال في شأن هذا الكتاب: "وكنت قد أخرجته في نسختين متقاربتي الكيفية والكمية مشاكلتي الصنعة والصيغة. أهديت إحداهما إلى الشيخ الرئيس أبي سهل أحمد بن الحسن الحمدوني. والأخرى إلى صاحب الجيش أبي عمران موسى بن هاوون الكردي. وهذه النسخة الثالثة تجمع بينهما وتأخذ بأطرافهما وأوساطهما وتزيد بأبكار طرائف وبواكير لطائف عليهما. وتستفيد فضل تنقيح وتهذيب وتشذيب. ولتشرفها بخزانة الأمير عبيد الله بن أحمد بن الميكالي".

وأدلي بدلوي هنا فأقول - مؤكدا ما ذهب إليه بعض الأساتذة الأفاضل -: إن "الثعالبي" نهض بإهداء كتابه "ثمار القلوب في المضاف

والمنسوب" إلى "الميكالي - كما ذكر هو في مقدمة هذا الكتاب. وكما ذكرت د. ابتسام وغيرها- ومن يتدبر قائمة مؤلفات الثعالبي يستطيع أن يضم إلى ما ذكرته الدكتورة الفاضلة كتابه المخطوط نفحة المجلوب في ثمار القلوب في المضاف والمنسوب إلى كتابه المطبوع تحت عنوان "ثمار القلوب في المضاف والمنسوب . وهذا المخطوط هو مختصر لكتابه المطبوع. ويوجد في جامعة كمبردج برقم(١١٩٢) . وبالمدينة المنورة برقم (٢٥٦٨). معنى ذلك أن "الثعالبي" كان يعمد إلى اختصار مؤلفاته الموسعة. وسلخ بعضها الأخر منها. فقد سلخ المادة العلمية في يتيمة الدهر - كما أوضحنا آنفاً- . ووزعها على عدد غير قليل من مؤلفاته ولا سيما "سحر البلاغة وسر البراعة . واختصر بعض مؤلفاته لأمر أو لآخر من هذه المؤلفات الضخمة -كما رأينا- "ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ومنها "المنتخل الذي ألفه وأهداه إلى الميكالي . واختصره في كتابه الموسوم بـ: "المنتحل . والذي ظهر إلى الوجود قبل الأصل المختصر منه.

إن تشابة كتب "الثعالبي" ببعضها في الشكل والمضمون يفضي بنا - كما ذهب إليه بعض الباحثين - إلى أنه كان يسلخ بعضها من بعض. ويضيف إلى المادة المسلوخة بعض الأبواب أو الفصول القليلة ليغير شكلها. ويضعها تحت عنوان مقارب لعنوان الكتاب المسلوخ منه أحياناً. ثم يبادر - كما أشرنا إليه في النص السابق- إلى إهدائها لأحد الوجهاء في عصره بعد أن سبق له أن أهداها إلى غيره. وكل هذا يقرر - بلا شك- قيامه بتأليف "المنتخل". وإهدائه "للميكالي". ثم سلخ المنتحل من "المنتخل". فعثرنا على الكتابين في عصرنا. ليواجهنا هذا الإشكال.

(٥)- ومعروف أيضا أن "الميكالي" كان أميراً. وفد عليه كثير من الشعراء لمدحه. ونيل جوائزه. من هؤلاء الشعراء "الثعالبي". وله فيه قصائد جهيرة كما أفصح عن ذلك كثير من الأدباء. وخدم خزانة كتبه بأن أهدى له ستة من مؤلفاته. كما أفصحت د. ابتسام مرهون الصفار". وهي ممن تخصصوا في دراسة أدب "الثعالبي" في كتابها "رؤية معاصرة في التحقيق والنقد ص ٤٦". فهل يعقل بعد هذا أن يقدم "الثعالبي" على أحد المؤلفات القليلة لهذا الأمير ذي المنزلة العظيمة والخطيرة من نفسه. ويقوم باختصاره.ثم نسبته لنفسه دون أن ينوه في صدر مختصره بكتاب هذا الأمير في ظل حياته؟ وكيف نفسر إهداء "الثعالبي" - والحالة هذه - بعض مؤلفاته لهذا الأمير؟. أحسب أن الأمر واضح. وأن تأليف الثعالبي لكتاب المنتخل بات أمراً حقيقياً.

وقصارى القول وحماداه في هذه القضية أن كتاب "المنتخل- بالخاء المعجمة هو "للثعالبي". ألفه وأهداه "للميكالي". ثم انعطف عليه بالاختصار. فاختصره في كتاب آخر. هو "المنتحل". وليس هذا الاختصار غريباً على "الثعالبي"- وقد أوضحنا ذلك في هذا البحث. فقد اختصر كتاباً آخر هو "ثمار القلوب في المضاف والمنسوب" الذي أهداه أيضا إلى "الميكالي" في كتاب سماه "نفحه المجلوب من ثمار القلوب في المضاف والمنسوب". إذن فالكتابان: المنتخل". و" المنتحل "هما " للثعالبي". وليس للميكالي فيهما شيء يذكر! والقول بأن كتاب "المنتخل هو "المنتحل" قول غير علمي. وكذلك القول بأن "المنتخل " من تأليف "الميكالي " قول مخالف للحقيقة كما ثبت بالأدلة الناصعة. والبراهين الواضحة. كما أن القول: بأن "الثعالبي" أهدى كتاب المنتحل - على ما ذهب إليه أحمد أبوعلي - "للميكالي" قول غير علمي أيضا. لأنه إذا كان الأمر كذلك فمم اختصر "الثعالبي" هذا

كتاب «المنتخل» هو «للثعالبي» وليس «للميكالي»

"المنتحل"؟. وممَ انتخل "المنتخل"؟ القول العلمي لا يكمن إلا في انتخال "الثعالبي" "المنتخل" من فرائد الشعر العربي وقلائد. وتقديمه هدية منه "للميكالي". ثم قيامه بانتحال المنتحل من "المنتخل".

أما كيف نسب كتاب المنتخل "للميكالي" فهذا ما لم نستطع القطع به جملة واحدة. بيد أننا نفترض بعض الافتراضات. ربما تكون أقرب للحقيقة والواقع. وهذه الافتراضات هي:

١. ربما يكون الأمير أعجب به فادعاه لنفسه فخجل "الثعالبي" فوافق "الثعالبي" دون تصري بأن الكتاب من تأليفه. ثم عاد وانتحله في "المنتحل" حتى لا يفقد الكتاب جملة واحدة.

٢. وربما يكون تأليف "الثعالبي" "للمنتخل" قد تم بناءً على تكليف من الأمير "الميكالي" لإدراكه سعة علم "الثعالبي" وجودة اختياره. فتم الاختيار له برسمه، ومن ثم نسب الكتاب إليه.

٣. وربما تكون نسبة الكتاب "للميكالي" ناشئة عن وهم النساخ بداية من القرن السابع. كان سببه دخول اللام الجارة على اسم "الميكالي" على ما يتضح من العنوان المثبت في نسخة الأصل "أدبيات المنتخب للميكالي". فيلاحظ أن العنوان فيه كلمة "المنتخب"، وليس "المنتخل"، وفيه الجار والمجرور "للميكالي". وأرجح أن المقصود من العنوان هو: "الأدبيات التي انتخبت للميكالي".

وبعد، فلا ريب أنه قد اتضحت رؤيتنا في النصل بين حقيقة "المنتخل المنشور للميكالي" - على سبيل الخطأ - والمنتحل المنشور "للثعالبي"، ومؤلفهما، تلك الرؤية التي تتلخص في أن الكتاب - الثاني ما هو إلا مختصر من الكتاب الأول، وهذا ما قال به العلماء، وأن الكتاب الأول "للثعالبي" وليس "للميكالي". وهذا لم يقل به أحد من العلماء لذا فالكتابان "للثعالبي".

هذا ما أردت التنبيه عليه. وحاولت إثبات كلمة الفصل في اللبس الحاصل في هذا الشأن. فإن كنت أصبت فيما حاولت فبها ونعمت. وإلا فحسبي أنني اجتهدت، وما قصرت، وأخلصت فيما قصدت وهدفت. هذا وبالله التوفيق، ومنه وحده العون والسداد. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

المصادر

١. آداب الملوك: لأبي منصور للثعالبي (ت٤٢٩هـ): تحقيق د. جليل العطية - دار الغرب الإسلامي - بيروت ١٩٩٠م.

٢. أحسن ما سمعت: للثعالبي - دار الطلائع - ١٩٩٢م.

٣. الإعجاز والإيجاز: للثعالبي - بعناية: اسكندر آصاف - دار صعب - بيروت - د.ت.

٤. تاريخ الأدب العربي: لبروكلمان - ج ٥ - ترجمة د: رمضان عبد التواب - دار المعارف - مصر - ١٩٨٣م.

٥. تاريخ التراث العربي: لفؤاد سزكين. مج ٢ - ج ٤ (الشعر). نقله إلى العربية د. عرفة مصطفى. راجعه د. سعيد عبد الرحيم. مطبعة بهمن. قم. إيران ط ٢. ١٩٨٣م.

٦. تتمة يتيمة الدهر: للثعالبي - نشرها محمد مفيد قميحة - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٩٨٣ م.

٧. ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: للثعالبي - تحقيق: أبي الفضل إبراهيم. دار المعارف. ١٩٨٥م.

٨. خاص الخاص: للثعالبي. قدم له. حسن الأمين. دار مكتبة الحياة - بيروت - لبنان. د.ت.

٩. درج الغرر ودرج الدرر: للمطوعي (ت ٤٤٠هـ) - تحقيق د. جليل العطية - عالم الكتب - بيروت - ط١، ١٩٨٦ م.

١٠. دمية القصر وعصرة أهل العصر: للباخرزي (ت٤٦٧هـ) - تحقيق: عبد الفتاح الحلو - القاهرة - ١٩٧١م.

١١. ديوان أبي الفضل الميكالي (ت ٤٣٦هـ): تحقيق: جليل العطية. عالم الكتب. بيروت ط ١. ١٩٨٥م.

١٢. رؤية معاصرة في التحقيق والنقد: ابتسام مرهون الصفار - دار صنعاء - عمان - الأردن - ط ١ - ٢٠٠٨م.

١٣. زهر الآداب وثمر الألباب: للحصري القيرواني (ت ٤٥٣هـ): تحقيق علي محمد البجاوي - دار الفكر العربي.

١٤. سحر البلاغة وسر البراعة: للثعالبي - صححه: عبد السلام الحوفي - دار الكتب العلمية - بيروت.

١٥. شعر القاضي التنوخي (ت ٣٤٢هـ) - ضمن مجلة المورد - مج ١٣ - ع ١ - ١٩٨٤م.

١٦. علم الاكتناد العربي الإسلامي: لقاسم السامرائي - مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية - ط١ - ٢٠٠١م.

١٧. فوات الوفيات والذيل عليها: لابن شاكر الكتبي (ت٧٦٤هـ) تحقيق: إحسان عباس - دار صادر - بيروت د. ت.

١٨. الكناية والتعريض: للثعالبي - تحقيق: أسامة البحيري - مكتبة الخانجي - ط١. ١٩٩٧م.

١٩. مجلة العرب - ج ١. ٢ - السنة ٣٢ - ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٢٠. الأمل في المنتخب من المنتخل: لابن الظهير الإربلي (ت ٦٧٧هـ) - دار الكتب المصرية برقم ٢٠٧ أدب تيمور.

٢١. معجم الأدباء: لياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ): تحقيق د. إحسان عباس - دار الغرب الإسلامي - بيروت.

٢٢. معجم المطبوعات العربية والمعربة حتى سنة ١٩١٩: جمعه ورتبه: يوسف إلياس سركيس. منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي.

٢٣. من غاب عنه المطرب: للثعالبي - تحقيق: يونس السامرائي - عالم الكتب - ط ١ - ١٩٨٧.

٢٤. مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين: د. رمضان عبد التواب - مكتبة الخانجي - ط ١ - ١٩٨٥م.

٢٥. المنتحل: للثعالبي - صححه: أحمد أبي علي - مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة.

٢٦. المنتخل: المنسوب خطأ لأبي الفضل الميكالي - تحقيق: يحيى الجبوري - دار الغرب الإسلامي - ط١. ٢٠٠٠م.

٢٧. النثر الفني في القرن الرابع الهجري: د. زكي مبارك - دار الجيل - بيروت ١٩٧٥ م.

٢٨. نثر النظم وحل العقد - للثعالبي - دار الرائد العربي - بيروت - لبنان - ١٩٨٣ م.

٢٩. هدية العارفين: لإسماعيل باشا البغدادي - اسطنبول ١٤٠١هـ - ١٩٨١ م.

٣٠. الوافي بالوفيات: للصفدي (ت ٧٦٤هـ): تحقيق لفيف من المحققين - فيسبادن - طبع على سنوات متعددة.

٣١. وفيات الأعيان: لابن خلكان (ت ٦٨١هـ) - تحقيق: إحسان عباس - دار الثقافة - بيروت.

٣٢. يتيمة الدهر: للثعالبي. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. المكتبة التجارية. مصر. ط٢. ١٩٥٦م.

كتاب «المنتخل» هو «للثعالبي» وليس «للميكالي»

هوامش على رسائل الجاحظ
«في التأليف والمؤلفين»

رشأ الخطيب
أبو ظبي - الإمارات العربية المتحدة

تمهيد:

إن رجلا مثل الجاحظ عاش حياته وآنها بين مجلدات الكتب، وترك للأجيال من بعده مؤلفات عديدة في معارف وشؤون شتى، لحقيق أن نجد بين سطوره التي كَتَبَ، آراء خاصة في موضوع التأليف والمؤلفين والعلم والعلماء.

وإذا كان الجاحظ قد أخذت منه الكتب كلَّ مأخذ منذ نعومة أظفاره: فانكبّ على قراءتها وتوفّر على مطالعة كل جديد منها يصل إلى يديه. فإنه على طول مدارستها قد نَمَتْ لديه نظراتٌ خاصة في تأليف الكتب. وفي المؤلفين ومناهجهم في بنائها وإحكامها.

وسنحاول في الأوراق التالية أن ننظر في "رسائل الجاحظ". وقد اخترنا الرسائل التي جمعها حسن السندوبي ونشرها سنة ١٩٢٣، والرسائل التي جمعها وحققها عبد السلام هارون، ونشرها سنة ١٩٦٤، وكتاب "العثمانية" بتحقيقه وقد نُشر سنة١٩٩١. وسنعمل على استخلاص ما أمكن من آراء الجاحظ في التأليف والمؤلفين، وتصنيفها في خطة تنتظمها المحاورُ الآتية:

- أهمية العلم وتأليف الكتب
- المؤلفون والعلماء
- منهج التأليف
- مصادر الخبر وتوثيقه

أهمية العلم وتأليف الكتب

كان الجاحظ بما أوتي من كثرة المطالعة وإدامة النظر في الكتب وبما تهيّأ لعصره من الانفتاح الثقافي والرقي الحضاري، قد وعى أهمية العلم والتأليف ودورهما في بناء الأمم وازدهار علومها. فقد كانت القراءة همَّه الأول يقضي فيها جلَّ وقته هوايةً أو معاشاً. وهو يحدّثنا عن نفسه قائلا:

.. ولم أزل - أبقاك الله - بالموضع الذي قد عرفتَ من جمع الكتب ودراستها والنظر فيها. ومعلوم أنّ طول دراستها إنما هو تصفّح عقول العالمين. والعلم بأخلاق النبيين وذوي الحكمة من الماضين والباقين من جميع الأمم"[11].

ويلتفت الجاحظ إلى أن العلوم متنوعة مختلفة لاختلاف الناس في طبائعهم وأذواقهم إذ "إن لكل نوع من العلم أهلاً يتصدونه ويؤثرونه. وأصناف العلم لا تحصى. منها الجزل ومنها السخيف"[12]. ويرى الجاحظ أنّ في تأليف العلوم وجمع المعارف الإنسانية حكمةً وفائدة للبشرية. وأن لها أسبابا تدعو إلى جمعها: فإن "لكل شيء من العلم ونوع من الحكمة وصنف من الأدب. سببٌ يدعو إلى تأليف ما كان فيه مشتتا ومعنى يحدو على جمع ما كان فيه مفرّقا. ومتى أغفل حمَلةُ الأدب وأهلُ المعرفة تمييز الأخبار واستنباط الآثار وضم كل جوهر نفيس إلى شكله. وتأليف كل نادرٍ من الحكمة إلى مثله. بطلت الحكمة وضاع العلم وأُميتَ الأدبُ ودرَس مستور كل نادر. ولولا تقييدُ العلماء خواطرَهم على الدهر. ونقرهم آراء الأوائل في الصخر. لبطل أول العلم وضاع آخره. ولذلك قيل: لا يزال الناس بخير ما بقي الأول يتعلم منه الآخر"[13].

ومن هذه الأسباب والفوائد أن تأليفَ العلوم وجمع المعارف وصنوف الآداب- فيه تراكم المعرفة الإنسانية على مرّ العصور: وهو سُنّة في حياة البشر: لأن الإنسان مهما أوتي من الحكمة والذكاء محتاجٌ أن يبني على ما وصل إليه السابقون. وما انتهى إلى علمهم من معارف وعلوم. وإلا لكانت البشرية لا تزال تراوح مكانها لا تتقدم خطوة في عمارة الأرض: ولو أن الناس تُركوا وقدْر قوى غرائزهم ولم يهاجوا بالحاجة على طلب مصلحتهم والتفكر في معاشهم وعواقب أمورهم. وأُلجئوا إلى قدر خواطرهم التي تولّدها مباشرةُ حواسهم. دون أن يُسمِعهم الله خواطرَ الأولين وأدب السلف المتقدمين وكتب رب العالمين. لما أدركوا من العلم إلا اليسير. ولما ميّزوا من الأمور إلا القليل"[14].

فلو تُرك الإنسان إلى قدراته العقلية وفطرته فقط ما أفاده ذلك كثيرا في عمارة الأرض: لأنه منقطع عن أسباب الحضارة ومنجزاتها عند مَنْ سبق. ولو تُرك الناس لأهوائهم وحِيلَ بينهم وبين علوم السابقين وبين ما جاء به المرسلون ومَنْ يحملون أخبار الأمم الماضية:لم يكن لهم أن يعمروا الأرض. ويأخذوا بأسباب العيش والتدبير عليها. وفي هذا يقول الجاحظ: "وإنما أطنبتُ لك في تفسير هذه الأحوال التي عليها الوجود والعبرة. لتعلم أن الناس لو تركوا شهواتهم وخلوا أهواءهم وليس معهم من عقولهم إلا حصة الغريزة ونصيب التركيب. ثم أخلوا من المرشدين والمؤدبين والمعترضين بين النفوس وأهوائها وبين الطبائع وغلبتها من الأنبياء وخلفائهم. لم يكن في قوى عقولهم ما يداوون به من جميع مصالحهم"[15].

ولهذا فإنّ الجاحظ يجلّ أعمال السابقين ويقدّر أفكار الأوائل بما هي سببٌ بيننا وبين ما انقطع عنا عيانُه مما فات. وما انقطع عنا خبرُه مما مضى: "ولولا ما رسمتْ لنا الأوائل في كتبها. وخلّفت لنا من عجيب حكمها. ودوّنت من أنواع سِيَرها. حتى شاهدنا ما غاب عنا وفتحنا المستغلق علينا. فجمعنا إلى قليلنا كثيرَهم. وأدركنا ما لم نكن

ندركه إلا بهم -لقد خسّ حظّنا في الحكمة وانقطع سبيلنا إلى المعرفة. لو ألجئنا إلى قدر قوتنا ومبلغ خواطرنا ومنتهى تجاربنا بما أدركته حواسنا وشاهدته نفوسنا، لقلّتْ المعرفة وقصرت الهمة وضعفت المنة، فاعتقم الرأي ومات الخاطر وتبلّد العقل"[٦].

كما أن التأليف مدعاة إلى جمع ما تفرق من العلم وتشتّت. وفي هذا ميزة وفائدة تعود على القراء بتيسير الحفظ لما اتفقت أصولُه وتقاربت، فالجاحظ في رسالته في "حجج النبوة" يرى أن جمع تلك الحجج فيه فائدة يقول عنها: "والذي دعانا إلى تأليف حجج الرسول ونظمها وجمع جوهرها وتدوينها، أنها متى كانت مجموعة منظومة نَشِطَ لحفظها وتفهمها من كان عسى لا ينشط لجمعها، ولا يقدر على نظمها وجمع متفرقها... بل لا نشكُّ في أنها إذا كانت مجموعة محبَّرة مستقصاة مفصلة إنها ستزيد في بصيرة العالم ويجمع الكل لمن كان لا يعرف البعض"[٧].

وعلى ذلك ينصح الجاحظ لأهل زمانه أن يكون سبيلهم فيمن بعدهم كسبيل من قبلهم فيهم "فينبغي أن يكون سبيلنا فيمن بعدنا سبيل مَنْ قبلنا فينا . مع أنّا قد وجدْنا من العبرة أكثر مما وجدوا، كما أن مَن بعدنا يجد من العبرة أكثر مما وجدنا"[٨]. وهو هنا يشير إلى تراكم المعارف واتساع العلوم على مرِّ الزمان من جيل إلى جيل: فاللاحق من الأجيال يعرف من المعلومات أكثر من السابق: لغزارتها وتنوعها عما كان لدى الأمم السابقة، وتضاعفها بسرعة شديدة في ظل نمو وسائل النشر والاتصال الحديثة.

ولكنْ مع ذلك فإن الاطلاع على آثار السابقين يساعد على الإبداع: "لأن كثرة السماع للأخبار العجيبة والمعاني الغريبة مشحذةٌ للأذهان، ومادة للقلوب، وسبب للتفكير، وعلّة للتنقير عن الأمور. وأكثر الناس سماعا أكثرهم خواطر، وأكثرهم خواطر أكثرهم تفكرا. وأكثرهم تفكرا أكثرهم علما. وأكثرهم علما أرجحهم عملا...وعلى قدر شدة الحاجة تكون الحركة وعلى ضعف الحاجة يكون السكون"[٩]، فالاطلاع على الآثار وسماع الأخبار يشحذ الخيال ويعين على الإبداع.

ويشير الجاحظ هنا إلى أن "الحاجة هي أُمُّ الاختراع" وعلى قدر الحاجات ينشط الذهن والخيال، فيتجلى التقدم الحضاري للأمم.

ومع ما للعلم من الأهمية العظيمة في نفس الجاحظ إلا أنه ينبغي للعالم والمتعلم أن يأخذ نفسه فيه برفق وبالتدريج: لأن "العلم وإنْ كان حياة العقل كما أنّ العقل حياة الروح، والروح حياة البدن. فإنّ حُكْمَه حكمُ الماء وجميع الغذاء، الذي إذا فضل عن مقدار الحاجة عاد ذلك ضررا. وإنما يسوغ الشراب ويُستمرَأ الطعام الأول فالأول، فكذلك العلم يجري مجراه ويذهب مذهبه. ومن شأن النفوس الملالة لِما طال عليها وكثُر عندها"[١٠].

المؤلفون والعلماء

يبدو أن تجربة الجاحظ في التعلم والاطلاع على الآثار الكثيرة في العلوم المتنوعة، قد جعلته صاحب آراء خاصة في المؤلفين والشروط التي ينبغي أن تتوافر فيهم ليكونوا أهلاً لتأليف جيد. وقد نقل إلينا في أثناء كتاباته بعضاً من مشكلات

مهنة التأليف والصعوبات التي تواجه المؤلفين. بما يجعلنا نشعر أنها مشكلات عامة في كل زمان ومكان. تدور في معظمها على حقوق الملكية الفكرية والأصالة ومكانة العلماء عامة.

لكننا نلتفت أولا إلى أن الجاحظ يرى في العلماء أهميةً توازي أهمية العلم نفسه -كالذي وقفنا عليه في الفقرات السابقة-: لأن العلماء هم سبب انتقال العلوم والمعارف جيلا فجيلا: فإنه لم يخلُ زمانٌ من الأزمان فيما مضى من القرون الذاهبة. إلا وفيه علماء محقِّون قد روَّوْا كتب من تقدمهم ودارسوا أهلها. ومارسوا الموافقين لهم وعانوا المخالفين عليهم. فمخضوا الحكمة وعجموا عيدانها. ووقفوا على حدود العلوم..."[٩٩]

وعلى العلماء وأهل التأليف تقع مسؤولية تمييز الآثار وتصحيح الأخبار. وهي المهمة الأولى التي يرى الجاحظ أنهم يجب أن يضطلعوا بها. فـ"العجب من ترك الفقهاء تمييز الآثار وترك المتكلمين القول في تصحيح الأخبار: وبالأخبار يعرف الناس النبي من المتنبي والصادق من الكاذب"[١٠٠].

أما الشروط التي ينبغي أنْ تتوافر في العلماء والمؤلفين وأهل العلوم برأي الجاحظ فمن بينها:

١. الرغبة في العلم والشهوة له :

فـ"ليس من نَظَرَ في العلم على الرغبة والشهوة له كمَنْ نظر فيه على المكسبة به والهرب إليه. لأنّ النفس لا تُسْمِح بكل قواها إلا مع النشاط والشهوة. وهي في ذلك لنفسها مستكرهة لها ومكابدة. والسآمة إلى من هذه صفته أقرب. وله ألزم"[١٠١].

٢. المعرفة الواسعة بالعلوم : أصولها وفروعها ومناهج بحثها :

فـ"إنك لا تعرف الأمور ما لم تعرف أشباهها. ولا عواقبها ما لم تعرف أقدارها. ولن يعرف الحق من يجهل الباطل. ولا يعرف الخطأ من يجهل الصواب. ولا يعرف الموارد من يجهل المصادر"[١٠٢]. وأول مراتب العالم أن يعرف المعارضة والمقابلة والمنقوص والمتساوي"[١٠٣].

٣. التخصص الدقيق :

فالمعرفة الواسعة في العلوم الأخرى لا تغني حاجة العالِم إلى التخصص: ولو برز عالم على جادة منهج وقارعة طريق فنازع في النحو. واحتج في العروض وخاض في الفتيا. وذكر النجوم والحساب والطب والهندسة وأبواب الصناعات. لم يعرض له ولم يفاتحه إلا أهل هذه الطبقات"[١٠٤].

٤. الحياد والموضوعية العلمية :

يريد الجاحظ من المؤلف أن يستقصي آراء خصومه بكل حياد وموضوعية " حتى يكون الخيار في يد الناظر المتصنح لمعانيه [أي الكتاب] المقلِّب لوجوهه. والمفكر في أبوابه والمقابل بين أوله وآخره. فلا نكون نحن انتحلنا شيئا دون شيء. وتقلَّدنا تفضيل بعض على بعض. بل لعلنا ألا نخبر عن خاصة ما عندنا بحرف واحد. فإذا دبرنا كتابنا هذا التدبير. وكان موضوعه على هذه الصفة. كان أبعد له من مذاهب الجدال والمراء واستعمال الهوى"[١٠٥].

ومع ما للعلماء من أهمية إلا أن الأمر لا يخلو أن يكون بينهم من التباغض والتحاسد. كشأن غيرهم من أهل الصناعات المتشابهة فـ"قديما

هوامش على رسائل الجاحظ "في التأليف والمؤلفين"

كان يقال: لا يزال الناس بخير ما تفاوتوا. فإذا تقاربوا هلكوا. وكان يُقال: ثلاثة توجب الضغن وتُكثر الغل: المجاورة في المنزل. والاستواء في النسب. والمشاكلة في الصناعة"[١٨].

وعلى ذلك قامت على العلماء فئة من المدّعين نازعتهم العلم وانتحلت أسبابه. وهم فئة لا يخلو منها زمان " وقضت لهم [أي العلماء] المحنة بالذكاء والفطنة. فوضعوا الكتب في ضروب العلوم وفنون الآداب لأهل زمانهم والأخلاف من بعدهم ...ولهم حسّاد معارضون من أهل زمانهم في تلك العلوم منتحلة يدعون مثل دعاويهم قد وسموا أنفسهم بسمات الباطل وتسمّوا بأسماء العلم على المجاز من غير حقيقة...فاستمالوا بهذه الحيلة قلوب ضعفاء العامة وجهلاء الملوك...ولم يخل زمن من الأزمان من هذه الطبقة ولا يخلو"[١٩].

أما عن تجربته الخاصة في التأليف فهي غريبة على أخلاق العلم ونزاهة العلماء؛ إذ كان يؤلف الكتب بنفسه وينحلها غيره: لتشيع وتشتهر بين الناس! ويحدثنا عن ذلك بالتفصيل بما يشبه الاعتراف من غير خجل من تبعات أو مسؤولية: ولكنه في هذا كأنما يشكو سوء أحوال المؤلفين والكتّاب في ذلك الزمان. ويعرض مشكلات تواجههم لا نعدمها حتى وقتنا. يقول في هذا مفصلًا ومعجبا بنفسه وبمقدرته المتميزة في مجاراة أكبر الكتّاب المعروفين في زمانه. يقول: "..وإني ربما ألّفت الكتاب المحكم المتقن في الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطَب والخراج والأحكام وسائر فنون الحكمة وأنسبه إلى نفسي فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم. بالحسد المركب فيهم وهم يعرفون براعته ونصاعته... وربما ألّفت الكتاب الذي هو دونه في معانيه وألفاظه فأترجمه باسم غيري وأحيله على من تقدمني عصره مثل ابن المقفع والخليل وسلم صاحب بيت الحكمة ويحيى بن خالد والعتابي. ومن شبه هؤلاء من مؤلفي الكتب فيأتيني أولئك القوم بأعيانهم الطاعنون على الكتاب الذي كان أحكم من هذا الكتاب. لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته عليّ ويكتبونه بخطوطهم ويصيّرونه إماما يقتدون به ويتدارسونه بينهم ...لأنه لم يترجم باسمي ولم ينسب إلى تأليفي"[٢٠].

ويذكر في موضع آخر أن كتبه التي يؤلفها بنفسه قد ينتحلها غيره ويسلبونه حقه في أنها له. فيقول: "ولستُ آمن - جعلني الله فداك- أن تكون هذه الكتب التي أعنى بتأليفها وأتأنق في ترصيفها يتولى عرضها عليك من قد لبس لباس الزور في انتحال وضع مثلها . ونسّب نفسه إلى القوة على نظائرها والمعرفة بما يقاربها إن لم يكن أخاها فابن عمها وتشبع بما لم يطعمه الله منها"[٢١].

وتُظهر لنا تجربته الشخصية في التأليف تناقضا في الحكم عليه: فهو يبدو أحيانا متواضعا وأحيانا أخرى معتدا بنفسه وبما كتب من تأليف. يقول مثلا معتدا بما ألّف في أحد كتبه: 'هذا كتاب أطال الله بقاءك نبيل بارع. فُصل فيه بين الحسد والعداوة ولم يسبقني إليه أحد. ولا إلى كتاب فضل الوعد الذي تقدم هذا. ولا إلى كتاب أخلاق الوزراء الذي تقدم كتاب فضل الوعد : وإنما نبلت هذه الكتب وحسنت وبرعت وبزّت غيرها لمشاكلتها

شرف الأشراف بما فيها من الأخبار الأنيقة الغريبة والآثار الحسنة اللطيفة.. "[٣١].

ويقول في موضع آخر: "فإن أردتَ أن تعرف حق هذه المسائل وباطلها وما فيها من خرافة وما فيها من محال وما فيها من صحيح وما فيها من فاسد فألزِمْ نفسك قراءة كتبي ولزوم بابي "[٣٢].

ويقول: " وقد كتبتُ مدَّ الله في عمرك في الرد على المشبهة كتابا لا يرتفع عنه الحاذق المستغني ولا يرتفع عن الريّض المبتدئ "[٣٤].

ويقول: "وقد تعجّب ناس من إطالتي ومن كثرة مسألتي وتعجُّبي من تعجبهم أشد ...ولو رغبوا في العلم رغبتي ورأوا فيه مثل رأيي ..لاستقلّوا من ذلك ما استكثروا ولاستقصروا منه ما استطالوا"[٣٥].

ولكنه مع هذا الاعتداد بالنفس والثقة بمقدرته على الإقناع في تأليفه، يُظهر تواضعه ويعتذر عما قد يقصّر فيه بقوله في مواضع أخر: "وقد قلنا في مناقب جميع الأصناف بجمل ما انتهى إلينا وبلغه علمُنا. فإن وقع ذلك بالموافقة فبتوفيق الله وصنعه. وإن قصر دون ذلك فالذي قصر بنا نقصانُ علمنا وقلة حفظنا وسماعنا ...وبين التقصير من جهة والتفريط والتضييع، وبين التقصير من جهة العجز وضعف العزم، فرق "[٣٦].

ومع ما للعلماء من فضل وأهمية في كل زمان إلا أن الكتاب برأي الجاحظ يفضُل المؤلِّفَ ويرجح عليه لأسباب منها: "أن الكتاب يُقرأ بكل مكان وفي كل زمان وعلى تفاوت الأعصار، وبُعد ما بين الأمصار. وذلك أمر يستحيل على الواضع ولا يطمع فيه مع التنازع. وقد يذهب العالم وتبقى كتبه. ويفنى ويبقى أثره"[٣٧].

ومع وجود مشكلات المؤلفين وصعوبات التأليف إلا أنه "لم يُصَن العلمُ بمثل بذله. ويُستَبْقَ بمثل نشره"[٣٨]. وهي عودة لتأكيد أهمية العلم ونشره في حياة الناس.

منهج التأليف

لقد اعتدنا من الجاحظ أن يفسر لنا في كتاباته طريقته ومنهجه فيها: ومع ما قد يبدو من اضطراب يسود تلك الكتابات في بعض الأحيان نتيجة الاستطراد وهي السمة البارزة في أسلوب الجاحظ. إلا أنه يفاجئنا بأن ذلك مقصود منه. وهو عن وعي وهدف يرمي إليه.

وقد وقعتُ في رسائله على بعض آرائه التي قد تضيء جانبا من منهجه في التأليف. ويمكن تناولها من جهة أنها نصائح موجهة للكتّاب والمؤلفين. ومن جهة أنها إضاءات ساطعة تجلّي كثيرا مما كتب. وتسوّغ ما قد يستوقفنا من ملاحظات منهجية على أسلوبه.

وقد أجملنا الحديث عنها في الأمور التالية:

١- انتخاب مادة الكتاب وأخباره:

أي الاكتفاء بالظواهر الكلية في الموضوع لأن الاستقصاء غير ممكن: ذلك أن هدف الاستقصاء الذي يطلبه المؤلفون في كتبهم هو هدف عسير جدا إن لم يكن محالا. والجاحظ يرى أن أفضل الطرق في تدبير الكتب أن يحاول واضعوها انتخاب الظواهر الكلية لا البحث في الجزئيات والتفصيلات الدقيقة التي تتعذر الإحاطة بها: لأن في استقصائها إطالة. الكتابُ في غنى عنها، والمتلقي في زهد بها. فهو يقول مثلا في رسالته في الحنين إلى الأوطان التي جمع فيها المأثور عن

ذلك الموضوع ولو جمعنا أخبار العرب وأشعارها في هذا المعنى لطال اقتصاصه. ولكن توخينا تدوين أحسن ما سنح من أخبارهم وأشعارهم. وبالله التوفيق"[29].

وقوله في ختام كتاب العثمانية "وإنما ملاك وضع الكتاب إحكام أصله وألا يشذّ عنه شيء من أركانه. فأما استقصاؤه حتى لا يجري بين الخصمين منه إلا شيء وضع بعينه فهذا لا يمكن الواضع ولا يحتمل الكتاب . ولو أمكن الواضع واحتمله الكتاب لكان طوله قاطعا لنشاط القارئ ومجلبة لنعاس المستمع"[30].

وقوله أيضا: "ولو حكينا كل ما في هذا الجنس من الأقوال وما يدخله من المقايسات والأشكال لطال الكتاب، ولملّه الناظر المعجاب. فاكتفينا بالجزء من الكتاب، والبعض دون التمام. وعلمنا أن الناظر فيه إنْ كان فطناً أقنعه القليل فقضى. وإن كان بليدا جهودا لم يزده الإكثار إلا عِيّاً. ومن العلم بما له قصّدنا. إلا بُعداً. وبالله الكفاية والتوفيق"[31].

وهو في رؤيته لانتخاب الأخبار والمادة المنتقاة منها يضع المتلقّي نصب عينيه ويفكر فيه على الدوام: فانتخاب المادة والاقتصار على الأصول دون الخوض في الجزئيات والتفاصيل التي لا داعي لها إنما هو متعلق بالأمر الثاني من منهجه في التأليف ألا وهو : تنشيط القارئ ودفع الملل عنه.

وذلك لا ينفي أنه يرى في انتخاب المادة والأخبار فائدة تعين العالم على التركيز وتمييز جيد الأخبار من رديئها: "ثم إن من أفضل أسبابه [أي العلم] تخليص أخلاطه وتمييز أجناسه والمعرفة بأقداره حتى تعطي كل معنى حقه من التقريب والرفعة. وقسطه من الإبعاد والضعة. وحتى لا تتشاغل إلا بالسمين والثمين والخطير النفيس... فإنك متى كنت كذلك لم تميز فضل ما بين النظرين ولا تلقي إلا الغث الخسيس والحقير السخيف"[32].

٢- تنشيط القارئ ودفع الملل عنه

إن للجاحظ وجهة نظره الخاصة فيما يتعلق بالكتابة وتأليف الكلام. وهو مَنْ هو قارئا ناسخا في دكاكين الورّاقين في عهد صباه. ثم مؤلفا وكاتبا في كهولته. وهي وجهة نظر مستفادة من تجربته العملية: إذ كأني به حين يخطُّ السطور ويؤلّف الكلام لم ينفصل عن علاقته الأولى بالكتاب عندما كان قارئا نَهِماً ومطالِعاً ذكياً لا يفلت كتابٌ من بين يديه حتى يأتي عليه قراءة واستيعابا.

فكان حين يكتب يخلط الجدّ بالهزْل. ويحذّر من طول الكتاب وإنّ حسُن. وله في هذا آراء تستحق التوقف: لأنها من واقع تجربته الشخصية: قارئا ومؤلّفا يمثل الدورَيْن معا. وتكمن في تلك التجربة أبعاد إنسانية تصلح لزماننا كما كانت تصلح لزمانه. إذ يرى أنه "ليس ينبغي لكتب الآداب والرياضات أن يحمل أصحابُها على الجد الصرف. وعلى العقل المحض. وعلى الحق المر. وعلى المعاني الصعبة التي تستكد النفوس وتستفرغ المجهود: وللصبر غاية وللاحتمال نهاية. ولا بأس أن يكون الكتاب موشحا ببعض الهزل. على أن الكتاب إذا كثر هزله سخف. كما أنه إذا كثر

جده ثقل. ولا بد في الكتاب من أن يكون فيه بعض ما ينشط القارئ وينفي النعاس عن المستمع [٣٣].

عبّر الجاحظ عن هذا الرأي في كثير من كتاباته ورسائله صراحة في سياق الحديث عن منهج تأليفه إياها. يقول مثلا في رسالة "الشارب والمشروب": " وكتبت لك -أكرمك الله تعالى- في هذا الكتاب ما فيه الجزاية والكفاية. ولو بسطتُ القول لوجدتَه متسعا ولأتاك منه الدهم. وربما كان الإقلال في إيجاز أجدى من إكثار يخاف عليه الملل. فخلطت لك الكتاب على القارئ. وليزيد ذلك في نشاط المستمع. فجعلت الهزل بعد الجد جماما. والمُلَحَة بعد الحجة مستراحا" [٣٤]. وهو لا ينفك يؤكد تلك الفكرة التي يتبناها ألا وهي محاولة تنشيط القارئ على الدوام وإبعاد الملل عنه في أثناء قراءة الكتاب أو الاستماع له، بالأخبار اللطيفة والنوادر والهزل المعقول الذي يؤدي الغرض المطلوب. فهذا ضروري للكتاب حتى وإن كان حسن الموضوع جيد التبويب غزير المادة: فـ" الكلام لا ينبغي أن يكثر وإن كان حسنا كله. إذا كان السامع لا ينشط له. وجاز قدر احتماله: لأن غاية المتكلم انتفاع المستمع. وقد قال الأولون قليل الموعظة مع نشاط الموعوظ. خير من كثير وافق من الأسماع نبوة. ومن القلوب ملالة" [٣٥] "ولأنْ ينقص الكتابُ عن مقدار الحاجة. أحب إليّ [للجاحظ] من أن ينضُل عن مقدار القوة: لأن الملالة تبغِّض في الجميع وتزهد في الكل" [٣٦].

فالجاحظ لا تغيب عن باله الوظيفة الأساسية للغة وهي الوظيفة الاتصالية ما بين المرسِل والمستقبِل. وهي التي ينبغي ألا تغيب عن بال المنشئ أيا كان موضوع إنشائه ومدار تأليفه.

وعلى ذلك كان تصرّفه في كتابه النساء مثلا إذ يقول: فلما اعتزمنا على ما ابتدأنا به وجدناه قد اشتمل على أبواب يكثر عددها وتبعد غايتها فرأينا -والله الموفق- أن نقتصر منه على مالا يبلغ بالمستمع إلى السأمة. وبالمألوف إلى مجاوزة القدر" [٣٧]. وفي رسالته في مناقب الترك التي يقول عنها بعد أن أوضح أن الاستقصاء متعذر وقاطع لنشاط القارئ: ولكنّا رأينا أن القليل الذي يُجمع خيرٌ من الكثير الذي يُفرَّق ونحن نعوذ بالله من هذا المذهب ونسأله العون والتسديد" [٣٨].

٣- التدريج

ويرتبط بالأمر السابق -وهو العناية بتنشيط القارئ والمستمع- أنّ من وسائل ذلك التنشيط أن يتدرج المؤلف في الكلام على موضوعه وفي إلقاء علمه على المتلقِّين. فيبدأ بالأبسط ثم يتدرج إلى الأصعب شيئا فشيئا حتى لا يثقل العلمُ على طالبه. ويُستصعَب في عين راغبه: وذلك "لأن التدبير في وضع الكتاب والسياسة في تعليم الجهّال أن يبدأ بالأوضح فالأوضح . والأقرب فالأقرب. وبالأصول قبل الفروع . حتى يكون آخر الكتاب لآخر القياس وآخر الكلام لا يفهم - أرشدك الله تعالى- ولا يتوهم إلا على ترتيب الأمور وتقديم الأصول. فإذا رتبنا الأمور وقدمنا الأصول صارت أواخر المعاني في الفهم كأوائلها ودقيقها كجليلها" [٣٩].

ولهذا لا بد من استجماع الأصول ومن استيفاء الفروع ومن حسم كل خاطر وقمع كل ناجم وصرف كل هاجس ودفع كل شاغل. حتى تتمكن من الحجة وتتهنأ بالنعمة... ابدأ بالأخف فالأخف.

وبكل ما كان آنق في السمع وأحلى في الصدور، وبالباب الذي منه يؤتى الريِّض المتكلف والجّسور المتعجرف. وبكلما كان أكثر علما وأنفذ كيدا"[٤٠].

ويقول: "وخصلة ينبغي أن تعرفها وتتذكرها وتقف عندها، وهي أن تبدأ من العلوم بالمهم. وأن تختار من صنوفه ما أنت له أنشط. والطبيعة به أعنى: فإن القَبول على قدر النشاط. والبلوغ فيه على قدر العناية"[٤١].

٤- الاستقصاء المطلوب في الكتب

أما الاستقصاء المطلوب في الكتب فهو لا ينفصل عن موضوعية المؤلف وحياده في التأليف، فالاستقصاء الذي ينبغي ألا يغيب عن الكتاب المؤلِّف هو استقصاء حجج الخصوم وعرض آرائهم خاصة في كتب الجدل والكلام: حتى ليحسّ الناظر فيه أنه لا يحتاج للنظر في كتب الخصم نفسها. وذلك برأي الجاحظ لأن "واضع الكتاب لا يكون بين الخصوم عدلا ولأهل النظر مألفا. حتى يبلغ من شدة الاستقصاء لخصمه مثل الذي يبلغ لنفسه. حتى لو لم يقرأ القارئ العادي من كتابه إلا مقالة خصمه لَخُيِّل له أنه الذي اجتباه لنفسه واختاره لدينه"[٤٢] ولذلك ينبغي ألا يغيب عن بال المؤلف أنه "ليس يكون الكتاب تامّاً ولحاجة الناس إليه جامعا حتى تحتج لكل قول بما لا يصاب عند صاحبه ولا يبلغه أهله وحتى لا ترضى بكشف قناع الباطل دون تجريده ولا بتوهينه دون إبطاله"[٤٣].

ويرى الجاحظ فائدة في ذلك للقارئ والسامع. فالمؤلف عندما يستقصي حجج الخصوم مثلما يستقصي حجج نفسه ورأيه. إنما يتيح للقارئ الفرصة لكي يقابل بين الآراء ويفاضل بينها. ويحكّم عقله فيما يختار منها. فمثلا كان الجاحظ في كتاب "العثمانية" يقول مخاطبا القارئ: "وسنخبر عن مقالة العباسية ووجوه احتجاجهم بعد فراغنا من مقالة العثمانية بغاية ما يمكن من الاستقصاء وانصاف البعض من بعض. لتكون أنت المختار لنفسك بعقلك. والأقاويل ظاهرة مجلية لذهنك"[٤٤].

٥- منهج البحث العلمي وارتباطه بالحاجة

لقد كان الجاحظ عقلا فذّاً: إذ نقع في كتاباته على آراء عبقرية سابقة لزمانها. وها هو يهجس بما دار في بال ابن خلدون وسجّله في مقدمة تاريخه- بأنه وقع على علم جديد وهو ما سماه العمران. وكذلك دار في خاطر الجاحظ أنه التفت إلى شيء جديد وكأنما يحاول أن يؤسس نظرية للبحث والمعرفة: لأنه قد أدرك لذة العلم ومتعة المعرفة ومعنى أن تستمتع بهما. فهو يعلن أنه "وأي سرور كسرور العزّ والرياسة. واتساع المعرفة. وكثرة صواب الرأي. والنجح الذي لا سبب له. إلا حسن النظر والتقدم في التدبير. ثم العلم بالله وحده. وأنك بعرض ولايته والجاه عنده وأنه الذي يرعاك ويكفيك ..."[٤٥]. ولكن هذه المتعة وتلك اللذة لا ينالها الإنسان إلا بالعقل. وهو الأساس الأول في منهج البحث العلمي. الذي عليه قامت مناهج البحث الحديثة وقلبت نظرية المعرفة والبحث العلمي رأسا على عقب في نهضة أوروبا المعاصرة. "وهذا لا يُنال إلا بغريزة العقل. على أنّ الغريزة لا تَنال ذلك بنفسها بل بما باشرته حواسها دون النظر والتفكر والبحث والتصفح. ولن ينظر ناظر ولا يفكر مفكر دون الحاجة التي

تبعث على الفكرة وعلى طلب الحيلة... ولن يكثر النظر حتى تكثر الخواطر. ولن تكثر الخواطر حتى تكثر الحوائج. ولن تبعد الروية إلا لبُعد الغاية وشدة الحاجة"[46].

فبالعقل وحده لا يمكن إدراك تلك الأسرار بل لا بد من التجريب. وهو من أهم الأسس التي يقوم عليها البحث العلمي الحديث: فالنظر (أي الملاحظة والتفكر والبحث وتقليب الآراء) لا تكفي وحدها للوصول إلى المعرفة. ولا بد من مباشرة الحواس أي التجريب لكي نقترب من المعرفة الكاملة أو النتائج الأكثر دقة. وهذا كله يرتبط بحاجة الإنسان إلى العلوم والمعارف الجديدة التي تعينه على كسب معاشه وعمارة الأرض على أحسن ما ينبغي وبأيسر سبيل: فالحاجة أمّ الاختراع. وهي وراء التقدم المادي الذي تحرزه البشرية على مر الزمان.

أما عن رأي الجاحظ فيما وصل إليه الأوائل من النظر في العلوم وتعليل الظواهر الكونية والإنسانية. فإنه كان يرى أن ما فعلوه لا يعدو النقل والرواية. بينما هو يطلب منهم أكثر من ذلك فيما يظن أنه يعوِّل فيه على العلماء وأهل الحكمة والمعرفة. يقول في هذا: "ورأيت كثيرا من واضعي الآداب قبلي قد عهدوا إلى الغابرين بعدهم في الآداب عهودا قاربوا فيها الحق وأحسنوا فيها الدلالة. إلا أني رأيت أكثر ما رسموا من ذلك فروعا ولم يبينوا عللها. وصفات حسنة لم يكشفوا أسبابها ... فإن كان ما فعلوا من ذلك روايات رووها عن أسلافهم ووراثات ورثوها عن أكابرهم. فقد قاموا بأداء الأمانة ولم يبلغوا فضيلة من استنبط. وإن كانوا تركوا الدلالة في علل الأمور التي بمعرفة عللها يوصَل إلى مباشرة اليقين فيها ويُنتَهى إلى غاية الاستبصار منها. فلم يعدوا في ذلك منزلة الظن بها"[47]. فهو لا يطلب من أهل العلوم النظر والاستقراء فقط. بل أن ينفذوا منها إلى الاستخراج أو الاستنباط. والوقوف على العلل والقوانين الكلية التي تقف وراء الظواهر التي ندركها بالمشاهدة والملاحظة.

مصادر الخبر وتوثيقه

تنوع مصادر الخبر :

كان الجاحظ يقبل المعلومات من مصادر متعددة كالأخبار والروايات والأشعار. وتتساوى في نظره من جهة الوثوق بها مصدراً للمعلومات: "وليس بين الأشعار والأخبار فرق إذا امتنع في مجيئها وأصل مخرجها التباعد والاتفاق والتواطؤ"[48]. وهو يعتمد على الأحاديث المروية والمسموعة والمشاهدات العينية. يقول في "مناقب الترك": "سنذكر جملا من أحاديث رويناها ووعيناها وأمور رأيناها وشاهدناها. وفضائل تلقفناها من أفواه الرجال وسمعناها"[49].

لكنه يرى أن الأخبار متباينة بين الخاصة والعامة. فالخبر تختلف منزلته بينهما: لأن "الخبر خبران: خبر ليس للخاصة فيه فضل على العامة كالصلوات الخمس وصوم رمضان ... وخبر تفضل فيه الخاصة العامة وهو كما سنّ الرسول في الحلال والحرام...وباب آخر يجهله العوام ويخبط فيه الحشو"[50].

وعلى ذلك مثلاً فليس لأحد أن يُخرج بعض الجن والإنس من أن يكون خُلق للعبادة إلا بحجة. ولا حجة إلا في عقل أو كتاب أو خبر ... والعامة

وإن كانت تعرف جُمَل الدين بقدر ما معها من العقول. فإنه لم يبلغ من قوة عقولها وكثرة خواطرها أنْ ترتفع إلى معرفة العلماء. ولم تبلغ من ضعف عقولها أن تنحط إلى طبقة المجانين والأطفال"[41].

توثيق الخبر عن المحسوس والمعقول

يفصّل الجاحظ في كلامه تفصيلا ينمّ على وعي بأنواع الأخبار ومصادرها. وكأني به يحاول أن يكشف عن علل العلوم والأخبار كما وُفّق ابن خلدون فيما بعد-وقد كان آثاره أن السابقين لم يلتفتوا إلى قوانين العمران وعلل الظواهر الإنسانية والاجتماعية- فالأخبار عن الغائب عند الجاحظ تكون إما عن محسوس يُدرَك بالعيان. وإما عما لا يُدرك بالعيان. ولكل منهما طريق للعلم به.

فأما العلم بالعيان مما فاتنا فمصادره ثلاثة: الخبر المتواتر المستفيض. والخبر الشائع بين الكثير يمتنع على مثلهم التواطؤ. والخبر يحمله الرجلان والثلاثة.

وأما الأخبار عن الغائب مما لا يدرك بالعيان فتُدْرَك بالغالب من أمورها على غير إحاطة بها. وإنما تقع على الظن وعلى الدليل. وهو يقول في هذا مفصّلا: "واعلم أن كل علم بغائب كائنا ما كان، إنما يصاب من وجوه ثلاثة لا رابع لها.. فما غاب عنك مما قد رآه غيرك مما يُدرَك بالعيان. فسبيل العلم به الأخبار المتواترة التي يحملها الوليّ والعدو والصالح والطالح. المستفيضة في الناس فتلك لا كلفة على سامعها من العلم بتصديقها. فهذا الوجه يستوي فيه العالم والجاهل.

وقد يجيء خبرٌ أخص من هذا إلا أنه لا يُعْرَف إلا بالسؤال عنه والمناجاة لأهله كقوم نقلوا خبرا ومثلك يحيط علمه أن مثلهم في تفاوت أحوالهم وتباعدهم من التعارف لا يمكن في مثله التواطؤ وإن جَهِلَ في ذلك أكثر الناس. وفي مثل هذا الخبر يمتنع الكذب ولا يتهيّأ الاتفاق على الباطل.

وقد يجيء خبر أخصُّ من هذا يحمله الرجل والرجلان ممن يجوز أن يَصْدُق ويجوز أن يكذب. فصِدْقُ هذا الخبر في قلبك إنما هو بحسن الظن بالمُخْبِر والثقة بعدالته. ولن يقوم هذا الخبرُ من قلبك ولا قلب غيرك مقام

الخبرين الأولين أبدا.... فأما العلمُ بما غاب مما لا يدركه أحدٌ بعِيان مثل سرائر القلوب وما أشبهها فإنما يدرك علمها بآثار أفاعيلها وبالغالب من أمورها. على غير إحاطة كإحاطة الله بها. وأول العلم بكل غائب الظنون. والظنون إنما تقع في القلوب بالدلائل فكلما زاد الدليل قوي الظن حتى ينتهي إلى غاية تزول معها الشكوك عن القلوب: وذلك لكثرة الدلائل ولترادفها. فهذا غاية علم العباد بالأمور الغائبة فمن عرف ما طبع عليه الخلق وجرت به عاداتهم وعرف أسباب اتصالهم واتصاله بهم وتقصّى علل ذلك كان خليقا -إن لم يحط بعلم ما في قلوبهم - أن يقع من الإحاطة قريبا"[42].

وعلى ذلك فالأخبار ثلاثة:

١ - الخبر المتواتر المستفيض بين الخاصة والعامة. وهو أعلاها مرتبة من حيث درجة الوثوق به: لاختلاف أحوال الناس ومراتبهم

التي تحدث عنها الجاحظ وأنهم في هذه الحال لا يتفقون على الكذب. فقال: وإنما نزلت لك حالات الناس وخبرتك عن طبائعهم وفسرت لك عللهم لتعلم أن العدد الكثير لا يتفقون على تخرُّص الخبر الواحد في المعنى الواحد في الزمن الواحد[42].

٢ - الخبر الشائع بين الكثير الذين يمتنع تواطؤهم على الكذب. لاختلاف أحوالهم وتباعدهم. وتباين عللهم. لأن العدد الكثير المختلفي العلل المتضادي الأسباب المتفاوتي الهمم لا يتفقون على تخرص الخبر في المعنى الواحد. وكما لا يتفقون على تخرص الخبر في المعنى الواحد على غير التلاقي والتراسل إلا وهو حق. فكذلك لا يمكن مثلهم في مثل عللهم التلاقي عليه والتراسل فيه ولو كان تلاقيهم ممكنا وتراسلهم جائزا لظهر ذلك وفشا واستفاض وبدا[43].

٣ - الخبر الذي يحمله الرجلان والثلاثة أي أن سنده أقل عددا من الخبريّن السابقين. وهو على ذلك ليس موثوقا بصحّته إلا من جهة الثقة بعدالة ناقليه أو سنده. وهذا غير ممكن إلا على الظن.

أما الأخبار عن الغائب مما لا يُدرَك بالعيان مثل سرائر القلوب. فالعلم بها يكون من طريقين:

١ - الظنون: وهي تحتاج إلى دليل يدعمها ويسندها. وللجاحظ في الدليل رأي له قيمته. فهو يرى أنّ الدليل المادي أحقّ من الدليل البشري: لأنه "قد قال الأوّل: دلائل الأمور أشدُّ تثبيتا من شهادات الرجال. إلا أن يكون في الخبر دليل ومع الشهادة برهان: لأن الدليل لا يكذب ولا ينافق ولا يزيد ولا يبدل. وشهادة الإنسان لا تمتنع من ذلك وليس معها أمان من فساد ما كان الإمكان قائما"[44].

٢ - التعليل: وهو أقرب إلى التفسير العقلي للأمور وترجيح الأخبار بالقياس. وقد تكون الأخبار شائعة ومستفيضة فتدخلها أسباب تمنع من اشتهارها أو العكس: "ورب خبر قد كان فاشيا. فدخل عليه من العلل ما منعه من الشهرة. ورب خبر ضعيف الأصل واهن المخرج. قد تهيأ له من الأسباب ما يوجب الشهرة... واعلم أنّ لأكثر الشعر ظعنا وحظوظا كالبيت يحظى ويسير حين يحظى صاحبه بحظه وغيره من الشعر أجود منه. وكالمثل يحظى ويسير وغيره من الأمثال أجود. وما ضاع من كلام الناس وصل أكثر مما حُفظ وحكي"[45].

وقد يكون الخبر في أصله ضعيفا ثم يعود قويا. ويكون أصله قويا فيعود ضعيفا للذي يعتريه من الأسباب ويحل به من الأعراض من لدن مخرجه وفصوله إلى أن يبلغ مدته وأجله وغاية التدبير فيه والمصلحة عليه[46]. مثل السبب وراء إسلام نصارى الشام والعراق يدل على أنّ أصل الخبر كان قويا ثم ضعف. وقد استدلَ الجاحظ بما وجد في كتبهم من البشارات عن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم. لأن الأخبار عن سبب إسلامهم في تلك البلدان هو سبب واحد لما في كتبهم من بشارات عن

خاتم الأنبياء. وقد أسلموا للسبب نفسه من غير تلاق ولا تشاعر[84].

التعارف والتصادق في الأخبار والروايات

يرى الجاحظ أن الأخبار لا بد فيها من التعارف والتصادق على اختلاف مصادرها. فيقول: إن الأخبار لا بد فيها من التصادق كما لا بد في درك العقول من التعارف. فإن في عدم التعارف في حجج العقول والتصادق في حجج السمع عدم الإنصاف وبطلان الكلام"[59]. وهو يقصد بالتعارف مقياس ترجيح الروايات العقلية، وبالتصادق مقياس ترجيح الروايات المسموعة. ولا بد منهما في الروايات والأخبار من أجل قبولها وتوثيقها. لأن "كل كلام خرج من التعارف فهو رجيعٌ بهرج ولغوٌ ساقط"[60].

"وليس ينتفع الناس بالكلام في الأخبار إلا مع التصادق. ولا تصادق إلا مع كثرة السماع والعلم بالأصول. لأن رجلا لو نازع في الأخبار وفي الوعد والوعيد والخاص والعام.... ثم حسنت نيته وناصح عن نفسه لما عرف حقائق باطل، دون أن يكون قد عرف الوجوه وسمع الجمل وعرف الموازنة وما كان في الطبائع وما يمتنع فيها. وكيف أيضا يقول في التأويل من لم يسمع بالتنزيل وكيف يعرف صدق الخبر من لم يعرف سبب الصدق"[61].

ومن الأمثلة على التعارف المطلوب في الروايات، أنّ الجاحظ تحدث عن كفار قريش الذين تحدّاهم الرسول صلى الله عليه وسلم بأنْ يعارضوا القرآن في آياته وسوَرِه. وهم أهل البلاغة والبيان. فإنهم اختاروا قتاله بالسيف وإيذاءه بما أوتوا من قوة. مع أن المعارضة باللسان هي أهون وأيسر كما يرى الجاحظ. وبهذا التصادق يستدل الجاحظ على عجز كفار قريش وضعف حيلتهم أمام معجزة الرسول ﷺ وتحدّيه إياهم.

وكذلك في الخبر عن الأقوام الماضين والحديث عن العمالقة روايات مسموعة ومنتشرة بين الناس. ليس لها دليل يردّها الجاحظ بالدليل المادي الذي لا تقف في وجهه شهادات الرجال. وهو البنيان العادي الحجم يدل على حجمهم الحقيقي. فهو يجد في الترجيح العقلي بين الروايات أي في التعارف مقياسا لترجيح الروايات وتمييز الأخبار: " فأما ما روَوْا لأجسام الناس من الطول والعرض وثبتوا لهم من السمن والعظم والضخم، سوى ما نطق به الكتاب عن أجسام عاد. فالشاهد على كذبهم حاضر والدليل على فساد عقولهم ظاهر. كالذي رأينا من أقدار سيوف الأشراف وأزجّة رماح الفرسان وكتيجان الملوك التي في الكعبة"[62].

ولا بد لأهل الكلام من الحجة والأدلة. وهي تحتاج إلى أن تتوافر فيها شروط التعارف والتصادق: إذ "إن كل مطيق محجوج والحُجّة حجتان: عيان ظاهر وخبر قاهر. فإذا تكلمنا في العيان وما يفرع منه فلا بد من التعارف في أصله وفرعه منه. ولا بد من التصادق في أصله والتعارف في فرعه. فالعقل هو المستدل والعيان والخبر هما علة الاستدلال وأصله. ومحال كون الفرع مع عدم الأصل. وكون الاستدلال مع عدم الدليل. والعقل مضمن بالدليل والدليل مضمن

بالعقل. ولا بد لكل واحد منهما من صاحب وليس لإبطال أحدهما وجه مع إيجاب الآخر"[63].

الحق لا يتناقض

وهو مبدأ يعتمده الجاحظ في الروايات التي يرى أنها متساوية من جهة مصدرها. فلا بد من مشكلة ما في مثلها. وهو ما يسميه " الحق لا يتناقض فلا يقدر على ترجيح إحداها من غير دليل قوي يدحض إحداها ويثبت الأخرى. كما في نقاشه لانتصار العثمانية لأبي بكر وانتصار الرافضة لعلي. وحجج كل طرف أمام الطرف الثاني حجج قوية مسندة تتساوى في صحتها.

وفي هذا يقول: " فإن كان ما رويتم في فضيلة علي حقا، وما رووا في فضيلة أبي بكر حقا، فأبو بكر خير من علي وعلي خير من أبي بكر. وهذا هو التناقض والحق لا يتناقض. وفي هذا دليل أن النبي ﷺ لم يتكلم بذلك ولا قاله ...ولا سبيل لنا إلى معرفة ذلك إذا كان الإسناد متساويا وعدد الرجال

متقاربا"[64]. "ولا بد للحديث مع سوء تأويلكم واضطراب حجتكم من ضربين: إما أن يكون باطلا لم يتكلم به النبي ﷺ. وإما أن يكون حقا ومعناه غير ما قلتم وتفسيره غير ما ادعيتم"[65].

والخبر لا يمكن دفعه إلا بحجة قاطعة أو دليل غير مردود. كمثل الأخبار المروية عن المعمّرين: فـ"قد ذكرت الرواة في المعمَّرين أشعارا وصنعت في ذلك أخبارا ولم نجد على ذلك شهادة قاطعة ولا دلالة قائمة ولا نقدر على ردّها بجواز معناها ولا على تثبيتها إذ لم يكن معها دليل يثبتها"[66].

خاتمة

وهكذا توقفنا في الأوراق السابقة عند بعض آراء الجاحظ في التأليف والمؤلفين والكتابة ومناهجها. وقد لمسنا من كتاباته أنه كان مشغولا بهمّ الكتابة والتأليف. وأنه لطول معاناة القراءة ومطالعة التصانيف العديدة قد كوّن على مر السنين أفكارا خاصة تدور على التأليف. وتدل على عميق نظره وتفكيره وتأمله في الظواهر الإنسانية والاجتماعية. تصلح بحق أن تُنسَب إلى مدرسة الجاحظ وطريقته الفريدة ونهجه المتميز في النثر العربي.

* * *

الحواشي

١- المعاش والمعاد. في رسائل الجاحظ (جزآن في مجلد واحد) تحقيق وشرح عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي. القاهرة. ١٩٦٤، ج١ ص ٩٥

٢- الجواري والغلمان. في رسائل الجاحظ. ط. هارون. ج٢ ص ٩١

٥. الحنين إلى الأوطان. في رسائل الجاحظ. ط. هارون. ج٢ ص٣٣٢

٦. حجج النبوّة. رسائل الجاحظ. جمعها ونشرها حسن السندوبي. ط١. المكتبة التجارية الكبرى. مصر. ١٩٣٣. ص ١٢٥.

٧. استحقاق الإمامة. رسائل الجاحظ. ط. السندوبي. ج ص٢٥٧

٨. المصدر نفسه. ص٢٥٤-٢٥٥

٩. حجج النبوّة. رسائل الجاحظ. ط. السندوبي. ص ١٢٣

١٠. استحقاق الإمامة. رسائل الجاحظ. ط. السندوبي. ص ٢٥٥.

١١. حجج النبوة. رسائل الجاحظ. ط. السندوبي. ص١٢٥
١٢. كتاب الفتيا. رسائل الجاحظ. ط. هارون. ج٢ ص٢١٨
١٣. فصل ما بين العداوة والحسد. رسائل الجاحظ. ط. هارون. ج١ص٣٣٨
١٤. حجج النبوة. رسائل الجاحظ. ط. السندوبي. ص١١٧
١٥. في نفي التشبيه. رسائل الجاحظ. ط. هارون. ج٢ ص٢٩٦
١٦. التربيع والتدوير. رسائل الجاحظ. ط. هارون. ج١ ص١٩٠
١٧. كتاب العثمانية. للجاحظ. تحقيق وشرح عبد السلام هارون . ط١ . دار الجيل . بيروت . ١٩٩١. ص ٤٤
١٨. العثمانية . ص٢٥٤
١٩. مناقب الترك. رسائل الجاحظ. ط . هارون . ج١ ص٣٠
٢٠. في نفي التشبيه. رسائل الجاحظ. ط . هارون . ج١ ص٢٩٢
٢١. فصل ما بين العداوة والحسد. رسائل الجاحظ. ط . هارون. ج٢ ص٢٢٨-٢٣٩ وص٢٤٠
٢٢. المصدر نفسه. ج٢ ص٢٥٠-٢٥١
٢٣. المصدر نفسه. ج٢ ص٢٤٠
٢٤. المصدر نفسه. ج٢ص٢٢٨
٢٥. التربيع والتدوير. رسائل الجاحظ. ط. السندوبي. ص٢٣٦
٢٦. في نفي التشبيه. رسائل الجاحظ. ط . هارون. ج١ ص٢٨٩
٢٧. التربيع والتدوير. رسائل الجاحظ. ط . السندوبي. ص ٢٢١
٢٨. مناقب الترك. رسائل الجاحظ. ط . هارون . ج١ص٨٥
٢٩. استحقاق الإمامة. رسائل الجاحظ . ط. السندوبي. ص٢٥٤ . وفي كتاب الفتيا. رسائل الجاحظ . ط. هارون. ج٢ص٢٧٦
٣٠. كتاب الفتيا. رسائل الجاحظ . ط. هارون. ج٢ص٢١٥
٣١. الحنين إلى الأوطان. رسائل الجاحظ. ط. هارون . ج٢ص٣٨٨
٣٢. العثمانية . ص ٢٧٩
٣٣. في ذم أخلاق الكتّاب. رسائل الجاحظ. ط. هارون. ج٢ ص٢٠٩
٣٤. التربيع والتدوير. رسائل الجاحظ. ط.السندوبي. ص٢٣٩
٣٥. كتاب النساء. رسائل الجاحظ . ط. السندوبي. ص٢٧٥
٣٦. في الشارب والمشروب. رسائل الجاحظ. ط. السندوبي. ص٢٨٤
٣٧. في نفي التشبيه. رسائل الجاحظ . ط. هارون. ج١ص٢٨٩
٣٨. المصدر نفسه. ج١ص٢٩١
٣٩. كتاب النساء. رسائل الجاحظ. ط.السندوبي. ص٢٧٥
٤٠. مناقب الترك. رسائل الجاحظ. ط. هارون. ج١ ص٨٦
٤١. حجج النبوة. رسائل الجاحظ. ط. السندوبي. ص١٥٠
٤٢. حجج النبوة. رسائل الجاحظ. ط. السندوبي. ص١٤٧
٤٣. التربيع والتدوير. رسائل الجاحظ . ط. السندوبي. ص٢٣٨-٢٣٩
٤٤. العثمانية. ص٢٨٠
٤٥. كتاب الفتيا. رسائل الجاحظ. ط. هارون. ج٢ص٣١٤
٤٦. ١ العثمانية . ص١٨٧
٤٧. حجج النبوة. رسائل الجاحظ. ط. السندوبي. ص٢٢٤
٤٨. المصدر نفسه. ص٢٢٤
٤٩. المعاش والمعاد. رسائل الجاحظ. ط. هارون. ج١ ص٩٦
٥٠. العثمانية. ص٣
٥١. مناقب الترك . رسائل الجاحظ. ط. هارون. ج١ ص٣٠
٥٢. العثمانية. ص٢٥٣
٥٣. العثمانية. ص٢٥٦
٥٤. المعاش والمعاد. رسائل الجاحظ. ط.هارون. ج١ ص١١٩- ص١٢١
٥٥. حجج النبوة. رسائل الجاحظ. ط. السندوبي. ص ١٢٩

٥٦. المصدر نفسه. ص١٢٦

٥٧. في الجد والهزل. رسائل الجاحظ. ط.هارون. ج١ ص٢٥٠

٥٨. حجج النبوة. رسائل الجاحظ. ط. السندوبي. ص١٣٣

٥٩. المصدر نفسه . ص١٣٣

٦٠. المصدر نفسه. ص١٤١

٦١. العثمانية. ص ١٢٤

٦٢. المصدر نفسه. ص١٧

٦٣. حجج النبوة. رسائل الجاحظ. ط. السندوبي. ص ١٣٩

٦٤. التربيع والتدوير. رسائل الجاحظ. ط. السندوبي. ص٢٠٤

٦٥. حجج النبوة. رسائل الجاحظ. ط. السندوبي. ص ١١٨

٦٦. العثمانية. ص ١٢٧

٦٧. المصدر نفسه. ص ١٥٥

٦٨. التربيع والتدوير. رسائل الجاحظ. ط. السندوبي. ص٢٠٤.

المصادر

١- الجاحظ: رسائل الجاحظ ، جمعها ونشرها حسن السندوبي. ط١. المكتبة التجارية الكبرى. مصر. ١٩٣٣

٢- الجاحظ - أبو عثمان عمرو بن بحر (ت٢٥٠هـ): رسائل الجاحظ (جزآن في مجلد واحد) تحقيق وشرح عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي. القاهرة. ١٩٦٤

٣- الجاحظ : كتاب العثمانية . تحقيق وشرح عبد السلام هارون . ط١. دار الجيل . بيروت . ١٩٩١

الشيخ الداعية
محمد الشبوكي الزيتوني الجزائري
شاعر الثورة الثائر
١٣٣٢-١٤٢٦ (هـ / ١٩١٦-٢٠٠٥م)

د. أحمد عيساوي
جامعة باتنة - الجزائر

ملخص وأهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة الوصفية التاريخية التحليلية الاستنتاجية النقدية تسليط الضوء على علم من أعلام الجزائر في اللغة والأدب والشعر والدين، علم إسلامي كانت حياته كلها مدرسة حقيقية وصادقة وفعالة للدعاة والمصلحين المهمومين بنكبات أمتهم الجريحة، حياة اتسمت كلها بالتضحية والبذل والعطاء غير المحدودة لنصرة الإسلام وشريعته المغيبة في أرض الجزائر أثناء الحقبة الاستعمارية والعقود الأربعة من الاستقلال ١٣٣٢-١٤٢٦هـ/١٩١٦-٢٠٠٥م.

عَلَمٌ من أعلام المصلحين الدينيين في الجزائر الجريحة، توزعت حياته كلّها على حقبتين متباينتين غشت سماء الجزائر الجريحة سنوات ١٣٣٢ -١٤٢٦هـ/١٩١٦-٢٠٠٥م. من حيث الشكل والمظهر، ولكنهما متفقين على تغييب الإسلام وشريعته من حكمها وتوجيهها، والتنعم بفيء بركاتها وبرها.

والفاقهون المدركون المتتبعون لخصائص ومميزات تلك المرحلة العصيبة من تاريخ الجزائر الديني والثقافي واللغوي يدركون حجم التدمير الكلي الذي عانى منه الشعب الجزائري في هويته وشخصيته وتاريخه ووجوده ومستقبله، الأمر الذي دفع الجزائريين للانضمام الطوعي لصفوف الثورة الجزائرية ظناً منهم أنها صرخة

دينية إسلامية صادقة لاستعادة الوعي الإسلامي والعربي السليب. فانخرطوا يتهافتون في ساحات الوغى والشرف. فيما وقف المتربصون المتسربون من الرويبضات يتحينون الفرصة لكسب المعركة المسلحة بأجساد المجاهدين المؤمنين الصادقين. ثم يقررون مصير ومستقبل الجزائر الذي رهنوه في إسار فلسفات الإلحاد والشيوعية والاشتراكية والقومية والتغريب... حتى إذا تحقق النصر وجد الشرفاء من العرب والمسلمين من أمثال رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أنهم خارج الموقف السياسي والتوجيهي القيادي. ولا يحق لهم تقرير وجهة واتجاه الأمة العربية المسلمة في فترة الاستقلال. وأنهم أضحوا سهللة ليقطف الرويبضات الثمرة الجزائرية الجهادية الأصيلة. ويمنحوها - غدرا وخيانة - لقوى الظلام والإلحاد والتعريب دون ثمن... ولم يكن ليخلد في بالهم قط أن الرويبضات متربصون بمستقبل المشروع الحضاري العربي الإسلامي. ليبددوا وحدته. وليمنحوا قطافه حين حصاده لأعداء الأمة الإسلامية. ولذا فقد جابه شيوخ جمعية العلماء وأمثالهم من الشرفاء المجاهدين والقياديين أعقد وأشد مشروع يهدف للإطاحة بطموح الشعب الجزائري وتطلعاته نحو العيش في ظل الإسلام وشريعته السمحة. وكان منهم الشيخ محمد الشبوكي - يرحمه الله - ويسكنه فسيح جناته.

فيما غلب على السواد الأعظم من الناس أن الاستعمار قد ولى إلى غير ما رجعة. وأن البلاد والمشروع الحضاري لاسترداد الهوية العربية الإسلامية والتمتع بالعيش الكريم قد صار في أيد أمنة. فخلد إلى الراحة والدعة. وشبع من أغاني الحرية والاستقلال حتى الثمالة والرقاد. فيما كان هو ووجوده وهويته اللغوية والثقافية والدينية في خطر جسيم. أخطر مما كان عليه في العهد الاستعماري. حيث كانت إرادة المقاومة والممانعة حية فيه. لاستشعار خطر المستعمر الغريب. فيما زالت هذه الإرادة بشكل طوعي في عهد الاستقلال لاعتبار الطمأنينة في أبناء الجلدة. الذين خدموا مشاريع الإلحاد والتغريب أكثر من خدمتهم لمشروعهم الحضاري العربي الإسلامي. ومن هنا كانت جسامة ومكانة وأهمية المشروع الذي جابهه رجال الجمعية.

عَلَمٌ كانت حياته كلها في الفترة الاستعمارية البغيضة ١٣٣٢-١٣٨٤هـ / ١٩١٦- ١٩٦٢م تضحية. وجدا. وجهاداً. ونضالاً. وتربية وتعليماً. ودعوة لله. ونصرة للدين الإسلامي ولشريعته. ولأمته المتهورة. كما كانت فترة الاستقلال ١٣٨٤-١٤٢٦هـ ١٩٦٢-٢٠٠٥م صبراً. ومثابرة. وجداً. ونصرة. وموقفاً صادقاً للوقوف أمام مخططات تغريب. وتفسيق الأمة. وإبعادها عن دينها وعروبتها ولغتها. حيث آثر - يرحمه الله - الانخراط في مؤسسات الدولة الجزائرية وممارسة العمل الإصلاحي قدر الإمكان.

فحياته-بحق وكما قدمناها -مدرسة دعوية وتربوية وتعليمية ودينية رائدة. ومتميزة. لطلاب الحق والحقيقة. ولأنصار الشريعة السمحاء. ولخدمة الدين الحنيف. حيث اتخذ من التربية والتعليم والخطابة ودروس الوعظ والإرشاد والفتوى والكتابة والتأليف وغيرها من سائر المنابر الرسمية والشعبية التي اعتلاها سبيلاً لنصرة الدين الإسلامي. وسبيلاً لربط الأمة المقهورة بمعين عزها وقوتها واستمرارها. بعد أن لعبت بها رياح التنصير والإلحاد والتغريب والضياع. وسلبت منها كل شيء.... ما يجعل القارئ المنصف الحصيف يتملى بناظريه المتوسمتين المحن وطرق مواجهتها. والفتن ومناهج وأدها. والتغريب

وسبل صده، والتخلف ومشاريع رده وهده، والأمة الموات وترياق إنعاشها وإحيائها، والأنظمة الملحدة وضروب التعايش معها، والفلسفات الغازية وأفانين التعامل معها.. علّه - بعون الله - ينهج النهج نفسه، ويسلك السبيل عينه، ويمسك أدوات الفهم والنظر والدرس... ويُحلل، ويُفكك عناصر بيئة التخلف، وآفات الفرد المسلم المتردي في مساحيق التخلف فيما بعد عصر الموحدين، وفي سبل النهوض به.

وقد حاولت في هذا البحث المتواضع أن أعرض لحياة وسيرة الشيخ محمد الشبوكي بما تيسر عندي من مصادر ووثائق ومكتوبات صحف جمعية العلماء وغيرها، أو من بعض الحوارات الشخصية التي كنت أجريها معه بين الفينة والفنية عندما كنت ألقاه، أو من خلال الحوار الذي أجراه معه الصحفي النشيط الأستاذ نور الدين مراح حفظه الله ورعاه مراسل الإذاعة الجزائرية من لبنان.

وقد عثرت له على ثلاث مقالات منشورة في جريدة البصائر بين سنتي ١٩٤٨-١٩٤٩م، كما وجدت له مراسلتين لجريدة البصائر في شهر مارس سنة ١٩٣٩م عندما كان طالباً بجامع الزيتونة سنوات ١٩٢٤-١٩٣٤م، وعندما كان نائب الكاتب العام لجمعية الطلبة الجزائريين بجامع الزيتونة المعمور، فضلاً عن ديوانه الشعري المطبوع سنة ١٩٩٥م.

وما أخرجته في هذا البحث- على صعوبته ودقته - كان من ثنايا الوثائق والمخطوطات والمكتوبات، لأنني بصدد التأريخ لرجل لم يؤرخ لنفسه بالمعنى الأكاديمي أو التسجيلي أو التأريخي للمصطلح، ولأن الأمر مرتبط بالحكم على علم من أعلام الجزائر وتبسة، وحياة الرجال ليست ملهاة أو ملعبة يكون الحديث والكتابة عنها بمثل هذه السهولة، ولذلك تحريت ما استطعت، وكتبت ما وجدته مدوناً، مبالغة في الحرص والدقة العلمية.

وقد اتبعت المنهج التأريخي التسجيلي الوصفي أثناء عرض الحقائق الثابتة، دون أن يخطئني أو يسلوني منهج التحقيق والدراية والتثبيت، كما صاحبني منهج التحليل والتدقيق والاستنتاج والنقد طيلة ممارستي لأدبيات الكتابة عن هذا الرجل.

مدخل إلى أبجديات البيئة والرجل:

يمكن وصف الفترة التي ولد ونشأ وعاش فيها.. الشيخ محمد الشبوكي الجزائري الزيتوني بأنها من أكثر الفترات ظلاماً مرّت بالجزائر العربية المسلمة طيلة وجودها في تاريخ الحضارة الإنسانية، وبعد أن أيقنت فرنسا أن الجزائر قد آلت إليها وإلى الأبد، وأنه لن تقوم لها قائمة بعد القرن العشرين في سماء العروبة والإسلام، وأن فردها ومجتمعها وهويتها ودينها وماضيها وحاضرها ومستقبلها صار في عداد التاريخ الفرنسي.

ولعلّ إلقاءنا بعض الأضواء الكاشفة على حياة الشيخ محمد الشبوكي - يرحمه الله - ما يكشف لنا حقيقة المعاناة والخطوب التي عصفت بأمثاله من رجال الجمعية الشرفاء، إما على يد الاستعمار، أو على يد حكومة الثورة الجزائرية التي تولت الحكم بعد الاستقلال، التي آثرت أن يتولى القيادة فيها القادة الثوريون والعسكريون، وإن قراءة دقيقة وعميقة لأوضاع الجزائر وظروفها المختلفة مطلع القرن العشرين ما يبيّن لنا الظروف القهرية القاسية التي أحاطت بتكوين ونشأة رجال الإصلاح الديني في الجزائر، بعد أن بسط الاستعمار كل نفوذه على أنفاس الشعب الجزائري، وطارده في كل شؤون حياته الخاصة والعامة.

كما كانت فترة الاستقلال من أشد المراحل التي عانت منها الجزائر عموماً ورجال الإصلاح الديني خصوصاً، فبعد أن اختارت جمعية العلماء المسلمين

حل نفسها في مؤتمرها التاريخي المنعقد بالجزائر العاصمة يوم ١٩٥٦/١/٧م، والانضمام طواعية في جبهة التحرير الوطني، عبر بيانها السياسي العميق والدقيق والفاصل والموقع من طرف الشيخ (العربي التبسي ت ١٩٥٧م) - يرحمه الله- الذي يجعله في حكم الجمعية المنحلة تنظيماً[١١]، والمنتمية بأفرادها لجبهة التحرير الوطني على النقيض من مساومات الأحزاب الأخرى كالحزب الشيوعي الجزائري والأحزاب البربرية الانفصالية الأخرى كحزب الطليعة الاشتراكية وغيره، التي رفضت حل نفسها، وفضلت الانضمام كأحزاب ضمن نسق جبهة التحرير الوطني. ولما جاء الاستقلال اختارت حكومة الثورة المنهج الاشتراكي الثوري الذي يتبنى الطروحات القومية العربية مع مزيج اليسارية، وتشددت مع رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأبعدتهم عن الحكم، أو التفكير في المشاركة فيه، وخيّرتهم بين أمرين لا ثالث لهما، ولا يمكنهما الجمع بينهما، إما الالتحاق بالمساجد، أو التربية والتعليم في المدارس، فعقدوا مؤتمرهم سراً في بيت الشيخ (البشير الإبراهيمي ت١٩٦٥م) بعد بيانه التاريخي الصادر يوم ١٩٦٤/٤/١٦م بمناسبة إحياء الذكرى الرابعة والعشرين لوفاة باعث النهضة الجزائرية الحديثة الشيخ عبد الحميد بن باديس - يرحمه الله-[١٢]، وفرض الإقامة الجبرية عليه، وقد أسقط في أيديهم لما علموا بقرار الحكومة الجزائرية منهم، وبعد أن كانوا يظنون أن الاستقلال وحكومة الثورة ستفتح لهم الأبواب على مصراعيها للدعوة ونصرة العربية والإسلام في الجزائر، ولكن - للأسف وتلك هي الحقيقة التاريخية- كانت القيود عليهم أعمق وأقسى من قيود الاستعمار، ولذا فقد انقسموا - يومها - إلى قسمين، قسم ذهب للعمل المسجدي، وقسم اختار العمل التربوي والتعليمي، مع مهادنة الحكام الثوريين الجدد كي لا يعيقوا مسيرة الإصلاح الإسلامي في الجزائر، المسيرة التي بدأها الشيخ عبد الحميد بن باديس سنة ١٩١٣م، ثم بصحبة رفاقه رجال الإصلاح الديني بعد تأسيس الجمعية سنة ١٩٣١[١٣].

وكان الشيخ محمد الشبوكي أحد هؤلاء الرجال الذين ساروا ضمن سفينة الدين الصامدة في بحار الثورية المتلاطمة الأمواج، وفي خضم الرياح الاشتراكية الهوجاء، فانخرطوا في مؤسسات الدولة الجزائرية الفتية وحاولوا من خلالها إصلاح ما يمكن إصلاحه، فأنقذوها من الأمواج الشيوعية العاتية، وأوصلوها بحكمتهم وعلمهم وحنكتهم إلى بر الأمان.

بيئته وظروف عصره:

والمتتبع لسيرة الشيخ محمد الشبوكي -يرحمه الله- يجده قد عاش حقبة زمنية معتبرة وحافلة بالأحداث الجسام التي مست تاريخ الجزائر المعاصر، فقد امتدت حياته من سنة ١٩١٦ إلى سنة ٢٠٠٥م، وشهدت فترتين زمنيتين مختلفتين، امتدت الأولى من مولده إلى سنة استقلال الجزائر ١٩٦٢م، والثانية عاشها في فترة الاستقلال حتى وفاته سنة ٢٠٠٥م، وعاش خلال الفترتين أحداثاً متنوعة ومؤثرة وجديرة بالاهتمام، فقد جاءت الفترة الأولى أثناء وبين الحربين العالميتين الأولى والثانية (١٩١٦-١٩٤٥م)، حيث بلغ القهر والقمع الاستعماري مداه في التنكيل بالشعب الجزائري الأبي الأعزل، بخضوعه المطلق لقوانين الردع الزجرية، وعلى الرغم من تلك الظروف القمعية فقد كانت تلك الفترة من حياة الشيخ حافلة بطلب العلم والسفر إلى زاوية نفطة ثم إلى تونس، حيث المراكز العلمية والثقافية والدينية والأدبية والإعلامية...وحيث الأحداث السياسية والثقافية

والدينية التي شهدتها الجزائر وتونس أثناء الحربين العالميتين، وبعد الحرب العالمية الثانية وما صاحبها من قمع استعماري وحشي لمطالب وأمنيات الشعب الجزائري يوم ٨/مايو/١٩٤٥م. حيث بدأت تتشكل بوضوح معالم الاستقلال الوطني للشعب الجزائري، وتلمح إرهاصات الثورة الجزائرية ضد المحتل الذي قمعهم يوم احتفال الحلفاء بالانتصار على النازية.

وقد عاصر الشيخ في الفترة الأولى أحداثاً جساماً مرت بها الأمة الجزائرية العربية المسلمة ممتحنة في دينها، ومحرومة من لغتها، ومطاردة في هويتها، ومقهورة في وجودها ومصيرها، وميتة في واقعها... حيث انتسب إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وشارك في كل نشاطاتها الدينية والدعوية والتربوية والإعلامية والثقافية... عاصر القمع الاستعماري لها سنة ١٩٣٣م، ومنع رجالها وعلمائها من إلقاء الوعظ والإرشاد والتدريس بمساجد الجزائر كلها، والصراع مع يهود قسنطينة سنة ١٩٣٤، ومواجهة قانون الـ٨/ مارس١٩٣٨م القاضي بمنع تدريس اللغة العربية في الجزائر، واعتبارها لغة دخيلة وغريبة عن الجزائر والجزائريين...وقرار توقف الجمعية عن ممارسة نشاطها أثناء الحرب العالمية الثانية. واعتقال شيوخها محمد البشير الإبراهيمي في معتقل (أفلو) الشهير بالغرب الجزائري سنوات ١٩٤٤...١٩٤٠م، والعربي التبسي في (سجن الكدية العسكري) بقسنطينة سنة ١٩٤٣. ووفاة أهم رجالها الشيخ عبد الحميد بن باديس يوم ١٦/أبريل/١٩٤٠م، والشيخ محمد مبارك يوم ٩/فبراير/١٩٤٥، وانسحاب الشيخ (محمد الطيب العقبي ت ١٩٦٠م) من العمل مع الجمعية بداية من اندلاع الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩م.

كما عاش الشيخ محمد الشبوكي - يرحمه الله - محنة إقصاء رجال الجمعية بُعيد الاستقلال مع حكومة الثورة الجزائرية، التي رأت في إقصائهم خير اختيار لتحقيق الرقي والتقدم للمجتمع الجزائري عبر تفضيلها المنهج الاشتراكي لتنمية الجزائر المستقلة، واستبعادها لمبادئ الدين الإسلامي عن حكم وتوجيه وتنمية وتسيير الشعب الجزائري، متنكرة للوعود التي قطعتها على نفسها في بيان أول نوفمبر ١٩٥٤م الذي ينص على تأسيس دولة جزائرية ديمقراطية شعبية في ظل المبادئ الإسلامية والعربية، وعاش أيضاً محنة إقصاء الحركة الإسلامية الجزائرية الحديثة لهم أيضاً من ريادة وتوجيه العمل الإسلامي في الجزائر في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الماضي، وبها يكون قد اجتمع على هؤلاء الرجال الثلاثة لإقصاءات كبرى تعرضوا لها خلال حياة الجزائر المستقلة.

ولكن الشيخ محمد الشبوكي كان من رجال الجمعية الذين رفضوا الانخراط والاندماج في سلك النظام الثوري، والذب عن قيم الإسلام والجمعية من خلال مؤسسات الدولة، ولعلّه هو صاحب فكرة المشاركة في السلطة، التي تمارسها بعض الأحزاب الإسلامية وغيرها اليوم في إطار المشاركة في الحكم عبر التمثيل البرلماني، وعبر العمل ضمن فريق السلطة التنفيذية، أو لعلّ الأستاذ «أبو جرة سلطاني» استوحاها منه، أو هو الذي أشار عليه بها.

وضع الجزائر السياسي غداة القرن العشرين:

اختزل المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله وغيره من المؤرخين الجزائريين وضع الجزائر السياسي في الفترة الممتدة بين سنتي ١٩٠٠- ١٩٤٠، في المحطات البارزة التالية:

١ - كانت الجزائر في غليان دائم ومستمر. ثم ظهرت فيها التمردات الثورية بحدة. وسادت فيها أيضاً الاضطرابات السياسية. وعمتها النشاطات الثقافية والأدبية المتنوعة[٤].

٢ - إن الاحتلال الفرنسي لم يخلق الوطنية. ولكنه أيقظها وقواها بتوفير أسباب نضجها.

٣ - لقد قامت هذه الوطنية برد فعل عنيف ضد الاحتلال الأجنبي ورغم حجم الإجراءات المضادة التي اتخذها الاحتلال لإضعافها. فإنها قد ظهرت مرة أخرى في آخر القرن الماضي مستعملة تكتيكاً جديداً. وضغطاً قوياً ضد الاحتلال.

٤- لقد كان إلحاق الجزائر بفرنسا سنة ١٨٣٤م. وإصدار قانون مجلس الشيوخ (سانتوش كونسيلت) سنة ١٩٦٥م. و (قانون الأهالي كود دولانديجان) سنة ١٨٨١م. وإنشاء محاكم الاضطهاد الخاصة (تريبينو ريبريسيف) سنة ١٩٠٢م. والتجنيد الإجباري سنة ١٩١٢م. لقد كان كل ذلك خرقاً للاتفاق المبرم سنة ١٨٣٠م بين الجزائر وفرنسا. كما كان خرقاً لجميع المبادئ الديمقراطية. التي تتبجح بها فرنسا صاحبة الثورة الفرنسية ومبادئها العادلة.

٥- لقد كان الحكم الفرنسي في الجزائر حكماً ردعياً. قمعياً. اضطهادياً. وسلبياً أيضاً...

٦- يتحمل المستعمرون. وساسة فرنسا على قدم المساواة مسؤولية تردي أوضاع الجزائريين.

٧- كانت مساعدات القوى المناوئة لفرنسا للحركة الوطنية ضئيلة جداً. وغير حاسمة.

٨- اعتمد الجزائريون على أنفسهم في تكوين حركتهم الوطنية دون انتظار عون من أحد.

٩- إن طلب الجزائريين المساواة مع الفرنسيين لم يكن ضد قيمهم الوطنية الأصيلة. بل كان مجرد وسيلة لحماية حركتهم من القوانين الاستثنائية الفرنسية القاسية.

١٠- لم يكن وجود الثقافة الفرنسية في الجزائر عامل إنعاش. وترقية للثقافة الجزائرية الوطنية - كما يدعي بعض الناعقين - بمقدار ما كانت عامل قمع. وقهر ومطاردة.

١١- إن عدم وجود قوة إقليمية كبرى. أو عالمية تنافس فرنسا على الجزائر. - مع اعتقاد فرنسا بكون الجزائر مقاطعة فرنسية تابعة لها - قد ساعد. وساهم في عزلة الحركة الوطنية الجزائرية[٤].

أما وضع الجزائر الثقافي والاجتماعي والتربوي واللغوي والديني...فلم يكن أفضل حالاً من وضعها السياسي. ولعلَّ إلقاءنا الأضواء عليه يبين لنا حالة التردي التي كان يعيش فيها الجزائريون. ومنهم الشيخ محمد الشبوكي - يرحمه الله -.

وضع الجزائر الثقافي غداة القرن العشرين:

أما وضع الجزائر والشعب الجزائري الثقافي واللغوي والديني والتعليمي والتربوي والفني فقد وصفه الباحث الدكتور عثمان سعدي بقوله: «... لقد كان مخطط الاستعمار طوال وجوده بالجزائر مبنياً على إفراغ الشخصية الجزائرية من مضمونها القومي والوطني لإحلال مضمون الشخصية الفرنسية محلها. وكان يشرف على تطبيق هذا المخطط كبار أساتذة الاستعمار الفرنسي. وهم متخصصون في كل العلوم الإنسانية وعارفون بالدقائق الخفية للتركيب النفسي والاجتماعي للفرد الجزائري. وكان هذا المخطط ذا حدين متوازيين متكاملين: الأول مباشر. وتمثل في غلق جميع الفرص أمام الجزائري. التي تمكنه من تعلم لغته الوطنية. وهذا يطبق في المدرسة على

الشيخ الداعية محمد الشبوكي الزيتوني الجزائري شاعر الثورة الثائر

الخصوص... والثاني غير مباشر تمثل في إفساد الذوق الفني الجزائري في الأغنية، والموسيقى، والمسرح، والأدب، وسهر على تطبيق هذه الخطة جهاز الإعلام الفرنسي المتطور..»[٦].

ويضيف الدكتور عثمان سعدي مبيناً مخطط الاستعمار الفرنسي مسخ وتشويه معالم الشخصية الجزائرية بقوله: «...وكل المجهودات التي بذلتها الإدارة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر حيال الفرد والمجتمع الجزائري في النواحي التربوية والتعليمية والثقافية، إنما هدفت بالأساس للقضاء على اللغة العربية أولاً المقوم الرئيس للثقافة العربية والدين الإسلامي، وإلى تحويل الفرد الجزائري من لغته وثقافته ودينه إلى لغة المستعمر وثقافته ودينه..»[٧].

وقد مرت عمليتها التدجينية بواسطة مجموعة من الإجراءات والوسائل والأساليب، محولة الفرد الجزائري بالتدريج من فرد ناقم ومقاوم ومغالب للاستعمار، إلى فرد راض بالتعايش مع الاستعمار، ثم إلى درجة المسلّم المطلق بحتمية الاستعمار الفرنسي عليه، وقدره المحتوم عليه وذلك عبر جملة من الأساليب والوسائل والإجراءات القهرية التي من أهمها:

١ - محاربة اللغة العربية محاربة استئصالية شديدة، وتقسيمها إلى ثلاث لغات: (عامية، قديمة، حديثة)، وذلك بغية محوها من عالم الشهود الحضاري المحلي والإقليمي والعالمي.

٢ - محاربة الدين الإسلامي الحنيف، كدين متكامل - حمى الجزائر عبر فتراتها التاريخية المتلاحقة - والتقليل من شأنه، وتشويهه بشتى أساليب التشويه والمسخ.

٣ - اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في دارها وبين أهلها بموجب قانون الـ ٨/مارس/ ١٩٣٨م، ومن قبله قانون ميشيل ١٩٣٢م القاضي بمنع شيوخ جمعية العلماء من الوعظ.

٤- فرنسة مراحل التعليم، وطبعها بالطابع الأوربي المسيحي.

٥- تشويه تاريخ الجزائر في ظل العروبة والإسلام، وضرب قيم الانتماء، ومقومات الهوية العربية الإسلامية للفرد وللمجتمع الجزائري.

٦- عدم تدريس الجزائريين تاريخهم الوطني العربي الإسلامي، وعدم تدريس جغرافية بلادهم والعالم العربي والإسلامي، والاستعاضة عنهما بتدريس تاريخ وجغرافية فرنسا وأوروبا والصليبية، والوثنية اليونانية والرومانية البائدة..»[٨].

٧- تقديم الثقافة المسيحية الناهضة بديلاً عن الثقافة العربية الإسلامية الضعيفة المهزومة.

٨- ضرب ستار حديدي متيد وعازل للجزائر عن وسطها الطبيعي وامتداها العربي الإسلامي، وذلك بهدف عزلها حضارياً.

٩- تضييق الخناق، وضرب الحصار، بالنفي، والتشريد، والسجن، والغرامات، وقيود التراخيص وغيرها.. على كل رجال الفكر والعلم والفقه والثقافة العربية الإسلامية الأصيلة.

١٠- فرنسة الإدارة، ووسائل الإعلام، وجميع مجالات الفكر، والأدب، والفن، والثقافة، ومطاردة الثقافة العربية الإسلامية في جميع المجالات.

١١- تعطيل النوادي العربية الحرّة التي كانت تقوم بنشر اللغة العربية، وتربية النشء على القيم العربية الإسلامية الأصيلة.

١٢- تعطيل العمل بالشريعة الإسلامية لكل

المسلمين الجزائريين وفرض الاحتكام إلى القوانين الوضعية الفرنسية، أو إلى العرف والعادات بالنسبة لبلاد القبائل.

١٣- إخضاع جميع المؤسسات الدينية إلى السلطة الاستعمارية المباشرة، ورفض العمل بقانون فصل الدين عن الدولة.

١٤- فتح الجزائر أمام البعثات التنصيرية على اختلاف مذاهبها، وتمكين تلك البعثات من كل الأسباب المادية والمعنوية والبشرية والقانونية.

١٥- القضاء على كل مراكز الثقافة العربية الإسلامية، من: جوامع، ومساجد، ومدارس، وزوايا، وكتاتيب، ورباطات، ومكتبات...[٩٩].

١٦- تكوين جيل مشوه وممسوخ من الجزائريين لا صلة له بأمته، وتاريخه، ولغته، ودينه، ومجتمعه الجزائري، وذلك بدمجهم ضمن إطار الثقافة والقوانين الفرنسية ليصبحوا مسلمين فرنسيين مندمجين يشكلون جيوب تبعية للاستعمار الفرنسي في حالة وجوده ورحيله، وهو ما تم بالفعل بعيد استقلال الجزائر المظاهري سنة ١٩٦٢م.

وما كاد يمضي على الجزائر والجزائريين قرن وثلث القرن من الاستعمار حتى كانت نسبة الأمية تشمل في رجاله ٩٥٪، وفي نسائه ٩٨٪[١٠٠].

هذه هي حضارة أوربا المسيحية التي حملتها إلى العالم العربي والإسلامي لتحضيره وتمدينه، والتي تربى في أحضانها الأجيال والناشئة من أمثال الشيخ المرحوم محمد الشبوكي.

وعندما زارها الزعيم المصري الكبير الأستاذ (محمد فريد بك وجدي) ووصف واقع الجزائر والشعب الجزائري الثقافي مع مطلع القرن العشرين، الذي تناوله بكثير من الفهم والعمق والشجاعة والإسهاب، واضعاً يده على الأسباب والدوافع الحقيقية والتاريخية له، ومما جاء فيه قوله: «...كانت ربوع العلم آهلة بالطلاب، وجوامع القطر الجزائري ملأى بالمعلمين والمتعلمين ودور الكتب عامرة بالمؤلفات والمطالعين، واشتهر من بين أهل الجزائر كثير من الكتبة والمؤلفين، إلى أن أخذت هذه الحال تتبدل في أوائل القرن الماضي، وكان الفتح[١٠١] الفرنساوي الضربة القاضية، على العلم وأهله بسبب اشتغال جميع الأهالي بمحاربة المغيرين على بلادهم، والدفاع عن ديارهم حقبة من الزمان، وما أعقب تلك المقاومة الشديدة من مصادرة الحكومة الفاتحة لأملاك أغلب العائلات الكبيرة، عقاباً لها عن دفاعها عن وطنها ومهاجرة الكثير من علمائها إلى البلاد الإسلامية الأخرى، ووضع الحكومة يدها على جميع الأوقاف الخيرية بلا استثناء بما فيها المحبوسة على الجوامع والطلبة والمدرسين مقابل ترتيب مبلغ زهيد في ميزانيتها لما بقي من الجوامع بعد التي حولت إلى كنائس، أو هدمت لإصلاح طريق، أو بناء قلعة، أو استعملت ثكنة للجند أو غير ذلك، فأصبحت البلاد، ولم يبق فيها من المدرسين بالجوامع إلا ما يعد على الأصابع، وقل الطالب والمطلوب، وهجرت ربوع العلم وخربت دور الكتب، وصارت الديار مرتعاً للجهل والجهلاء، ودرست معالم اللغة العربية، كما تطرقت إلى اللغة العامية الكلمات الأجنبية، بل أصبحت اللغة الفرنسية هي لغة التخاطب في العواصم مثل: وهران والجزائر وقسنطينة وعنابة، وغيرها من الثغور...»[١٠٢].

وفي ظل هذه الأوضاع الثقافية المتردية ولد وعاش وتربى وتعلم الشيخ محمد الشبوكي وأمثاله، ومارسوا نشاطهم الدعوي والإصلاحي الشاق الذي سنحاول الكشف عنه.

أصله ومولده ونشأته وتعلمه:

هو محمد بن عبد الله بن عمار شبابكي الشهير بالشبوكي، الشاعر والأديب والداعية والخطيب الكاتب والسياسي المتزن. من مواليد بلدة (الشريعة) سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٦م. ومن قبيلة (النمامشة) الأمازيغية الشهيرة. وببلدته الشريعة تلقى تعليمه الابتدائي الأول، فحفظ أجزاء من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف على يد والده. ثم أتم حفظ القرآن على يد معلم خاص، وأخذ المبادئ الأولى للعلوم العربية والدينية.

وفي أواخر سنة ١٩٣٢م التحق بمعهد نفطة الشرعي في زاوية سيدي مصطفى بن عزوز النفطي الجريدي الرحماني وظل بها طالباً للعلم مدة سنتين، وهنالك أخذ العلم على يد مشايخ أجلاء. أمثال الشيخ: (محمد بن أحمد) و(العروسي العبادي) و(إبراهيم الحداد) و(التابعي بن الوادي). وفي هذا السياق يقول الشيخ: هذه الفترة دامت حوالي عامين تتلمذت فيها على يد شيوخ عاملين بحق وكفاية وإخلاص للإسلام والعروبة، منهم الشيخ محمد بن أحمد، والشيخ العروسي العبادي، والشيخ إبراهيم الحداد، والشيخ التابعي بن الوادي، رحمهم الله جميعاً وجزاهم عنا كل خير. وكانت فترة طلب العلم في زاوية نفطة بالجريد التونسي تحويلية طيبة، حصلت فيها على المبادئ الأولى في اللغة العربية والفقه الإسلامي والنظرة الجديدة للميدان الثقافي، ومازلت أذكرها بخير. فنفطة في تلك الفترة كانت تتمتع بروح عربية محضة وبجو ثقافي ديني منعش أفادنا نحن الجزائريين كثيراً»[١٣].

وفي أواخر سنة ١٩٣٤م انتقل للدراسة في جامع الزيتونة المعمور، وظل يطلب العلم فيه مدة ثماني سنوات، وحصل في نهاية دراسته على شهادة التحصيل العليا للعلوم العربية والدينية سنة ١٩٤٢م. وعاد ليشتغل مدرساً أولاً في مدرسة تهذيب البنين والبنات بتبسة. وانتسب إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منذ أن كان طالباً في جامع الزيتونة سنة ١٩٣٤م، ثم صار عضواً عاملاً في المجلس الإداري لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بداية من سنة ١٩٥٢م. ولما بنى أهل بلدة الشريعة مدرسة عينه الشيخ العربي التبسي مديراً لمدرسة الحياة الابتدائية الحرة ببلدة الشريعة سنة ١٩٥٤م... إلى غاية اعتقاله[١٤].

وما يمكن ملاحظته على فترة نشأته وتعلمه أنها تتميز بالملاحظات الآتية:

١. حفظه للقرآن الكريم في سن مبكرة.
٢. أخذه للعلوم العربية والدينية في مراكزها الثقافية المغاربية المشهورة: (زاوية نفطة بالجريد التونسي، جامع الزيتونة).
٣. تثقفه على أيدي شيوخ مشهورين طيلة عقد من الزمن.
٤. نشاطاته الطلابية والحركية المتنوعة.

نشاطاته في جامع الزيتونة:

لم يكن الشيخ محمد الشبوكي من الطلبة الجامدين في جامع الزيتونة، بل كان من الطلبة الذين مزجوا طلب العلم مع الوعي الحركي، فقد أثر عنه نشاطه المتميز كنائب الكاتب العام لجمعية الطلبة الجزائريين في الزيتونة، كما كان من النشطين والساعين لتوعية الطلبة الجزائريين برسالتهم التي تنتظرهم في الجزائر المستعمرة. ولطالما وقف وقفة شجاعة في العديد من المواقف الحاسمة في تاريخ الجزائر، ويدون نشاطات جميعة الطلبة الجزائريين في جامع الزيتونة

ويرسل بها إلى جريدة البصائر لتنتشر فيها. ولعلنا نختار موقفين اثنين هما:

١- موقف جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين من قانون الثامن من مارس:

رداً على إصدار الإدارة الاستعمارية الفرنسية قانون الثامن من مارس المشؤوم القاضي بمعاقبة وتجريم كل من يمارس العمل الدعوي والتربوي الحر دون استلام رخصة من الحكومة الفرنسية. رفعت جميعة العلماء احتجاجها لممثلي الإدارة الاستعمارية الفرنسية عبر مختلف الوسائل ومنها التنديد في جريدة البصائر[١٤]. ولا يكاد يمر شهر على صدور قانون الثامن من مارس المشؤوم حتى عقد رجال الطرق والزوايا في الجزائر برئاسة السيد مصطفى القاسمي رئيس اتحاد الزوايا والطرق الصوفية بالجزائر. مؤتمراً تحت الرعاية السامية للحاكم العام بالجزائر العاصمة. وأيدوا قرار الإدارة الاستعمارية في مؤتمرهم. فردت عليهم جمعية العلماء بمقال من توقيع الشيخ عبد الحميد بن باديس كاشفة حقيقة خيانتهم وممالأتهم للاستعمار على حساب الشعب الجزائري الأعزل والمقهور. وفي أثنائها عقدت جمعية الطلبة الجزائريين بجامع الزيتونة مؤتمرها ونددت بمواقف الطرفين. ووقعت على عريضة ضمت اسم أكثر من مائتي طالب بتاريخ ٢١/صفر/١٣٥٨هـ الموافق ١٢/أفريل/١٩٣٩م. من بينهم شيوخ تبسيين كانوا طلبة في جامع الزيتونة آنذاك. منهم: (أحمد بن محمد. محمد الشبوكي. بوحراوة الحفصي. الشاذلي المكي. عبد الله شريط...))[١٥].

وقد ورد محرر البصائر بالكلمة المقتضبة التالية: ((...هذا صوت الجد. وزئير الشباب المثقف. وصراخ الحق المعذب. فليسمع الشعب الجزائري المسلم العربي. وليسمع «القوم» المستخفون بالشعب والعائثون في حاله والعابثون بمآله. أما كلمتنا لهؤلاء الشباب فهي «عرفت فالزم»... وأما كلمتنا إلى الأمة فهي: البشارة بقوة حقها وتحققه في المستقبل. فإن أمة يكون مثل هذا الشباب من أبنائها لجديرة ببلوغ المنى وخلود الحياة.))[١٦].

٢- تغطية الاجتماع العام لجمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين:

في مراسلة للشيخ محمد الشبوكي من تونس إلى جريدة البصائر عن الاجتماع العام لجمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين صدّر رسالته بأنات شعرية جاء فيها ما يلي: ((.....

قسماً بحقك أنني أهواك
وجميل حظي أن أنال رضاك
أماه حبك في الفؤاد معرس
رغم الوشاة ومهجتي مرعاك
كذب الألى يحنو على أوطانهم
بتكاسل وتواكل وتباكي
يهنيك أن بنيك في الخضراء قد
بعثوا الشعاع إلى سماء رباك
فتجمعت آراؤهم وتوحدت
كلماتهم في الكبح تحت لواك
وإذا المهاجر أينعت ثمراته
قل للجزائر أمة بشراك

بهذه القطعة التي انبعثت من قرارة قلبي أصدر ما وطدت عليه العزم من إبراز صورة مصغرة لمهرجان جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين. وبالنيابة عنها أتقدم إلى القراء الكرام ببيان

ما وقع في هذا الموسم السنوي الميمون، وأراني - قبل التعرض للموضوع - في حاجة إلى أن أقول كلمة حول التلميذ الجزائري الزيتوني: «إن الأكثرية الجزائرية الزيتونية أصبحت - خصوصاً في هذه السنة - تعمل بجد على رفع مستواها الأخلاقي والديني والثقافي والوطني أكثر من ذي قبل. ولئن صح ما قال الحكماء من أن الآلام تعلم الأقوام، فإن التلامذة الجزائريين لمن أول من تخرج من مدرسة الآلام وأول من «أنجبت أكاديمياً» الكوارث والأتراح. فأنت لا تكاد تجلس إلى أحدهم حتى يبادرك هو الآخر بحديثه عن ثقافة بلاده تلك، التي أصبحت منهوكة القوى، دامية القلب، مقوضة الصروح، وعن جهل أقوامه أولئكم الذين تعنتوا فعميت أبصارهم عن ساحل النجاة، وركنوا إلى كهوف الاستسلام والانخذال، فأصبحت قلوبهم كالحجارة لا ترق، ثم يستنتج من هذا كله قوله: «وها أنا قد هاجرت إلى ينابيع الحياة، وجعلت محط رحالي جامع الزيتونة، المنقذ من الضلال، ورجائي بعد ذلك أن أكون - إن هادنتني الأيام - من خدمة الوطن وحاملي لواء لغة دينيه وقرآنه، وإن غدرتني - وما أكثر غدرها - وحالت بيني وبين هدفي الوحيد، فحسبي أن أموت ولساني يردد:

لا تلم كفي إذا السيف نبا

صح مني العزم والدهر أبى

سمعنا هذا من جل تلامذة السنة الأولى والثانية، وسمعنا مثله من تلامذة السنة الثالثة والرابعة، بل الخامسة والسادسة، ولا علينا إن سمعنا ضده من بعض المتشائمين الظانين بكل حركة حيوية ظن السوء، ولنا بعد هذا أن نتساءل: أي شيء هذا هو الذي ربط بين المهاجرين لهذه الديار الكريمة؟ وأي مأوى هو هذا الذي جمع أشتات أفكارهم ومتلاشى أهوائهم حتى صاروا كالأسرة الواحدة وكالجسد الواحد يشتكون من الأمراض، ويتنافسون على صيدليات الأدوية والعلاجات؟ أما أنا فأقول: إنها جمعية الطلبة ولا شك جمعية الطلبة هي وحدها المنظار الدقيق الذي بسببه اهتدينا، فوضعنا الهناء موضع النصب، جميعة الطلبة على مؤسسها الأول باقات السلامات وأكاليل التحيات، وأعود إلى المقصود فأقول: كتب التوفيق لهذه الجمعية، وسُجل لها النصر في هذه السنة، بوفائها للعهود وحرصها على الأمل المنشود، ذلك أنها أقامت مهرجاناً عاماً تسابقت على منصته فطاحل الأدباء وفحول الشعراء بكيفية تمكننا من القول بأن مساء يوم الجمعة ١٤/ذي القعدة/١٣٥٧هـ الموافق٦/جانفي/١٨٣٨م كان لنا عيداً أدبياً زاهراً، بهر الألباب والأنظار، فما دقت الثالثة والنصف بعد الزوال حتى كانت قاعة قصر الجمعيات الفرنسية بشارع باريس مكتظة بمئات الحاضرين.

❖ التوقيع: محمد الشبوكي الكاتب الثاني والمراقب العام للجمعية...يتبع))[١٨].

وما يمكن ملاحظته على فترة تواجده بجامع الزيتونة ما يلي:

١. اجتهد في طلب العلم وتحصيل المعارف.

٢. انشغل بقضية أمته الجزائرية المستعمرة عن طريق حمل لواء التعريف بها.

٣. حمل رسالة الطالب المهاجر المغترب عن وطنه صاحب الهدف السامي.

٤. تولى نيابة رئاسة جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين والمراقب العام لها، وحساسية مثل هذه المسؤوليات على الطالب ولاسيما في ظل الحماية والظروف الاستعمارية.

٥. الرسالية في التوجه والمقصد، والأصالة في المبدأ والمنطق

أثر البيئة التبسية في ثقافته وتكوينه:

اضطلعت تبسة بدورها الحضاري منذ أن دخلها المسلمون الفاتحون الأوائل كبوابة للعروبة، وكرئة حيوية لتنسم عبير الشرق العربي، وكأريج منعش للحضارة العربية الإسلامية في الجزائر، وكمنفذ باتجاه الشرق العربي الإسلامي، الذي كانت ترتاد أساسياً ومددا لروحها وحياتها، وظلت كذلك طيلة هيمنة وسيطرة الممالك والدول الإسلامية المتعاقبة حتى دخول الفرنسيين غازين محتلين أراضيها يوم ٣١/ماي/١٨٤٢م، فساهمت القبائل التبسية في صد العدوان الفرنسي، واضطلعت بالدور الجهادي في العهد الاستعماري، وظلت تناوئ الاستعمار حتى نهاية القرن التاسع عشر، إذ هادنت عشائر تبسة السلطة الاستعمارية هدنة شكلية فقط سنة ١٨٩٧م، محتفظة بغيظها وعداوتها لها حتى ترمم أوضاعها التي تأثرت كثيراً تحت ضغوط الحملات القمعية المستمرة[15].

كما كان لها دورها الفعال بمشاركتها الجهادية في ثورة الطريقة الرحمانية الشهيرة العارمة التي اجتاحت القطر الجزائري كله، بعد هزيمة فرنسا أمام القوات الألمانية في حرب السبعين بقيادة (بسمارك) عام ١٨٧١-١٨٧٢م، وبعد فشل الثورة أعدم شيخ الجهاد فيها وممثل الطريقة الرحمانية (سيدي محمد الشريف الرحماني -) يرحمه الله - وهو أحد القادة الروحيين لثورة الزاوية الرحمانية بتبسة سنة ١٨٧٢م، ثم حمل رأسه إلى فرنسا، ووضع للعرض في متحف الإنسان بباريس، وصنف ضمن «المجموعات الإنثربولوجية»[16].

وهكذا ظلت تبسة تقدم التضحيات والصمود في سبيل المحافظة على مقومات الهوية الوطنية الجزائرية لتظهر مساهمتها المتميزة في مشاركتها الفعالة في تمرد عام ١٩١٦-١٩١٧م الشهير ضد الإدارة الاستعمارية، فيما سمي بتمرد العشائر الأوراسية[17].

كما شهدت أيضاً بوادر الحركة الإصلاحية في بدايات القرن العشرين، وتأسيسها المتميز لأول مدرسة عربية حرّة سنة ١٩١٣م، وتأسيس الجمعيات الأدبية والدينية والثقافية المختلفة، والتي نوهت بها جريدة النجاح بشكل ملفت للنظر، فقد نقلت جريدة النجاح[18] على صفحاتها جانباً من الوعي الحضاري لسكان تبسة في العديد من المناسبات، كما كانت تنشر المقالات والأبحاث والكتابات والخطب والدروس والمواعظ لمصلحيها أمثال الشيخ «مقداد العابد»، الذي كانت له سلسلة المقالات والدراسات والأبحاث الدينية المتميزة بالصفحات الطوال، والشيخ «سليمان بن طيار البيضاوي»، إمام الجامع الوحيد في المدينة، ورمز الهوية العربية الإسلامية في البلدة، ورمز الوحدة والصمود العربي الإسلامي فيها، حيث كانت تنشر مواعظه ودروسه وفتاويه وخطبه وكلماته، والشيخ العلامة «العربي التبسي» الذي كانت تنعته أسفل كل مقال يرسله بالعبارة التالية: «هذا المقال لفضيلة المفكر النشيط صاحب الإمضاء المقيم بالقاهرة»[19].

كما برز الكثير من علمائها ورجالها المصلحين، من أمثال: المفكر الإسلامي (مالك بن نبي ١٩٠٥-١٩٧٣م) والشيخ العلامة (العربي التبسي ١٨٩١-١٩٥٧م...) واضطلاعها بالدور الأكبر في إشعال لهيب الثورة التحريرية الكبرى، وشهودها لأكثر وأكبر معارك الثورة التحريرية المباركة، معركة الجرف الكبرى أيام ٢٨...٢٢/ سبتمبر/ ١٩٥٥م[20].

الوعي الحضاري عند أهل تبسة:

وقد تميز أهل تبسة عن غيرهم من سكان القطر

الجزائري بحيوية الوعي الحضاري المتيقظ فيهم. حيث عرفت تبسة حركة نهضوية متسارعة مست البنى الأساسية للعقل وللوجدان فيها. فقد كانت من بين أهم المناطق التي قاومت الاستعمار. كما ظلت تدير مقاومة شرسة ضده حتى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. حيث اتخذت أشكالاً أخرى للمقاومة كتأسيس الجمعيات والنوادي والمراكز الثقافية والدينية والأدبية والتربوية والتعليمية والرياضية والفنية. والانخراط في مؤسسات الإدارة الفرنسية الرسمية والانتخابية. ولعل إلقاء الضوء على الحركة الجمعوية في ولاية تبسة مطلع القرن العشرين يكشف لنا أهمية الوعي الجمعي الذي عبر عنه المرحوم مالك بن نبي حينما وصفه بالشعور الجمعي المشترك الذي بدأ يتكون. وفي ذاتية القرار المشترك الذي بدأ يتشكل بين أهل تبسة.

وقد وصف الأستاذ مالك بن نبي دور النادي الثقافي الذي أسسته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بتبسة سنة ١٩٣٨م بقوله: ((في المدينة أضحى النادي القلب الذي تنظم نبضاته جريان الأفكار وانتشارها. فالتبسيون كانوا يجتمعون فيه في الظروف التي تهم الناس جميعاً. وكان رجال القبائل يترددون عليه أيضاً حين يؤمون سوق المدينة وكانوا يحملون معهم الأفكار التي ينشرونها ليبذروها في الدواوير خلال السهرات تحت الخيمة..))[٢٠].

كما وصف الأستاذ مالك بن نبي في مذكرات شاهد القرن وضع تبسة الديني والاجتماعي والثقافي قبل مجيء الشيخ العربي إليها بقوله: «...فثمة تطورات جديرة بالملاحظة تؤرخ لهذا التحول. فقد بدت حلقات الرقص تشهد فراغاً من حولها. وكانت من قبل تستقطب في العادة الجزائريين. يتزاحمون بالمناكب حول الحلبة. التي في داخلها يرقص كل زوج من الأوروبيين والأوروبيات.

لقد بدت الروح الاجتماعية تتجلى في تبسة. وهاهو ذا المجتمع الجزائري الجديد قد ولد وأدعياء الثقافة الذين أطلقهم الاستعمار في السوق الجزائرية. والذين احتكروا بفضله وسائل التعبير قد شوهوا الأفكار الأكثر بداهة وبساطة. فمع هؤلاء انتقلت البلاد خلال ثلاثين عاماً من الزوايا التي وضعت تحت قيادة (المقدم). والقبيلة الخاضعة لسلطة سيدي الحاكم عبر (القايد) إلى جمهور من الناخبين لا اتجاه لهم ولا لون يقودهم الزعيم. وإلى عمال منظمين تستغلهم حفنة من اللصوص. وإلى جمعية طلاب يوحي إليهم ممثلوهم كيما يهرعوا زرافات إلى محاضرة ما. ويقاطعوا أخرى وفق الحسابات الدقيقة لسفارة أجنبية. لا شعور جمعي. ولا ذاتية قرار. وهما اللذان يكونان المجتمع...»[٢١].

ثم يذكر تأثيرات الشيخ العربي المباشرة بعد عودته من مصر إلى تبسة بقوله: «في شهر آذار من عام ١٩٢٨م وجدت تبسة تغلي بحمى الإصلاح. لقد بني المسجد الجديد والمدرسة. وقد جمعت التبرعات من الناس من أجل البناء. وامرأة عجوز من «الزاوية» تبرعت بديك معتذرة بأن ذلك هو كل ما لديها. كل قد أسهم بحسب قدرته. وكان هناك من أسهم لكي يراهن على المستقبل. فالمستقبل حتى تلك اللحظة كان في اتجاه إرادة الشعب. فكان للمرء أن يصبح مكافحاً في سبيل الإصلاح لخدمة هذا الشعب أو لاستغلاله.

حتى «المقدم» الشريف الوقور مقدم الطريقة القادرية في تبسة أقفل زاوية تبسة بمحض إرادته.

ووضع المفتاح تحت الباب ليصبح معلماً بسيطاً للقرآن في المدرسة..»[27].

ثم يتناول توزع خط الإصلاح والتقليد بمدينة تبسة بعد مجيء الشيخ العربي بقوله: ((.. واتضح أكثر في تبسة خط التوزيع الإيديولوجي بين مريدي الشيخ الإمام «سي سليمان» ورواد الفكة الإصلاحية يجتمع أولئك حول شيخهم بعد كل صلاة عصر عند صومعة المسجد العتيق في انتظار صلاة المغرب. ويجتمع هؤلاء حول الشيخ العربي التبسي بمخزن: سي الصادق بوذراعس. وكانت الخصومة حامية بين الطرفين. ولا شك أن الحكومة كانت أكبر منتفع من الخصومة. فكانت تدس في المعسكرين من يضرم نارها..))[28].

والمتمعن في وصف صاحب مذكرات شاهد القرن الذي عاش في تبسة تلك الأحداث وعايشها يتبين عزم وإرادة أهل المدينة الأكيد على حب ممارسة الإصلاح ومدى سعيهم الدؤوب إلى التأثر برياح الإصلاح الهابة آنذاك على سكان مدينة.

كما عرفت- كغيرها - في مطلع القرن العشرين نهضة ثقافية وإصلاحية وإعلامية وسياسية وفي معرض حديثه عن طفولته بتبسة تناول المرحوم مالك بن نبي وضع مدينة تبسة الثقافي والتعليمي والتربوي والإصلاحي والسياسي والصراع القائم بين الزعيم السياسي الوطني الحر السيد عباس بن حمانة والزعيم ابن علاوة الذي كان من أنصار الإدارة الفرنسية. كما تناول دور المسجد الجامع العتيق وشيخه المصلح الشيخ سليمان بن طيار. الذي بدأت على يديه حملة الوعي والإصلاح. وقد أشار إلى اضطلاع أعلام الإصلاح بتبسة مع الشيخ سليمان بالعمل الإصلاحي منهم الشيخ المرحوم الصادق بن خليل الدرباسي التبسي الأزهري. والشيخ عسول العبيدي الأزهري. والشيخ الطيب بن مبروك باشا.

وقد شهدت مدينة تبسة سنة ١٩١٣م الموافق ١٣٣١هـ تأسيس أول مدرسة عربية إسلامية حرَّة في الجزائر المستعمرة. وهي المدرسة الصديقية. التي اشترك في تأسيسها الرجلان (عباس بن حمانة) مع الشيخ (علي العنق الميزابي). هذه المدرسة التي كانت من ثمار الجمعية الصديقية الخيرية الإسلامية بتبسة. والتي نوّه بها الشيخ الصحفي (المولود الزريبي)[29]. في جريدته (الصديق) بمقال تحت عنوان (أول مدرسة حرة نظامية بالقطر الجزائري)[30]. كما نوّهت بها جريدة (البريد الجزائري)[31].

ومما يدل على ارتفاع نسبة الوعي لدى سكان تبسة ولاسيما لدى نخبها المثقفة ومدى إحساسهم بالروح الإسلامية الجامعة تجاه سقوط الخلافة العثمانية. أنهم قد أرسلوا برقية - بمناسبة انعقاد المؤتمر الإسلامي بالقاهرة يوم ١٣/٥/١٩٢٦م. والمسمى بمؤتمر الخلافة الإسلامية - إلى رئيس مكتب المؤتمر وإلى مفتي الأهالي المسلمين الجزائريين الرسمي الشيخ المولود بن الموهوب يوم ٤/٥/١٩٢٦ بالجزائر العاصمة[32] مؤيدين المؤتمرين ومنبهيهم إلى المخاطر الجمَّة التي سيواجهها المسلمون من جراء عدم تعيين الخليفة الإسلامي. بعد إلغاء الخلافة والسلطنة. وإعلان قيام الدولة العلمانية في تركيا. التي تعادي الإسلام[33].

تأدبه على يد الشيخ العربي التبسي:

وبعد عودة الشيخ محمد الشبوكي من تونس سنة ١٩٤٢م والتحاقه بالتدريس بمدارس جمعية العلماء (تهذيب البنين والبنات) كان يشارك في الحركة الثقافية بتبسة. حيث كانت تبسة يومها

شعلة ثقافية وفكرية وأدبية دون سواها في القطر الجزائري. وكان من بين العلماء الذين تتلمذ وتأدب على أيديهم وسمع دروسهم الخاصة والعامة الشيخ العلامة العربي التبسي الذي وصفه فقال: «..لقد كنت أحضر دروسه التي يلقيها بمسجد المدرسة. وهي دروس يقدمها للعامة بعد صلاة العشاء. استفدت كثيراً من هذه الدروس. التي كان يحلق فيها الشيخ الجليل إلى آفاق علمية واجتماعية وتربوية وأدبية..لأن الشيخ العربي من أعظم علماء العالم الإسلامي كما يعرفه من اتصل به وخاصة في علم الأصول. كان فريد عصره بين علماء الجزائر. زيادة على أخلاقه الفاضلة ووطنيته الأصيلة المتأصلة وشجاعته القلبية. وقد امتحن كثيراً من قبل الاستعمار الفرنسي. ونفي وسجن رغم هذا كله فقد كان ثائراً ضد الاستعمار الفرنسي قبل الثورة. ومن أقواله: «... يجب على كل جزائري وجزائرية الاحتفاظ بعداوته لفرنسا. ومن مات فليصحب معه هذه العداوة إلى القبر». في خطابه الذي ألقاه في الاجتماع الأخير لجمعية العلماء المسلمين يوم ٧/جانفي/١٩٥٦. أعطاني الكثير. كيف يكون الثبات على المبدأ الصحيح. وأعطاني حب الوطن الجزائري. وكذا الاعتماد على الله. ثم على النفس. وهو شهيد بار لربه ولدينه ولوطنه...»[٣٤]. وقد مدح الشيخ العربي التبسي في العديد من المناسبات. وأحيى كل الملتقيات التي أحيت ذكراه بعد استشهاده سنة ١٩٥٧م. وألقى فيها أفضل ما عنده من الشعر بعد الاستقلال.

وقد لعب الوعي التبسي دوره في صياغة شخصية الشيخ محمد الشبوكي. الذي نزل المدينة في بداية العقد الخامس من القرن العشرين ووجد المدينة غاصة بالرجال والمصلحين وبوادر الحركة الإصلاحية ماثلة فيها. كما وجد فيها معوقي الإصلاح. فقرر شق طريقه في صف الإصلاح. والانخراط فيه بقيادة جمعية العلماء المسلمين. ولكن بسلوكه سبيل العلم الذي بوأ أولئك الذين كانوا من قبله للزعامة الإصلاحية والدينية والسياسية والتربوية في المدينة. وقد وصف هذه الحركة المرحوم مالك بن نبي في كتابه مذكرات شاهد القرن.

ريادته للحركة الأدبية بتبسة بعد الاستقلال:

وكان من رواد الفكر والثقافة في تبسة. حيث كان من أعلام مكتبة الشيخ العربي التبسي. يرتاد رفقة مجموعة من أعلام الفكر والثقافة والعلم والأدب بتبسة أمثال: (سعدي الصديق ت ١٩٦٨م) و(مالك بن نبي ت١٩٧٣م) و(سعدي الطاهر حراث ت ١٩٨١م). و(عيسى سلطاني ت ١٩٩٢م) و(العيد مطروح ت ١٩٩٣م) و(فارس الحبيب ت١٩٩٤م). والدكتور عبد الله شريط... ولا يترك مناسبة أو حفلاً أو تجمعاً عاماً أو خاصاً رسمياً وشعبياً إلاّ ووقّع فيه بأحرف من ذهب العربية. ولا سيما في القاعة المجاورة لمكتبة الشيخ العربي التبسي حيث كانت النشاطات الثقافية والفكرية والأدبية تُعقد لطلبة العلم. وقد أثنى عليه التلميذ البار الأستاذ المدير المتقاعد الشيخ (بوبكر بوعبيطة) حينما كتب لي هذه الجمل فقال: «...لقد مرّ على أحداث هذه النبذة الوجيزة ما يفوق الثلاثة عقود من الزمن تقريباً. عرفت حينها رجال تربية وثقافة من الرعيل الأول. الذي وضع حجر الأساس لبعث الحياة الثقافية من أدب وعلم بمختلف موضوعاته وأغراضه. وقد ولت تلك العقود سراعاً. ولم يبق منها سوى ما تزودنا به من علم وثقافة أولئك الرجال. وقد تناوب على تسيير المكتبة إدارياً مشايخ طيبون وأساتذة مبجلون. أذكر منهم الشيخ مبروك شريط والشيخ إبراهيم روابحية رحمه الله. والشيخ سعدي الصديق رحمه الله والشاعر الشيخ

محمد الشبوكي والأستاذ عبد الله شريط...»[٦٠].

وكان من المشاركين في المجلس الإسلامي الأعلى وعضواً عاملاً فيه، وحاضراً بقوة في كافة جلساته الفقهية والفكرية والأدبية والثقافية والوطنية والعربية والإسلامية والدولية. فضلاً عن حضوره الدائم في ملتقيات الفكر الإسلامي التي كانت تعقد بالجزائر سنوات (١٩٦٨-١٩٩٢). وقد حضرت عدداً من هذه الملتقيات وكنت ألتقي به فيها. فبدءاً من ملتقى الحضارة الإسلامية سنة ١٩٨٠م بالجزائر العاصمة، وملتقى الصحوة الإسلامية في بجاية سنة ١٩٨٥م، وملتقى الاقتصاد الإسلامي بسطيف سنة ١٩٨٦م، وملتقى الحياة الروحية في الإسلام في معسكر سنة ١٩٨٧م، وملتقى الأقليات المسلمة بالجزائر سنة ١٩٨٨م، وملتقى المجتمع الإسلامي بتبسة سنة ١٩٨٩م، وكنت أراه مشاركاً في فعاليات هذه الملتقيات.

غيرته على اللغة العربية والإسلام:

كان الشيخ محمد الشبوكي يرحمه الله أحد أعمدة العروبة والإسلام في الجزائر كلها، وصار علماً على مدينة تبسة، وقد شهد له القريب والبعيد بمواقفه الشجاعة لنصرة قضايا الدين والعربية في الجزائر. في الجلسة الربيعية للمجلس الشعبي الوطني سنة ١٩٩٠م التقينا به ونحن في رحلة علمية إلى مصر. كنا ثلة من الباحثين الجامعيين[٦١]، خارج ردهات المجلس كئيباً مهموماً فاتراً. فتجاذبنا معه أطراف الحديث عن هموم الأمة. فأخبرنا أنه كان بصدد خروجه من قاعة المجلس ليتنفس شيئاً من الهواء النقي مقابل الواجهة البحرية نظراً لما لمسه من أعداء العربية أثناء مناقشة وعرض قانون اللغة العربية على أعضاء المجلس الشعبي الوطني، وشعوره برائحة الخيانة المتخفية تحت عباءة الكثيرين من ممثلي الأمة. فضلاً عمّا احتلته اللغة العربية من مساحة بارزة في ديوانه الشعري، لأنه كان يعتبرها من أبرز مقومات الهوية الجزائرية، وهي أخص مظهر يقرب الأمة الجزائرية من تحقيق تمايزها.

عوامل نبوغه:

اجتمعت جملة من العوامل الفطرية والمكتسبة لتجعل من شخصية الشيخ محمد الشبوكي شخصية نابغة ومتميزة في عصره، وأهم هذه العوامل هي:

١. انتسابه لأسرة كريمة ومحافظة ومتوسطة الحال، تحب العلم والأدب والفضل.
٢. تلقيه تربية دينية وأخلاقية صالحة، وبقاؤه وفياً لفطرته السمحة التي فطر الله الناس عليها، فلم يُعرف عنه التبديل أو التغيير أو التحريف أو الانزلاق..
٣. ذكاؤه وفطنته وشجاعته وجرأته في الحق، وثراء قدراته ومواهبه الفطرية المتعددة.
٤. حفظه للقرآن الكريم في سن مبكرة، وحفظه للأحاديث والأخبار، وتعلمه اللغة العربية.
٥. تتلمذه على يد الشيخ المرحوم العربي التبسي وحضوره لدروسه الخاصة والعامة سنوات ١٩٤٢-١٩٥٦م، وغيره من الشيوخ الذين كانوا يحضرون إلى تبسة أو يلتقيهم في اجتماعات المعلمين الأحرار أو المرشدين أو في اجتماعات المجلس الإداري للجمعية.
٦. طلبه للعلم على يد ثلة من العلماء الأكابر في زاوية نفطة بالجريد التونسي، حيث ساهم هؤلاء في تكوين النخب النهضوية الجزائرية عموماً والتبسية خصوصاً.
٧. التحاقه بجامع الزيتونة وتلقيه العلم على يد الأكابر من علمائه، وتلقيه تعليماً جيداً

الشيخ الداعية محمد الشبوكي الزيتوني الجزائري شاعر الثورة الثائر

وحصوله على شهادة التحصيل في العلوم الدينية والعربية. وعن فضل جامع الزيتونة على النهضة الجزائرية الحديثة قال: «... وهو جامع ثري، لا بأس به. له فضل كبير في انتشار اللغة العربية في الجزائر بواسطة الطلبة الذين يتجهون إليه. ولولاه لما انتشرت اللغة العربية بسرعة في الجزائر أثناء الحقبة الاستعمارية. وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين نجحت في ميدانها التعليمي بواسطة المتخرجين في هذه الجامعة الزيتونية. وعلاقتنا بشيوخ هذا الجامع كانت طيبة جداً. ويحترموننا لكوننا أبناء الجزائر المحرومة آنذاك من مثل جامعة الزيتونة. وكنا نأنس منهم محبتهم القوية للجزائر ولشعبها...»[٣٧].

٨. انتسابه المبكر لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وانضمامه لمجلسها الإداري سنة ١٩٥٢م بعد تاريخ حافل بالدعوة والجهاد والتربية، وتشبعه بروح الإصلاح.

٩. سرعة بديهته. وقوة حافظته. وبيان عارضته. وذرابة لسانه. وبلاغة خطبه وبيانه. وشجاعته الأدبية المتميزة.

١٠. انخراطه في العمل السياسي في ولاية تبسة. حيث ترشح ثلاث مرات لرئاسة المجلس البلدي لبلدة الشريعة وفاز بها (١٩٦٨-١٩٨٠م)، ولرئاسة المجلس الشعبي الولائي لولاية تبسة (١٩٧٥-١٩٨٨م). ولتمثيل تبسة في المجلس الشعبي الوطني (١٩٨٨-١٩٩١م). وللتاريخ أنه يوم هزم في الانتخابات البلدية في المرة الرابعة ظل أعداء الخير والإصلاح ينقلون شاحنات الخمر لتوزع في أفراح واحتفالات الفساق في بلدة الشريعة بالمجان. نكاية في هزيمة الشيخ الذي ظل طوداً من أطواد الفضيلة في بلدة الشريعة وتبسة والجزائر كلها.

١١. عظيم إخلاصه وتضحيته وتفانيه في سبيل خدمة أمته ودينه ولغته وتاريخه العربي.

١٢. نشاطاته السياسية المتعددة المحلية والوطنية وغشيانه المحافل خطيباً وداعياً ومنشداً.

١٣. عضويته في المجلس الإسلامي الأعلى منذ تجديده برئاسة الشيخ المرحوم أحمد حماني سنة ١٩٧٢م إلى غاية حله سنة ١٩٨٧م.

١٤. مشاركاته الدائمة في ملتقى الفكر الإسلامي المنعقد بالجزائر سنوات ١٩٦٨-١٩٩٢م.

١٥. مواكبته الدائمة والمستمرة لأحداث عصره المحليّة والوطنية والعربية والإسلامية والعالمية. وحضوره الدائم والفعال في مختلف النشاطات والفضاءات المحلية والوطنية.

نشاطه الدعوي والإصلاحي:

وعليه يمكن تقسيم مراحل نشاطه الدعوي والإصلاحي إلى المراحل التالية:

١- المرحلة الأولى ١٩٣٢-١٩٤٢م:

وهي المرحلة التي بدأت منذ التحاقه بمعاهد العلم والدرس بالليانة بالخنقة ثم بنفطة بالجريد التونسي، وانتهت بالحصول على شهادة التحصيل مع جامع الزيتونة المعمور. والتعرف على الشيخ العربي التبسي ورجال الجمعية بتبسة والجزائر.

٢- المرحلة الثانية ١٩٤٢-١٩٦٣:

وهي المرحلة التي تبدأ بالتحاقه بالتدريس في مدرسة البنين والبنات بتبسة سنة ١٩٤٢-١٩٥٤م. وتسلمه إدارة مدرسة الحياة ببلدة الشريعة. إلى غاية اعتقاله سنة ١٩٥٦م. ثم خروجه من المعتقل بعد استقلال الجزائر وممارسته للتعليم بمدرسة

الحياة بالشريعة سنة ١٩٦٢-١٩٦٣. ثم قيامه بالتدريس في إعدادية «فرانتز فانونس بتبسة حتى سنة ١٩٦٨م.

٣- المرحلة الثالثة: ١٩٦٣-١٩٩١م:

وهي المرحلة التي تمارس فيه العمل السياسي بالترشح لرئاسة بلدية الشريعة لثلاث مدد متتاليات. ثم رئاسته للمجلس الشعبي الولائي لولاية تبسة. ثم ترشحه للمجلس الشعبي الوطني. إلى غاية سنة ١٩٩١م.

٤- المرحلة الرابعة ١٩٩١-٢٠٠٥م:

وهي المرحلة التي تبدأ مع تقاعده وملله من المناصب الرسمية والسياسية. وتفرغه للعمل الدعوي والتوجيهي والتثقيفي والأدبي والاجتماعي. وانخراطه ورئاسته للعديد من الجمعيات الدينية والاجتماعية والدعوية. وقيامه بالعديد من الرحلات إلى حين وفاته. فضلاً عن ممارسته العمل الدعوي الديني طيلة حياته كلها.

نشاطه السياسي:

اضطلع الشيخ محمد الشبوكي بنشاط سياسي ملفت للانتباه. ولم تكد تمر مناسبة سياسية وطنية. إلاّ وكان من بين أعلامها على الصعيدين المحلي والوطني.

والمتتبع لنشاطه السياسي يمكنه ملاحظة ميولاته السياسية منذ تواجده كطالب علم في الزيتونة سنوات ١٩٣٤-١٩٤٢م. حيث كان على صلة بما يحدث في الجزائر خاصة والمغرب العربي والعالم عامة. وكان انتسابه لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين يعبر عن انتمائه السياسي المدجن تحت عباءة العلم والعربية والإسلام. وظل كذلك حتى اندلاع الثورة التحريرية المباركة. التي سرعان ما انضم إليها مباشرة ودون تردد كسائر معلمي ومديري ومفتشي وتلاميذ مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. ولاسيما بعد بيانها التاريخي الصادر يوم ١٩٥٦/١/٧م. مما حرّك عيون الاستعمار تجاهه. فوشى به أعداء الثورة فسجنته السلطات الاستعمارية من يوم ١٩٥٦/٣/١٠م إلى يوم ١٣/ماي/١٩٦٢م. ووضع في معتقل (الجرف). ثم في معتقل (عين وسارة) وبعد الاستقلال عاد إلى الشريعة واشتغل بها مدرساً بمدرسة الحياة سنة ١٩٦٢-١٩٦٣م[٥٨].

ولما أجريت أول انتخابات بلدية حرة في عهد الاستقلال ترشح الشيخ فيها ونجح لنيل عضوية أول رئيس لبلدية الشريعة سنة ١٩٦٣م. وظل أهل البلدة ينتخبونه رئيساً لبلديتهم إلى سنة ١٩٧٥م.

ولما أجريت أول انتخابات ولائية محلية. انتخبه سكان ولاية تبسة رئيساً للمجلس الشعبي الولائي لولاية تبسة سنوات ١٩٧٥-١٩٨٨م. ثم ترشح للانتخابات البرلمانية ونجح لنيال العضوية في البرلمان الجزائري المجلس الشعبي الوطني إلى غاية سنة ١٩٩١م حتى حُلَّ البرلمان سنة ١٩٩١م[٦١].

منهجه ووسائله الدعوية والإصلاحية:

تنوعت أساليب الشيخ محمد الشبوكي الدعوية والإصلاحية والتربوية والتغييرية. بحيث لم يترك وسيلة ناجعة يستطيع أن يوصل بها رسائله التوعوية إلاواستثمرها أيما استثمار. ويمكن حصر رسائله وأساليبه الدعوية والإصلاحية في الوسائل التالية:

١. التربية والتعليم والتدريس في المدارس.

٢. الخطب والدروس الدينية والمواعظ المسجدية.

٣. الانخراط وتأسيس الجمعيات الوطنية والمحلية الوطنية.

٤. الكتابة في الصحف والمجلات العربية والإسلامية والجزائرية.

٥. حضور المؤتمرات والندوات والتجمعات الخاصة والعامة.

٦. ربط الصلة بالمشرق العربي لغة وروحاً وانتماء.

٧. إحياء قيم وماضي وتاريخ وأمجاد الجزائر في نفوس الشعب الجزائري.

٨. محاربة الطرقية والبدعة، وكل أشكال الخرافة.

٩. اتخاذ الشعر وسيلة تواصلية للتعبير عن مواقفه، والتأريخ لأحداث أمته ووطنه.

وبهذه الوسائل والأساليب والطرق التي مارسها مصلحو الجزائر، ومنهم الشيخ محمد الشبوكي استطاعوا أن يدعوا لقضيتهم العادلة، ويبشروا لمستقبل الجزائر المشرق، ويتركوا لمن خلفهم أثراً يضيء للأجيال اللاحقة...فيعتبروا بمناهج تقويض الظلام وممالكه.

مؤلفاته:

لم يترك الشيخ محمد الشبوكي بعد وفاته المؤلفات والمصنفات بسبب انشغاله بالعمل الدعوي والإصلاحي وتأليف قلوب الرجال، وما تركه سوى مقالاته وديوانه الشعري، التي تطوعت مطبعة متحف الجهاد بنشرها لديوانه سنة ١٩٩٥م. أما أدبياته الأخرى فمقالات موزعة على جريدة البصائر وجدت بعضها، ولم أعثر على الكثير منها[٤٠].

والظاهرة التي تميز علماء القطر الجزائري عن غيرهم من علماء الأقطار الإسلامية عموماً، والمغاربية خصوصاً قلة التصنيف والكتابة والتأليف، وتفضيلهم العمل الميداني الإحيائي في البيئة والواقع الاجتماعي، على العكس من غيرهم من العلماء الذين يكثرون من التصانيف كل حسب قدرته وطاقته وعمره وفنه.

ويعود سبب تواضع إنتاجهم النظري لعامل دعوي مهم انطلقوا منه بوعي وإصرار متميز ولاسيما خلال الفترة الاستعمارية البغيضة للجزائر ١٢٤٥-١٣٨٤هـ/١٨٣٠-١٩٦٢م، حيث رانت على بيئتهم وفردهم ومجتمعهم عوامل التخلف والأمية والجهل والضياع، بسبب سياسة الاستعمار الهمجية التي سلطها عليهم لمحو شخصيتهم، واغتيال هويتهم ووجودهم وحاضرهم ومستقبلهم، الأمر الذي استدعى حضورهم الدؤوب في الأنفس والواقع والوجود، وليعيدوا بذلك الحضور الشهودي في المساجد والمدارس والنوادي إلى الشعب الجزائري الضائع قسماته وخصائصه الدارسة، وبسبب القيود القمعية التي كانت الإدارة الاستعمارية تفرضها على الحرف العربي المطبوع والمكتوب، ولولا حضورهم المستمر في المساجد وتلاوة القرآن بشكل دوري كل يوم بعد الصلوات وبشكل جماعي وفردي، وتدريسهم لعامة الناس، وعبر الحلقات العلمية المتخصصة لانتهاء الإسلام من الجزائر بعد قرن من الاحتلال.

وانطلاقاً من هذا التشخيص الواقعي لأمراض أمتهم تحتم عليهم التركيز على محاربة مظاهر وأسباب التخلف والجهل والأمية والضياع، وذلك بفتح الكتاتيب القرآنية، والمدارس العربية الحرة، والنوادي الثقافية والأدبية والفنية والرياضية والكشفية، والمعاهد المتوسطة والعالية، وبناء المساجد الحرة، وتقديم الدروس التوعوية العامة فيها للكبار، والدروس والحلقات العلمية المتخصصة للناشئة الصغار.

ولم يكونوا يكتبون إلا في الصحف والمجلات

الخاصة بهم، أو التي تنتشر في العالم العربي والإسلامي، كصحف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (الشريعة، السنة، الصراط، الشهاب، البصائر)، أو بعض الصحف المستقلة كـ (النجاح الجزائرية) الصادرة بقسنطينة سنة ١٩١٩م، والتي توقفت عن الصدور سنة ١٩٥٦م، (الشعلة ١٩٤٧-١٩٤٩م)، و(المغرب العربي ١٩٤٧-١٩٤٨م)، أو بعض الصحف والمجلات العربية والإسلامية[١١].

فيعالجون في هذه الصحف قضايا وأمراض أمتهم، ويجيبون على فتاوى عامة، وينيرون درب السالكين، ويردون على المستعمرين، ويصححون الأخطاء على الدرب ويتجهون بالنصح والتوجيه لمن يتنكب الطريق.

نشاطه الشعري والأدبي:

وصف الأستاذ الأديب الشيخ محمد الطاهر فضلاء الشيخ محمد الشبوكي الشاعر - يرحمهما الله - بقوله: «...أما شاعر هذا الديوان، فهو ذلك الصوت الذي أضناه الشوق، وبرّحه الجوى، خنقته العبرة من الأسى، فغدا يحاكي في زفراته أنين العود المتقطع الرنين، المكدود الصوت، المبحوح الأنفاس والنغم، يريد أن يضع بلغته الحالمة أنفاس الخلود من تساؤلات شاعر الهند العظيم في أحلامه الغافية، وحداءاته الصافية، من مثل قوله:

في غابة الشرق «ناي» يبتغي نفسا

يا شاعر الشرق هل في صدرك النفس؟

أو يعتذر منشداً مع ابن الرومي:

كأنين المشتاق تيمه الوجد

فحاكى به أنين العود

أما شاعرنا - صاحب هذا الديوان - فهو زيادة عن ارتباطه العضوي بعهود النبوة حين كان شعراء المهاجرين والأنصار يذبون عن الحمى، حمى الله ورسوله والذين معه، فهو ذلك العالم، الأديب، الفنان، الذي يلتزم مهنة العالم المعلم في اختيار موضوعاته وأساليب لغته «العربية» التي غذته بخصائص معارفها، حتى صارت له سليقة لا يحتاج فيها إلى مصادر ومراجع التحقيق والتصحيح، فرصيده اللغوي والأدبي ومروياته الشعرية والنثرية، ونماذجه ومحفوظاته التراثية والموسوعية... كل هذا كان يحمي قلمه من الزيغ الشائن، ويحفظ لسانه من الخطأ المشوه، فهو حين يتحدث خطيباً، وتسعفه العربية ببيانها، يتمايل مع أسلوبه المشرق الجزل، فتخاله أشبه ما يكون بأستاذه العلامة الشهيد الشيخ العربي التبسي رحمه الله في العلماء الشهداء الأبرار.

أما حين يشرع شاعرنا - صاحب هذا الديوان- في إنشاد شعره وشعر غيره أيضاً - هادئاً متجاوباً مع أفكاره وعواطفه... فإنك تخاله ذلك الفنان الواعي الذي يمسك بقيثارته في حنو، فيعزف عليها لحناً منغماً مختلف الألوان، دونه دوي الأمواج في هديرها حول الأعماق أو خرير مياه النبع وهي في انسيابها على الحصى الذهبي تحكي نضرة النضار تحت مجهر الصائغ المحترف...»[١٢].

شاعريته:

أوجز الشيخ الحديث عن بداياته الشاعرية الأولى، فقال: «...منذ كنت أقرأ القرآن كانت لي نفحة للشعر وحفظت كثيراً لأشهر شعراء العرب، بدأت تنظيم الشعر عندما ذهبت إلى جامعة الزيتونة سنة ١٩٣٤، لكن محاولاتي الشعرية متقطعة، ما كنت عازماً على أن أكون شاعراً، وعندما رجعت من تونس بدأت أنظم، ولكن ما نظمته بين سنة ١٩٤٢-١٩٤٣ حتى اندلاع الثورة التحريرية ضاع كله، لأنه عندما ألقي علي القبض

تركته. وعندما عدت لم أجد ورقة واحدة. نظمت في المعتقلات بعض المقاطع، وضاعت بسبب تعسف الحراس. إذ كانوا يمزقون كل شيء حتى المصحف الشريف. وكل القصائد التي بقيت في ذاكرتي دونتها بعد خروجي من المعتقل. وهي تدور كلها حول الثورة والتوعية..»(٤٣).

وعن قراءاته الشعرية المتنوعة أوجز الشيخ الحديث عنها بقوله: «... أقرأ للمتنبي ولشوقي ولحافظ إبراهيم والرصافي شاعر العراق الفحل، أقرأ كذلك للشاعر محمد العيد آل خليفة. ولشاعر الثورة العملاق مفدي زكريا. ولمحمد الأخضر السائحي... وعن الشاعر المستهام قال:

على شاطئ الحلم الناعم

وفوق ربى موجه المتلاطم

يهيم بآماله الكبريات

ويصبو إلى فجرها القادم»(٤٤)

وعن نشيده الشعري الشهير الذي صار من أخلد وأكثر أناشيد الثورة التحريرية المباركة انتشاراً (**جزائرنا يا بلاد الجدود ❖ نهضنا نحطم عنك القيود**) أوجز الشيخ الحديث عن ملابساته بقوله: «...في مطلع شهر يناير سنة ١٩٥٦م جاءتني رسالة من جيش التحرير الوطني وأنا مقيم بالشريعة مديراً لمدرسة الحياة، وطلبوا مني أن أرسل إليهم نشيداً ثورياً ليحفظه الجيش ويتغنى به. فكتبت هذا النشيد، وأرسلته إليهم، وقد كتبته في جلسة واحدة. وأعدت قراءاته في الصباح، وأرسلته إليهم. ولم تمض مدة قليلة حتى ألقي القبض علي ليلة ١٠/فبراير/١٩٥٦م. وعبر سنوات الاعتقال كدت أنسى النشيد لولا أن الاستعمار نقلني وزملائي في الكفاح إلى المعتقل الأخير «عين وسارة» وعند دخولنا هذا المعتقل قام إخواننا الموجودون هناك داخل المعتقل باستقبالنا وأنشدوا بعض الأناشيد. ومنها نشيد «جزائرنا» ولما سألت أحد الإخوان عن مصدر حصولهم على النشيد. رد قائلاً: «حفظته في جيش التحرير بالجبال الشمالية للوطن». ثم بعد ذلك وجدته مكتوباً في كراس أحد المعتقلين، ولكن كتابته غير صحيحة في كثير من الأبيات. فطلبت من صاحب الكراس أن أكتبه له في صفحة أخرى وبكيفية صحيحة. دون أن أعلمه بأنني صاحب النشيد. وأشعر أنه مساهمة بسيطة جداً. وليست له قيمة نشيد «قسما» وإنما عمل شعري متواضع...»(٤٥).

وقد ترك الشاعر ديواناً شعرياً ضخماً. طبع بمطبعة متحف الجهاد بالجزائر العاصمة سنة ١٩٩٥م. بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من المقالات الأدبية والفكرية والثقافية واللغوية والتربوية. والكثير من الخطب والدروس والكلمات الرسمية والشعبية والأدبية.

ولو يكن للشيخ محمد الشبوكي غير قصيدة «جزائرنا» لكان شاعرا بها. وهي القصيدة التي تغنى بها أبطال وجنود ومجاهدو ثورة التحرير المباركة. والتي كانت سبباً في دخول الشيخ المعتقلات الفرنسية الرهيبة طيلة ست سنوات. وهي من القصائد التي اعتمدت من بين الأناشيد الوطنية والرسمية للدولة الجزائرية بعد الاستقلال:

جزائرنا يا بلاد الجدود

نهضنا نحطم عنك القيود

ففيك برغم العدا سنسود

ونعصف بالظلم و الظالم

سلاماً سلاماً جبال البلاد

فأنت القلاع لنا و العماد

وفـيـك عـقـدنـا لـواء الـجـهـادْ

ومـنـك زحـفـنـا عـلـى الـغـاصـبـيـن

قـهـرنـا الأعــادي فـي كـلِّ وادْ

فـلـم تَـجُـدهـمْ طـائـرات عـوادي

ولا الـطـنـكْ يَـنـجـدهـمْ فـي الـبـوادي

فـبـاءوا بـأشـلائـهـمْ خـاسـئـيـن

وقـائـعُـنـا قـد روتْ لـلـورى

بـأنـا صـمـدنـا كـأسـد الـشـرى

فـأوراسُ يـشـهـدُ يـوم الـوغـى

بـأنَـا جـهـزنـا عـلـى الـمُـعـتـديـن

سلُوا جـبـل الـجـرُف عـن جـيـشـنـا

يـخـبّـركـمُ عـن قُـوى جـأشـنـا

ويـعـلـمـكُـم عـن مـدى بـطـشـنـا

بـجـيْـش الـزعـانـفـة الآثـمـيـنْ

بـجـرجـرة الـضـخـم خـضـنـا الـغـمار

وفـي الأبـيـض الـفـخـم نـلـنـا الـفـخارُ

وفـي كـل فـج حـمـيـنـا الـذمـار

فـنـحـن الأبـاةُ بـنـو الـفـاتـحـيـن

نـعـاهـدكـمْ يـا ضـحـايـا الـكـفـاح

بـأنـا عـلـى الـعـهـد حـتـى الـفـلاحْ

ثـقُـوا يـا رفـاق بـأنَّ الـنـجـاح

سـنـقـطـفُ أثـمـارهُ بـاسـمـيـن

قـفـوا و اهـتـفـوا يـا رجـال الـهـممْ

تـعـيـشُ الـجـبـالُ، و يـحـيـا الـشـممْ

وتـحـيـا الـضـحـايـا، و يـحـيـا الـعـلمْ

وتـحـيـا الـدّمـاءُ، دمـا الـثـائـريـن[٤٦]

مميزات شخصيته:

تميزت شخصية الشيخ بين دعاة ومصلحي عصره بالكثير من الفرائد والقيم والأخلاق والسلوكيات المثالية. ويحيه لطلب المعالي. فهو يقول مرغباً الشباب للتطلع للعلا:

راح يستلهم الحقائق في الكون

ويشدو بكل لحن جديد

راح يسمو إلى المعالي بجزم

واصطبار يفل عزم الحديد

كما كان - يرحمه الله - محباً لوطنه. يرى الجزائر قلب المغرب العربي النابض. بلد الشجاعة والإقدام والكرم. داعياً الأمة إلى الإخلاص للوطن. لأنّ التاريخ لا يرحم كل متكاسل مهمل. حريص على أغراضه الشخصية. تاركا العمل لمصلحة الوطن. ولطالما تغنى ببيت شوقي الشهير تعبيراً عن حبه لوطنه:

وطني لو شغلت بالخلد عنه

نازعتني إليه في الخلد نفسي[٤٧]

ولأن الشاعر قد اكتوى بنيران الاستعمار فقد ظل وفياً لوطنه. مسايراً للكثير من الانحرافات التي عرفتها الجزائر بغرض الحفاظ على عروبة وإسلام وانتماء الجزائر. ولأنه جرب قمع المستعمر فقد آثر الحرية على ما فيها من تكدرات مؤسسات الدولة. آملاً إيجاد سبل الإصلاح والرقي بالأمة الجزائرية التي أنهكها قهر وقمع الاستعمار الفرنسي. والتي طالما كان ينشدها في كل نشاطاته. وقد تميزت شخصيته بالجوانب المضيئة التالية:

١- الخطيب الفحل:

كما تميز ببراعة بيانه وبلاغة خطبه المدوية في

أعماق النفوس. فقد قال في إحدى خطبه الرائعة مخاطباً ومستنهضاً الأمة الجزائرية العربية المسلمة بمناسبة ذكرى ميلاد الرسول ﷺ: أيها الفجر السعيد..ها قد أشرقت على العالم الإسلامي أربعة عشر قرنا إلاّ قليلا. منذ عهد «الغار» فأين هي تلك الحضارات التي كانت تستقبل إشراقك بأرواح وإرادات تشرق بمعاني القرآن وسيرة محمد والراشدين من بعده؟ فهلا شعرت - منذ قرنين على الأقل - بأن أشعتك أصبحت لا تجد أمامها إلاّ رسوماً وخرائب تندب حظها الداثر وجدها العاثر. ودهرها الجائر؟ ألا ما أشبه العالم الإسلامي اليوم بمناحات لا ترقأ لها دموع، ولا يهدأ لها عويل، ولا يخف لها أسى. فأنى اتجهت إلى رقعة من رقاع الإسلام لا تسمع إلاّ الأنين. ولا ترى إلاّ البؤس ضارباً بجرانه كالليل محكماً سيفه كالعدو منتقماً لنفسه كالموتور سنحت له الفرصة. ومع ذلك فالمسلمون في العدد كثير؟ حنانيك يا مبدع الفجر. ورحماك يا من أرسلت محمداً حجة على الشرق والغرب: أفي مجاري النبوة يغيض ماء اليقين؟ وفي رياض القرآن تجدب الأرواح من رياحين الفتوة. وفي مسارح الحرية تساق الجماهير الإسلامية بسياط الاستعباد؟ سبحانك سبحانك... وقلت لنفسي ونحن نتشاكى في ليلة المولد بهذا اللون من الحديث: هل لك في أن نلتجئ إلى كتاب في السيرة عسى أن يذهب عنّا الحزن. وتبرد هذه اللوعة؟ فأجابت بالقول فتناولت كتاباً وتصفحت فوقعت عيناي للنظرة الأولى على حديث: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي كتاب الله وسنتي». فغمرتني الدهشة كأني لم أقرأ هذا الحديث قط/ وفيما أنا أفكر في أسباب الحيلولة بين المسلمين وبين العمل بقول الرسول الأعظم إذا بصوت المؤذن داوياً بأذان الفجر: الله أكبر الله أكبر...»[٤٨].

٢- الأديب المتميز:

كما تميز ببراعة بيانه. وعذوبة أسلوبه. وسلامة معانيه، ورقة ألفاظه، وشاعرية صوره. فقد كتب مناجياً النفس الجزائرية الحزينة وحظها من التمتع بالربيع كفصل من فصول السنة، وحظها في التمتع بربيع الحياة الكريمة في ظل الحرية والاستقلال والانعتاق من ربقة العبودية والاستعمار. ومما جاء في مقاله العذب قوله: «...قالوا: إن الربيع شباب الزمان، فقلت في نفسي هو ذاك ولا ريب. وهذا سهل تبسة أبلغ من قصيدة «الحلي»، بل ما لي أذهب بعيداً وهذه شجرة عجوز قريبة مني قد نفخ فيها الربيع من روحه فوخزتها الخضرة فأورقت، ولكن أيكون مع ذلك أن الزمان لا تبدو مظاهر شبابه إلاّ في اخضرار الحقل واعشيشاب السهل، وغناء الطير وانطلاق الساقية؟ ونحن؟ ألسنا كذلك جزءاً من الزمان بل ألسنا نحن قافلة الزمان؟ فلم لا نشب كما يشب الزمان. فهل منينا بهرم أبدي؟ لئن كان غيري قد ودّع الشتاء والتفت باسماً يستقبل حياة الربيع ليأخذ منها نصيبه الأوفر ليتجدد مع الزمن، فأنا ذلك الذي لا يعرف من حياة الزمن إلا شتاء متجدداً طوله السنوي أربعة فصول. لست متشائماً يا رفاق فتفاؤلي وحبي للحياة هو شعوري وحساسيتي، ولكنني أحبها حياة حية تجعل الفرق واضحاً بين الأحياء منا وبين سكان المقابر. أحبها حياة صحيحة كالحق. مشرقة كالنور، حلوة كاليقين. أحبها حياة تملؤها الأعمال، وتحرسها الرجولة، وتنير جوانحها أقباس البراءة . وتشدو في خمائلها بلابل الأخوة والتراحم، فإن كان هذا

تشاؤماً فاللهم حبب إلي التشاؤم كما حببت التفاؤل إلى قوم آخرين...»[٤٤].

٣- المربي الجسور:

أمضى الشيخ أكثر من ثلاثة عقود من عمره في التربية والتعليم. ودرّس في مدارس جمعية العلماء واحتك بخيرة رجالها ومعلميها ومفتشيها ومديريها على رأسهم العلامة والمربي الكبير المرحوم الشيخ العربي التبسي. وقد استفاد الشيخ محمد الشبوكي من مصاحبته للعمل في مدارس جمعية العلماء الخير الكثير. ولذا فقد كان يعبر عن آداب الجمعية في التربية، التي كان يراها أساس التعليم. وفي هذا الصدد كتب مقالا تربوياً قيماً، جاء فيه بعض القواعد المهمة: «(..إذا كان لكل شي أساس عليه يبنى، وبه يتقوم فإن لتعليم الناشئة وتثقيفها لأساس عظيم الاعتبار. لا تظهر فوائد التعليم. ولا تُجنى ثمراته إلاّ به. وما ذلك الأساس إلاّ تربية الناشئة. وتغذيتها بكل ما يتدرج بها إلى الكمال. وينمي في نفوسها الصغيرة معاني الفضلية. وليس المقصود من كلمة «التربية» ذلك المعنى الضيق الذي لا يتجاوز إرهاب الطفل وإكراهه على الخضوع إلى قوانين المدرسة خضوعاً لا يجد معه لذة ولا يتنشق فيه عبير الحرية. بل المقصود من الكلمة معنى أوسع وأسمى وأعظم خطراً من ذلك. ولعلي لا أكون مخطئاً إذا قلت: إن هذا المعنى هو توجيه الطفل إلى الصلاح بأساليب تمليها شخصية المعلم نفسه، فعلى المعلم أن يفهم جيداً أن سلوكه الحسن مع تلاميذه هو المادة الأولى والهامة من مواد التعليم. فإذا كان هذا صحيحاً - ولا أخاله إلا صحيحاً- فجدير بالمعلم أن يعنى - قبل عنايته بتلقين مادة الدرس وشرحها- بشرح شخصيته لتلاميذه وإفاضته عليهم من روحه، وأن يثق بأنه لا يكتب له النجاح في مهمته التعليمية إلاّ إذا أجاد ذلك الشرح وبرع في تلك الإفاضة»[٤٥].

وعن وظيفة المعلم التربوية والتعليمية التي أمضى فيها قرابة الثلاثة عقود يبين لنا من خلاله مقاله القيم، حيث يقول: «...فوظيفة المعلم حينئذ ذات طرفين: تربية، وتعليم، ولا يحصل الطرف الثاني إلاّ بحصول الأول. كما لا تكون النتيجة إلا بمقدمتها. ومن هنا نعلم سر تفاني علماء التربية والتعليم في بذل الثلثين من جهودهم تقريباً في استكناه غوامض النفس وسبر أغوارها حتى يكونوا بذلك شعاعاً وهاجاً يهتدي به المعلم في طريقه إلى كشف مجاهل الطفل والسير به إلى حيث الكمالات الممكنة..»[٤٦].

وعن برامج العملية التربوية والتعليمية وتحضيراتها المادية والمعنوية ينبهنا إليها بقوله: «..ولست في حاجة إلى القول بأن الاعتناء بالناحية المادية من برامج التعليم، وإهمال الناحية الروحية منها هما اللذان تشكو مدارسنا أثرهما السيء في نفوس التلاميذ، فنحن وإن كنا نحمد الله على أن لنا مدارس شيدناها بأنفسنا رغم الأهوال والأغوال. وضحينا في سبيلها بكل مرتخص وغال. إلاّ أن ذلك كله لا يمنعني من الهمس بحقيقة حلوة - ولا أقول مرة - في آذان إخواني المعلمين ملاحظاً لهم بأننا أمناء هذه الأمة الجزائرية على أبنائها الذين هم معقد آماله. ومكامن معنويتها. وجيل مستقبلها. ولا يمكن لنا أن نرعى هذه الأمانة بكل إنصاف. إلاّ إذا أنصفنا أنفسنا. فقوينا نواحي الضعف منها، وكملنا جوانب النقص فيها، حتى تكون لنا هذه النفوس أغزر مادة للتربية تعيننا على واجبات التعليم. وبهذا - أيها الإخوان - لا بغيره نستطيع أن نقولها صريحة مدوية: ثقي أيتها

الأمة الجزائرية العربية المسلمة بأننا سنكون من أبنائك جيلاً شعاره العروبة الناطقة، ودينه الإسلام الصحيح..»[٥٢].

٤- المجاهد العاشق للحرية:

تغنى الشيخ منذ صباه بفجر الحرية، وتأمل بزوغ طلائعه من الأفق البعيد، وتنسم عبيره القادم على الشعب الجزائري، ولكنه ضجر من عفن العبودية، وقهر الاستعمار، فكتب مناجياً باحثاً عن الربيع في كل مكان: «.. ها أنا ذا فوق هذه الربوة بين غاب كشعور الحسان وسهل كنحورهن، أفتش في مجاهل نفسي عن حياة الربيع، كما يفتش الشاعر في ضباب الأخيلة عن المعنى الشرود، أين أنت أيها الربيع؟ لقد فتشت عنك في نفسي فلم أجدك وبحثت عنك في نفوس تلاميذي فلم أر لك أثراً، وتساءلت عنك في نفوس أصدقائي ومجتمعات إخواني فلم أشم لك برقاً، ألعلك راغب عنا لزهدنا في التجدد، وراغب في غيرنا لتفانيهم في تجديد الحياة ومسايرة الزمن؟ فإن كان هذا - يا ربيع الحياة - فعلى نفوسنا جنينا، ولا عليك ملام، آه لقد تنكر كل شيء حتى الربيع، حتى الشمس، حتى النسيم، حتى الطبيعة، ها أنا ذا فوق هذه الربوة أناجي نفسي هذه الوفية، التي لا تخدعني في استجلاء الحقيقة، ولا تماريني على ما أرى من مظاهر المرئيات، وقد خُيِّلَ إلّي كأن الربوة ارتفعت ثم ارتفعت، حتى لكأنها أعلى جبل في القطر الجزائري، فأخذت ألوح ببصري هنا وهناك، يمنة ويسرة، فإذا الأرض الجزائرية كلها من السواحل إلى الصحارى تتدانى من الجبل، وإذا بي أرى عجباً: أرى الكثرة الساحقة من الشعب الجزائري مشردة في الفيافي، فلا مسكن إلّا الكوخ البائس، ولا فلاحة إلّا في الأراضي التي لا تصلح للفلاحة، ولا وسائل للوقاية والعلاج من الأمراض إلا المقابر، ولا غذاء للعقل إلّا الأمية، ولا كرامة للإنسان إلّا مضاعفة الإرهاق، هكذا رأيت هذه الأكثرية مرزوءة في أرضها، مسلوبة من كل حقوق البشر تحت سمائها، وتسمعت إلى أصواتها فلم يصل إلى سمعي إلّا أنغام تتقاطر حزناً، وتفرست في الوجوه فلم أر إلّا أخاديد الألم، وتحسست نبضات النفوس فلم آنس إلّا اليأس من الحياة، وبحثت عن الربيع في كل أولئك فلم أشعر إلا بحرارة الشمس، ثم حوّلت نظري فرأيت طائفة أخرى قليلة العدد كثيرة العدة، نزحت من أرض أخرى، وألقت عصا الترحال في هذه البلاد، فاستباحت سهولها الخصبة، ومنابع الرزق فيها، بعد أن أحلت أهلها إلى الفيافي ومخارم الجبال، وباتت هي المالكة والمستثمرة، يولد وليدها فلا يفتح عينيه إلّا على مرافق الحياة وأسباب السعادة المجتمعة: مسكن جميل توفرت فيه وسائل الصحة، مدرسة مشيدة، حقل واسع غني، مستقبل كله آمال باسمة، فقالت لي نفسي: لا تعجب إذا ما رأيت الربيع - بأسمى خصائصه كما يتغنى به شعراؤنا- متجلياً في هذه الطائفة، فما الربيع في أدق معانيه إلّا حياة «للأرض الجديدة» فحظ الإنسان منه لا يكون إلّا بقدر حظه من الأرض، ومن هنا جاء الفرق بين أدبياتنا وأدبيات القوم، وبين فلسفتنا في الحياة وفلسفتهم، فالمحروم من الأرض محروم من الحياة، ولو قدر لقوانين الطبيعة أن تخضع لقوانين البشر لكان المحروم من الأرض محروماً من الهواء والماء وأشعة الشمس، ولكن...لقد كانت هذه الأرض

لأبائي وأجدادي. وأما اليوم فهي ملك للسيد فلان الأوروبي. وأما أنا فإني أعمل فيها الآن كأجير لا تفي أجرته اليومية بقوت العيال... أوشكت الشمس أن تنتصب في كبد السماء. وتلك النزعات بدأت تتجمع في الأفق. وعما قريب ستستحيل إلى غمامة ماطرة فودعت ربوتي وأخذت طريقي إلى المدينة أمشي كالبهائم. لا أدري أين أضع رجلي. وما كنت ألتحق بالطريق المعبدة حتى رأيت منظراً أوقفني ورض فؤادي. وإن تشئت تقاسمني الألم فأعلم أنه منظر قافلة من بنات العرب... قد انحدرن من الجبل يحملن فوق ظهورهن حزماً من الحطب الجزل ذاهبات بها إلى السوق ليشترين بأثمانها قوت ليلتهن هذه التي هي إحدى ليالي الربيع...نعم لقد تنكر لنا كل شيء...»[٤٣].

تأثيراته الإصلاحية:

ترك الشيخ آثاراً إصلاحية واضحة، يمكن حصرها في المعالم الآتية:

١- خلّف جيلاً من الطلبة والتلاميذ الذين صاروا من خيرة إطارات الدولة الجزائرية.

٢- ترك بصمات إصلاحية لا تمحى في بلدية الشريعة وفي ولاية تبسة أثناء ترؤسه للمجلس البلدي والولائي.

٣- مشاركاته المتميزة وحضوره الدائم في الحركة الفكرية والدينية والثقافية والأدبية واللغوية الوطنية والمحلية، ولا سيما ولايات الأوراس.

٤- توقيعاته العميقة في سائر المناسبات والذكريات الوطنية والدينية العربية والإسلامية.

٥- اعتباره من القيادات الروحية والدينية والأدبية والثقافية في ولاية تبسة.

٦- ديوانه الشعري الذي خلّد مآثر الفرد الجزائري في النصف الثاني من القرن العشرين.

وفاته:

وبعد حياة حافلة بالعطاء والبذل والتضحية أسلم الشيخ محمد الشبوكي روحه لبارئها يوم الاثنين ٦/جمادى الأولى/١٤٢٦هـ الموافق ١٣/٦/٢٠٠٥م. بعد معاناة أليمة مع المرض. وشيع رحمه الله جثمانه في موكب جنائزي جماهيري مهيب. حضرته الوفود من كافة أنحاء القطر يتقدمهم المجلس العلمي والإداري لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بقيادة الشيخ عبد الرحمن شيبان. بعد أن ضاقت البلدة عن زوارها وضيوفها ومشيعيها. ولم يجد الناس مكاناً لأداء الصلاة عليه إلا جماعات جماعات. ودفن بمقبرة بلدة الشريعة يوم الثلاثاء٧/جمادى الأولى/١٤٢٦هـ الموافق ١٤/٦/٢٠٠٥م. عن عمر يناهز التاسعة والثمانين. بعد أن ترك تراثاً تربوياً ودعوياً وأدبياً وشعرياً وعلمياً مهماً. ولاسيما في مجال الشعر الثوري والوطني والقومي والعربي الإسلامي. فليرحمه الله وليحشره في زمرة الخالدين.

والخلاصة:

والخلاصة المعرفية التي نخرج بها من هذه الإطلالات السريعات على حياة ومنهج وفكر ومسيرة وتاريخ ونضال هذا الرجل الرباني. الذي قايض وباع واشترى مع ربه. والذي جاهد في الله حق جهاده، وأمضى ردحاً مباركاً من عمره في معتقلات الاستعمار. هو الإدراك الناصع لمفعلات وعوامل النهوض الحضاري في الأمة المتخلفة. وأدبيات تحريك الفرد المتخلف المقهور بعد عصر سقوط دولة الموحدين. بإحياء القيم والمثل الربانية في شباب الأمة، وضخ العزيمة

الإسلامية التي لا تلين ولا تستكين في ضمائرهم، حتى تخالط قلوبهم وأرواحهم، فيهبوا زائرين كما تهب أسد الشرى من عرينها غضوبة، وتنقض بقوة على جند الشيطان. فتبدد جحافله الآثمة، وتفرق جموعه الجاثمة.

ولن يتأتى هذا النصر إلاّ بعزيمة لا تقهر، وبشباب يجعل همّه النهوض بالأمة، الذي يصدق فيه قول الشاعر الجزائري (محمد العيد آل خليفة ت١٩٧٩م) عندما قال:

إن الشباب إذا سما بطموح

جعل النجوم مواطئ الأقدام

وبمثل تضحيات هذا الشيخ انتصرت الجزائر، بعد أن كادت تضيع من حظيرة العروبة والإسلام. وصدق فيهم قول ربهم حينما صدقوا معه فكانوا مصداق صحابة بدر الذين قيل فيهم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات/١٥). فهل نصدق مع رسالتنا؟ ذاك هو السؤال المصيري والاستراتيجي الذي يجب أن نطرحه على أنفسنا.

والله من وراء القصد.

* * *

الحواشي

١. للاطلاع على البيان التاريخي انظر: جريدة البصائر، السلسلة الثانية. السنة التاسعة، عدد ٣٤٩/ الجمعة ٢٩/جمادى أولى/١٣٧٥هـ الموافق ١٣/١/١٩٥٦م. ص ١. وجريدة الأهرام القاهرية عدد ٢٥٢٥٣ بتاريخ ٢٠/١/١٩٥٦م. وفي جريدة الأخبار المصرية عدد ١١١١ بتاريخ ٢٠/١/١٩٥٦م. وقد تضمن البيان التاريخي ديباجة تمهيدية شارحة لوضع الجزائر مذ وطئتها أقدام الاستعمار الفرنسي. وقد حمل الشيخ العربي باسم الحاضرين الإدارة الاستعمارية كل ما حلّ بالشعب الجزائري. أو انظر: أحمد عيساوي. منارات من شهاب البصائر. مطبعة الوليد. وادي سوف. الجزائر. الطبعة الأولى. ٢٠٠٦م. ص ٢٥١ و٢٥٢.

٢. توفي الشيخ البشير الإبراهيمي بعد سنة من فرض الإقامة الجبرية عليه من حكومة الاستقلال الوطني يوم ٢٠/ماي/١٩٦٥م. الموافق ١٩/محرم/ ١٣٨٥هـ بالجزائر العاصمة. ولمزيد من الاطلاع انظر محتوى البيان التاريخي: ((بسم الله الرحمن الرحيم...كتب الله لي أن أعيش حتى استقلال الجزائر. ويومئذ كنت سأستطيع أن أواجه المنية مرتاح الضمير. إذ تراءى لي أني سلمت مشعل الجهاد في سبيل الدفاع عن الإسلام الحق، والنهوض باللغة. ذلك الجهاد الذي كنت أعيش من أجله إلى الذين أخذوا زمام الحكم في الوطن. ولذلك قررت أن ألتزم الصمت. غير أني أشعر أمام خطورة الساعة. وفي هذا اليوم الذي يصادف الذكرى الرابعة والعشرين لوفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس - رحمه الله- أنه يجب علي أن أقطع ذلك الصمت، إن وطننا يتدحرج نحو حرب أهلية طاحنة. ويتخبط في أزمة روحية لا نظير لها. ويواجه مشاكل اقتصادية عسيرة الحل. ولكن المسؤولين - فيما يبدو - لا يدركون أن شعبنا يطمح قبل كل شيء إلى الوحدة والسلام والرفاهية. وأن الأسس النظرية التي يقيمون عليها أعمالهم يجب أن تنبعث من صميم جذورنا العربية الإسلامية لا من مذاهب أجنبية. لقد آن للمسؤولين أن يضربوا المثل في النزاهة. وألا يقيموا وزناً إلا للتضحية والكفاءة. وأن تكون المصلحة العامة هي أساس الاعتبار عندهم. وقد آن أن يرجع لكلمة الأخوة - التي ابتذلت - معناها الحق. وأن نعود إلى الشورى التي حرص عليها النبي ﷺ. وقد آن أن يحتشد أبناء الجزائر كي يشيدوا جميعاً مدينة تسودها العدالة والحرية. مدينة تقوم على تقوى من الله ورضوان. الجزائر في ١٦/أبريل/١٩٦٤م محمد البشير الإبراهيم)). انظر: محمد الطاهر فضلاء. أعلام الجزائر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي. مطبعة البعث. قسطينة. الطبعة الأولى. ١٩٦٧م. ص١٥.

٣. تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يوم

الثلاثاء ١٧ذو الحجة ١٣٤٩هـ الموافق ٥ماي ١٩٣١م. بنادي الترقي بالجزائر العاصمة بحضور أغلبية علماء القطر الجزائري. انظر: محمد البشير الإبراهيمي. الجلسة التمهيدية لجمعية العلماء. مجلة الشهاب. الجزء السادس. المجلد السابع. قسنطينة. غرة صفر ١٣٥٠هـ الموافق جوان ١٩٣١م. ص ٢٤١- ٢٤٤. وقد أسست جمعية العلماء العدد الكبير من النوادي الثقافية والفكرية والأدبية والفنية في أنحاء الجزائر حتى لتكاد كل قرية أو بلدة صغيرة تعتز بوجود ناد ثقافي تابع للجمعية. كما توسعت في إنشاء النوادي في فرنسا. حيث أسست قرابة العشرة نواد لأبناء الجزائر المقيمين في فرنسا سنة ١٩٣٨م. كما لعب نادي تبسة التابع لجمعية العلماء دوره الريادي. والتثقيفي بسبب وجود الشيخ العربي التبسي فيه. وقد أسس أهل تبسة ناديهم مجاورا للثكنة العسكرية الفرنسية سنة ١٩٣٣م. انظر: مالك بن نبي. مذكرات شاهد القرن. دار الفكر. دمشق الطبعة الرابعة. ١٩٨٤م. ص ٢٦٢...١٨٥. انظر: جريدة البصائر. عدد ١٠٣. ١١ مارس ١٩٣٨م. جريدة البصائر. عدد١٠٨. ١٥ أفريل ١٩٣٨م. كذلك جريدة البصائر. عدد ١١٧. ١٠ جوان ١٩٣٨م. انظر: عبد الحميد زوزو. الهجرة ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين ١٩١٩-١٩٣٨م. المؤسسة الوطنية للكتاب. الطبعة الأولى. ١٩٨٥م. ص ١٣٥.

٤. أبو القاسم سعد الله. أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر. دار الغرب الإسلامي. بيروت. الطبعة الثالثة. ج١. ص٥٦. وجمال قنان. قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث. منشورات متحف الجهاد. الجزائر. الطبعة الأولى. ١٩٨٨م. ص١٨١. ١٨٢.

٥. المرجع نفسه. ج١. ص٥٨...٥٦.

٦. عثمان سعدي. عروبة الجزائر عبر التاريخ. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. الطبعة الأولى. ١٩٨٠م. ص٩٣.

٧. المرجع نفسه. ص ٩٣. ٩٤.

٨. تركي رابح. التعليم القومي والشخصية الوطنية. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. الطبعة الأولى. ١٩٨٦م. ص ١٠٧ و١٠٨.

٩. المرجع نفسه. ص ..٩٤. ٩٦. ١١٩...١١٥. ١٩٦. ٢١١. ٣١٨...

١٠. تركي رابح. التعليم القومي. ص ٩٥.

١١. لا يقصد الأستاذ فريد وجدي بك بمفهوم الفتح نفس الدلالات المعرفية المرادفة للفتح الإسلامي. بل وهو المفكر والزعيم الوطني والعربي- هو أبعد من أن يعد الغزو الفرنساوي فتحاً بدلالاته الإسلامية.

١٢. محمد فريد بك وجدي. التعليم والمدارس في الجزائر. جريدة اللواء المصرية. عدد ٦١٢. ١٩٠١/١٠/١٢م. نقلاً عن: تركي رابح. الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح التربوي في الجزائر. ص ٩٧. ٩٨.

١٣. نور الدين مراح. لقاء مع شاعر الثورة الشيخ محمد الشبوكي. جريدة الشروق الثقافي. عدد ٢٤. ١٣/يناير/١٩٩٤م. ص ٥. وقد ذكر المفكر مالك بن نبي هؤلاء الشيوخ في مذكرات شاهد القرن عندما تحدث عن نهضة تبسة والشيوخ الذين ساهموا في نهضتها وأين طلبوا العلم وذكر هؤلاء الشيوخ الفقطيين الجريديين التونسيين. الذين كان لهم الفضل في تعليم شيوخ تبسة. ومقدمة ديوان الشيخ. مطبعة متحف الجهاد. الجزائر. الطبعة الأولى. ١٩٩٥م. ص ٣٠٢.

١٤. المرجع نفسه. نور الدين مراح. لقاء مع شاعر الثورة الشيخ محمد الشبوكي. جريدة الشروق الثقافي. عدد ٢٤. ١٣/جانفي/١٩٩٤م.

١٥. انظر جريدة البصائر. السلسلة الأولى. السنة الرابعة. عدد ١٥٦. قسنطينة. الجمعة ١٨/محرم /١٣٥٨هـ الموافق ١٠/مارس/١٩٣٩م. ص١.

١٦. جريدة البصائر. السلسلة الأولى. السنة الرابعة. عدد ١٥٢. قسنطينة. الجمعة ٨/ربيع ١ /١٣٥٨هـ الموافق ٢٨/أفريل/١٩٣٩م. ص٢. ٣.

١٧. المصدر نفسه.

١٨. انظر:جريدة البصائر. السلسلة الأولى. السنة الرابعة. عدد ١٥٦. قسنطينة. الجمعة ١٨/محرم /١٣٥٨هـ الموافق ١٠/مارس/١٩٣٩م. ص٧. لم أستطع الحصول على العدد الثاني الذي به تتمة المقال.

١٩. لمزيد من التوسع انظر: شلالي عبد الوهاب. دور منطقة تبسة في مقاومة الاستعمار. دار الهدى. عين مليلة. الطبعة الأولى. ٢٠٠٦م. ص ٣٣.

٢٠. نشرت المجلة التاريخية الفرنسية في شهر أفريل ٢٠٠٦م. وثيقة تاريخية تعود إلى سنة ١٨٨٥م. بتوقيع الدكتور «ف ريبو» وهي عبارة عن نص الرسالة التي أرسلها مدير متحف الإنسان بباريس إلى مدير المجلة يشرح له في مراسلته تلك إرسال قيادة الجيش

الفرنسي العامل في الجزائر مجموعة من رؤوس قادة وزعماء المقاومة الشعبية، وقد تضمنت رسالة مدير المتحف إلى رئيس تحرير المجلة أسماء لرؤوس أولئك الزعماء، حيث علقت في أذن كل رأس وثيقة معلومات عامة عنه، وقد ذكرت المراسلة أسماء قائد مقاومة الزعاطشة «الشريف بوبغلة» والقائد «بوزيان» وشريف تبسة، بالإضافة إلى رؤوس مئات المقاومين الشهداء الجزائريين وهذا نص المراسلة: ((تلقينا من أحد المتعاونين مع مجلة السيد الدكتور «ف. ريبو» الرسالة التالية التي تحتوي على تصريحات سيطلع عليها القارئ دون شك باهتمام: سيدي الرئيس: إن «بوزيان» التي قطعت حسب تصريحات السيد «فيران» بعد حصار الزعاطشة تم الاحتفاظ بها مثلما احتفظ برؤوس بوبغلة والشريف الذي قتل في المعركة التي حدثت تحت أسوار تبسة من طرف الملازم جابي وهي الآن جزء من المجموعات الانثربولوجية بمتحف باريس، وأنا الذي قمت بإرساله إلى هذه المؤسسة الغنية بمحتوياتها التاريخية، وعلى كل رأس من تلك الرؤوس توجد بطاقة - عبارة عن قرطاس طويل - كتب عليها اسم الشريف الذي تم قطع رأسه، وتاريخ موته، وختم المكتب السياسي لقسنطينة، وتوقيع السيدين دونوف و غزيزلي، وفيما يلي أذكر لكم الظروف التي وقعت فيها بين يدي:....)) التوقيع ف. ريبو. نقلاً عن سعيد جاب الخير مترجم الرسالة، جريدة الشروق اليومي، عدد ١٦٧٦، الأربعاء ٣/ماي/٢٠٠٦م، الموافق ٥/ربيع ٢/ ١٤٢٧، ص ١٨، بتصرف.

٢١. أبو القاسم سعد الله، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م، ج٢ ص ٢٤٠.

٢٢. تعريف موجز بجريدة النجاح الجزائرية ١٩١٩-١٩٥٦م: أول صحيفة جزائرية حرة تظهر بعد الحرب العالمية الأولى، ساعد في إخراجها الشيخ عبد الحميد بن باديس، وقد ظهرت جريدة أسبوعية في بداية أمرها، وفي سنة ١٩٣٠م صارت يومية يطبع منه خمسة آلاف نسخة، وقد رئس تحريرها الشيخ عبد الحفيظ بن الهاشمي الطولقي، ثم انضم إليه إسماعيل مامي، وهي جريدة إخبارية عامة، سايرت الإصلاح الفردي قبل ١٩٣١م، ثم مشت في ركاب الجمعية في سنتها الأولى، ثم اختارت مواكبة جمعية السنة والطرقيين، توقفت عن الصدور أثناء الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩-١٩٤٥م - وعاودت إلى حين توقفها سنة ١٩٥٦م، وقد غطت الكثير من أخبار الوطن عامة وتبسة خاصة، كما نشرت العديد من أخبار الزعماء التقليديين الموالين لفرنسا كخطب الشريف محمد الشريف بن عمر الشريف، وغيره من الباشاغاوات والقادة، وقد اطلعت شخصياً على كل أعدادها بأرشيف ولاية قسنطينة سنة ١٩٩٧، وصورت العديد من النسخ التي تخص الحركة الإصلاحية بتبسة، وهذا التعريف بالصحيفة قمت به بعهد تصفحي لكل أعدادها، وقد أوردت تعريفاً بها من خلال تقديم الدكتور محمد ناصر لها.

٢٣. انظر جريدة النجاح: مسألة الخلافة، جريدة النجاح، عدد ٢٩٥، ٢٤ شوال ١٣٤٤هـ، الموافق ٧ماي ١٩٢٦م، ص ٢، وبرقية أهل تبسة، جريدة النجاح، عدد ٢٩٦، ٣٠ شوال ١٣٤٤هـ، الموافق ١٤ ماي١٩٢٦م، ص٢ تبسة الجمعية الخيرية، عدد ١٤٤، الجمعة ١/فبراير/١٩٢٤م، ص٣.

٢٤. انظر: شارل روبير أجرون، الاضطرابات الثورية في الأوراس والنمامشة ١٩١٦-١٩١٧م، مجلة الأصالة، عدد ٦٢، ٦٣، السنة ٧، ذو القعدة، ذو الحجة/١٣٩٨هـ أكتوبر نوفمبر/١٩٧٨م، ص ..٨٠، وأحمد عيساوي، مدينة تبسة وأعلامها.

٢٥. مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، ص ١٨٥.

٢٦. المصدر نفسه، ص ١٦٨ و١٦٩.

٢٧. المصدر نفسه، ص ١٨٤، ١٨٥.

٢٨. المصدر نفسه، ص ٢٤١، ورد في نص الأستاذ مالك بن نبي المصطلحات التالية:

١) المقدم: هو شيخ الزاوية، وهي درجة دينية يمنحها له شيخ الزاوية الكبرى الأم.

٢) القايد: لقب إداري استعماري منحته السلطات الاستعمارية لرؤساء القبائل ممن يواليها لتسهيل مهمتها فيهم.

٣) سي سليمان بن طبار البيضاوي سبق التعريف به في كتابنا مدينة تبسة وأعلامها.

٤) سي الصادق بوذراع سبق التعريف به وبمخزنه الذي كان يبيع فيه القمح والقهوة وهو كائن في قلب تبسة القديمة.

٥) المسجد العتيق بتبسة سبق التعرف به، وفي الملحق صورة عنه.

٦) الزاوية: حي كبير بتبسة تسكنه عامة الناس بني حول زاوية سيدي عبد الرحمن العيساوي، وقد ولد فيه كل أعمامي...وقد سبق التعريف بكل هؤلاء الأعلام في كتابنا(مدينة تبسة وأعلامها) ، دار البلاغ، ٢٠٠٥م.

٢٩. الشيخ المولود الزريبي البسكري. من مواليد بلدة زريبة الوادي بالقرب من بسكرة. درس في الأزهر ثم عاد إلى الجزائر معلماً ومصلحاً وأسس الصحف، ومنها صحيفة الصديق. تولى التدريس بالجامع الأعظم بالعاصمة. وتوفي سنة ١٩٣٥م بعد ترك العديد من المؤلفات. انظر: عمار طالبي، آثار بن باديس، ج١، ص ٢٧.

٣٠. دبوز، نهضة الجزائر، ص ٢٦٣.

٣١. محمد ناصر، المقالة الصحفية الجزائرية، ١٩٠٣-١٩٣١م، ج٢، ص ٣٧، نقلاً عن: جريدة البريد الجزائري، عدد ٣، ١٢/٩/١٩١٣م، وجريدة الصديق، عدد ٣٠، ١٨/٤/١٩٢١م.

٣٢. الشيخ المولود بن الموهوب ولد بقسنطينة عام ١٨٦١م، وبها تعلم ودرس وأسس نادي صالح باي الذي ألقى فيه الكثير من محاضراته الفكرية والعلمية. وكان يلقي دروس الوعظ والإرشاد بالجامع الأخضر. وقد تقلب في المناصب إلى أن عين مفتياً رسمياً للمذهب المالكي سنة ١٩٠٨م. وقد نشر العديد من المقالات في الصحف العربية. توفي سنة ١٩٣٩م. انظر: محمد علي دبوز، نهضة الجزائر، ج١، ص١٣٤، وغيره من المراجع.

٣٣. لمزيد من التوسع انظر مايلي: حضر الشيخ العربي التبسي وغيره من الطلبة الجزائريين المقيمين بالأزهر الشريف ملتقى الخلافة الإسلامية بالقاهرة أيام ١٣- ١٩ مايو ١٩٢٦م، وأرسل رسالة إلى أهل تبسة يحثهم فيها على المشاركة في ملتقى الخلافة بأي شكل من الأشكال، ولو بالبرقيات. وقد جاء ملتقى الخلافة الذي عقد تحت إشراف علماء الأزهر، ورقابة الملك (فؤاد الأول) ملك مصر، الذي كان يطمح بقوة ليسمى خليفة المسلمين، لاسيما بعد سلسلة الإجراءات الاستئصالية التي دشنها (مصطفى كمال أتاتورك) ضد الخلافة الإسلامية العثمانية. حيث ألغى نظام الـ ٢٠ أكتوبر ١٩٢٣م، ليلغي نظام الخلافة نهائياً يوم ٢ مارس ١٩٢٤م، مما اضطر المسلمين إلى عقد ملتقى الخلافة بالقاهرة، والذي حضره الشيخ العربي عندما كان في سنته الأخيرة طالباً في الأزهر. وقد أرسل أهل تبسة لمدير تحرير جريدة النجاح بقسنطينة برقية لغرض المشاركة في أشغال ملتقى الخلافة. وقد عنونت جريدة النجاح البرقية تحت عنوان: (حوادث داخلية. وجاء في تقييمها ما يلي:

لم يبق للموعد المضروب لاجتماع مؤتمر الخلافة بالقاهرة إلا سبعة أيام وقد تعذرت مشاركة الشعب الجزائري الفعلية بهذا المؤتمر، وتعينت النظرية الثانية التي ألمع إليها حضرة الأستاذ (الحافظي)، وهي الاقتصار على الإبراق إلى أساتذة جزائريين محرزين على الشهادة العالمية بالأزهر، وذلك بعد أن توافينا برقيات من مختلف الأنحاء بالقطر الجزائري، وقد كان الظن أن تتحرك الأمة نحو هذه الحركة الدينية الخالصة، ولكن العزائم لم تكن ماضية لحد أن اعتبر هذا المؤتمر كاجتماع بسيط، وهذا تلخيص مدير تحرير جريدة النجاح لبرقية أهل تبسة قبل نشرها: (ولتمثيل مسلمي تبسة في المؤتمر الذي سينعقد يوم ١٣ ماي الجاري بالقاهرة لأجل تعيين الخليفة، ونحن نترك لكم تمام الحرية في العمل لمصلحة المسلمين. الإمضاء: مسلمو تبسة)، وهذا نص برقية أهل تبسة الموقعة باسمهم بعد تقديم أدبي من مدير التحرير: (تبسة يوم ٣مايو ١٩٢٦: عبد الحفيظ مدير جريدة النجاح بقسنطينة، نرغب منكم بإلحاح أن تبادروا باستعمال كل الوسائل الناجعة لتمثيل مسلمي تبسة في المؤتمر الذي سيعقد يوم ١٣ مايو الجاري بالقاهرة لأجل تعيين الخليفة ونحن نترك لكم تمام الحرية في العمل لمصلحة المسلمين، الإمضاء: مسلمو تبسة).

❖ راجع: مسألة الخلافة، جريدة النجاح، عدد ٢٩٥، ٢٤ شوال ١٣٤٤هـ، الموافق ٧ ماي ١٩٢٦م، ص ٢.

❖ راجع: برقية أهل تبسة، جريدة النجاح، عدد ٢٩٦، ٣٠ شوال ١٣٤٤هـ، الموافق ١٤ ماي ١٩٢٦م، ص ٢.

ثم حوار مع الشيخ الحفصي شقيق الشيخ، تبسة شهر جوان ١٩٩٦م، حول حضور الشيخ للمؤتمر.

٣٤. نور الدين مراح، لقاء مع شاعر الثورة الشيخ محمد الشبوكي، جريدة الشروق الثقافي، ص ٥.

٣٥. أبو بكر بوعيطة، معلم ومدير متقاعد، من تلاميذ مدارس جمعية العلماء بتبسة، أمين مكتبة الشيخ العربي التبسي بتبسة، مقال مخطوط، جوان ١٩٩٧م.

٣٦. الأستاذ الدكتور بعلوج بلعبيد أستاذ الاقتصاد السياسي في جامعة قسنطينة، والأستاذ الدكتور مراد زعيمي أستاذ علم الاجتماع الثقافي بجامعة قسنطينة وعنابة، وصاحب هذه الدراسة.

٣٧. نور الدين مراح، لقاء مع شاعر الثورة الشيخ محمد الشبوكي، جريدة الشروق الثقافي، ص ٥.

٣٨. المصدر نفسه، ص ٥.

٣٩. لقاءات شخصية ومتكررة مع الشيخ بتبسة في العديد من المناسبات

٤٠. وجدت له المقالات التالية:

١- التربية أساس التعليم. جريدة البصائر. السلسلة الثانية. السنة الثانية. عدد٢. الجمعة ١٤/رمضان/ ١٣٦٦هـ الموافق ١/٨/١٩٤٧م. ص ٤.

٢- في فجر يوم محمد. جريدة البصائر. السلسلة الثانية. السنة الثانية. عدد٦٥. الاثنين ٢/ربيع١/ ١٣٦٨هـ الموافق ٣١/١/١٩٤٩م. ص ٧.

٣- حظنا من الربيع. جريدة البصائر. السلسلة الثانية. السنة الثانية. عدد٧٧. الاثنين ١٧/جمادى الثانية/ ١٣٦٨هـ الموافق ٢٥/٤/١٩٤٩م. ص٣.

٤- الاجتماع العام لطلبة الجزائريين الزيتونيين. جريدة البصائر. السلسلة الأولى. السنة الرابعة. عدد١٥٦. قسنطينة. . الجمعة ١٨/محرم/ ١٣٥٨هـ الموافق ١٠/ مارس/١٩٣٩م. ص ٧.

٤١. تعريف بالصحف التي يكتب فيها شيوخ وعلماء ومصلحو الجزائر:

❖ جريدة النجاح (١٩١٩-١٩٥٦) أول صحيفة عربية تأسست بعد الحرب العالمية الأولى. ظهرت يومية في أول أمرها ثم تحولت أسبوعية. وكانت على صلة بوكالة (هافاس) العالمية. وهي صحيفة إخبارية جامعة. أدارها ورئس تحريرها عبد الحفيظ الهاشمي. ثم انضم إليه إسماعيل مامي الصحفي والكاتب القسنطيني. ولم يكن لها اتجاه سياسي. إلا الربح المادي. ولذا فقد سخرتها الإدارة الاستعمارية فترة لمحاربة الصحف الإصلاحية. انظر. محمد ناصر. الصحف العربية الجزائرية. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. دون طبعة . دون تاريخ. ص ٤٣. ٤٤.

❖ جريدة المنتقد(١٩٢٥) جريدة أسبوعية صادرة بقسنطينة. رئس إدارتها الشيخ أحمد بوشمال. ورئس تحريرها الشيخ عبد الحميد بن باديس. وهي جريدة تمثل الخط الإصلاحي الاجتماعي. وقد دلّ عليها شعارها فهي جريدة حرة وطنية تعمل لسعادة الأمة الجزائرية بمساعدة فرنسا الديمقراطية. وشعارها (الحق فوق كل واحد. والوطن قبل كل شيء) ولِلهجتها الحادة مع الإدارة الاستعمارية عطلتها بعد أربعة أشهر من صدورها. وبعد أن صدر منها ثمانية عشر عدداً. وقد صدر العدد الأول يوم٢/٧/١٩٢٥م الموافق ١١/ذي الحجة/١٣٤٣هـ والعدد الأخير منها يوم ١٠/ربيع ٢/١٣٤٤هـ الموافق ٢٩/١٠/١٩٢٥م. انظر: محمد ناصر. الصحف العربية الجزائرية. ص ٥٣. ٥٤.

❖ جريدة السنة النبوية (١٩٣٣) تعتبر أول جريدة تصدرها جمعية العلماء لتكون اللسان الناطق باسمها. وقد ظهر العدد الأول منها يوم ٨/ذي الحجة/١٣٥١هـ الموافق ٣/٤/١٩٣٣م . وكانت تصدر أسبوعياً كل يوم اثنين تحت إشراف وإدارة الشيخ عبد الحميد بن باديس ورئاسة تحرير كل من الشيخ الطيب العقبي. والشيخ محمد السعيد الزاهري. وجاءت لترد على صحف جمعية علماء السنة المعيار. التي ظهرت بداية ١٦/١٢/١٩٣٢م. والإخلاص التي ظهرت بداية ١٩/١٢/١٩٣٢م. وأوقفت يوم ١/٧/١٩٣٣م. بعد أن صدر منها ثلاثة عشر عدداً. انظر: محمد ناصر. الصحف العربية الجزائرية. ص ١٣٠.

❖ جريدة الشريعة (١٩٣٣) التي صدر العدد الأول منها في ١٧/٧/١٩٣٣م الموافق ٢٤/ربيع الأول/ ١٣٥٢هـ. وقد كانت امتداداً لجريدة السنة المعطلة. ولم يصدر منها غير سبعة أعداد حتى جاء قرار تعطيلها يوم ٢٩/٨/ ١٩٣٣م.

❖ جريدة الصراط السوي (١٩٣٣-١٩٣٤)، التي ظهر العدد الأول منها في ١١/٩/١٩٣٣م الموافق ٢١/جمادى الأولى/ ١٣٥٢هـ. وكانت امتداً لسابقتيها الشريعة والسنة المعطلتين. وقد صدر منها العدد السابع عشر حتى عطلتها الإدارة الاستعمارية في يوم ٨/١/١٩٣٤م. لمواقفها ولخطها الإصلاحي المصر على نشر الفضيلة والعلم. ومحاربة الرذيلة والجهل. انظر: محمد ناصر. الصحف العربية الجزائرية. مرجع سابق. ص ١٨١.

❖ جريدة المغرب العربي (١٩٤٧-١٩٤٨) الصادرة بالجزائر العاصمة تحت إدارة ورئاسة وتحرير محمد السعيد الزاهري.

❖ جريدة الشعلة (١٩٥١-١٩٥٢م) صدرت الشعلة لمدة سنة واحدة. وقد ظهر منها (٥٣) عدداً. وهي موجودة بمصلحة الأرشيف بولاية قسنطينة مع غالبية الدوريات والجرائد والمجلات العربية والفرنسية لتلك الحقبة في قسم الجرائد والمجلات.

- جريدة الوطن موجودة بمكتبة الشيخ العربي التبسي بمدينة تبسة. وقد أخبرني عمال المكتبة أن الأعداد تلك من ملك الشيخ العربي التي كان يرسلها له صديقه الأستاذ فرحات عباس.
- جريدة الأسبوع التونسية موجودة بمكتبة الشيخ العربي بمدينة تبسة. والأعداد هي من مخلفات مكتبة الشيخ رحمه الله الذي كانت تصله الكثير من الجرائد العربية. وقد وجدت في مكتبته الكثير من الجرائد والمجلات العربية كالرسالة لأحمد حسن الزيات والصادقية.
- جريدة المنار الجزائرية الصادرة بمدينة تونس. والتي كانت معبرة إلى حد كبير عن توجهات حزب الشعب. واستمرت في الصدور لمدة ثلاث سنوات ١٩٥١-١٩٥٣م. طبعت مؤخراً في الجزائر.
- هذه الصحف موجودة بمركز أرشيف ولاية قسنطينة. وفي المكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة.

٤٢ محمد طاهر فضلاء. مقدمة ديوان الشيخ محمد الشبوكي. ص ٤، ٥.

٤٣ نور الدين مراح. لقاء مع شاعر الثورة الشيخ محمد الشبوكي. جريدة الشروق الثقافي. ص ٥.

٤٤ المصدر نفسه. ص ٥.

٤٥ المصدر نفسه. ص ٥.

٤٦ الديوان الشعري. للشيخ . ص ٦٠، ٦١.

٤٧ نور الدين مراح. لقاء مع شاعر الثورة الشيخ محمد الشبوكي. جريدة الشروق الثقافي. ص ٥.

٤٨ في فجر يوم محمد. جريدة البصائر. السلسلة الثانية. السنة الثانية. عدد ٦٥. الاثنين ٢/ ربيع ١/١٣٦٨هـ الموافق ٢١/١/١٩٤٩م. ص٢.

٤٩ حظنا من الربيع. جريدة البصائر. السلسلة الثانية. السنة الثانية. عدد ٧٧. الاثنين ١٧ جمادى ٢/١٣٦٨هـ الموافق ٢٥/٤/١٩٤٩م. ص ٢.

٥٠ التربية أساس التعليم. جريدة البصائر. السلسلة الثانية. السنة الثانية. عدد ٢. الجمعة ١٤/رمضان/١٣٦٦هـ الموافق ١/٨/١٩٤٧م. ص ٤.

٥١ التربية أساس التعليم. ص ٤.

٥٢ حظنا من الربيع. جريدة البصائر. السلسلة الثانية. السنة الثانية. عدد٧٧. ص٢.

المصادر والمراجع

١- المصادر:

- أحمد عيساوي. منارات من شهاب البصائر. مطبعة الوليد. وادي سوف. الجزائر. ط١. ٢٠٠٦م.
- أبو بكر بوعيطة. معلم ومدير متقاعد. من تلاميذ مدارس جمعية العلماء بتبسة. أمين مكتبة الشيخ العربي التبسي بتبسة. مقال مخطوط. جوان. ١٩٩٧م.
- محاضرة مخطوطة بيد الشيخ إبراهيم روابحية تلميذ الشيخ. ومدرس بمدرسة التهذيب سنوات ١٩٤٦ -١٩٥٦م.
- نسخة الإعلان الأول المؤرخ يوم ١٥/رمضان/١٣٥٩/هـ الموافق ٦/١٠/١٩٤١م.
- نسخة الإعلان الثاني المؤرخ يوم ١٣/ شوال/١٣٦١هـ الموافق ٢٣/١٠/١٩٤٢م.
- عمار طالبي. آثار الشيخ عبد الحميد بن باديس. دار الطليعة. بيروت. الطبعة الأولى. ١٩٦٨م ١٣٨٩هـ.

٢- الوثائق والتقارير:

- تقرير بوليسي أمني دوري سري صادر عن أمن قسنطينة. تقرير شهر جوان ١٩٤٠م.
- تقرير شهر سبتمبر ١٩٤١م.
- تقرير شهر سبتمبر ١٩٤٢.
- تقرير أمني سري دوري صادر عن القيادة والأركان العسكرية قسنطينية الناحية التاسعة عشر. المكتب الثالث. تقرير ٣٠...١٥سبتمبر ١٩٤٢م.
- تقرير أمني دوري سري صادر عن أمن قسنطينة. تقرير شهر جوان ١٩٤٠م.
- تقرير شهر نوفمبر ١٩٤٠م.
- تقرير أمني سري دوري صادر عن القيادة والأركان العسكرية قسنطينية الناحية التاسعة عشر. المكتب الثالث. تقرير أفريل ١٩٤٠م.
- تقرير بوليسي أمني دوري سري صادر عن أمن قسنطينة. تقرير شهر جوان ١٩٤٠م.

- تقرير شهر سبتمبر ١٩٤١م.
- تقرير شهر سبتمبر ١٩٤٢.

٣- المصادر المطبوعة:

- مالك بن نبي. مذكرات شاهد القرن. دار الفكر. دمشق. الطبعة الرابعة. ١٩٨٤م.
- محمد الشبوكي. ديوان الشيخ. مطبعة متحف الجهاد. الجزائر. الطبعة الأولى. ١٩٩٥م.

٢- المراجع:

- أبو القاسم سعد الله. أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر. دار الغرب الإسلامي. بيروت. الطبعة الثالثة. ج١.
- أبو القاسم سعد الله. دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر. دار الغرب الإسلامي. بيروت. الطبعة الثانية.١٩٩٢م. ج٢.
- جمال قنان. قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر. دار الغرب الإسلامي. منشورات متحف الجهاد. الجزائر. ط١. ١٩٨٨م.
- عثمان سعدي. عروبة الجزائر عبر التاريخ. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. ط١. ١٩٨١م.
- تركي رابح. الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح التربوي في الجزائر. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. الطبعة الأولى. ١٩٨٦م.
- تركي رابح. الشيخ عبد الحميد بن باديس. الجزائر. الطبعة الأولى. ط٣ ١٩٨١م.
- أحمد حماني. الصراع بين السنة والبدعة. ج٢. مطبوعات وزارة الشؤون الدينية. الجزائر. ١٩٩٦م.
- عبد الله التل. الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام. دار قصر الكتاب. البليدة. الجزائر. دون طبعة. دون تاريخ.
- محمد علي دبوز. نهضة الجزائر الحديثة. المطبعة التعاونية. دمشق. الطبعة الأولى. ١٩٦٨م.
- محمد علي دبوز. إعلام الإصلاح في الجزائر. المطبعة التعاونية. دمشق. الطبعة الأولى. ١٩٦٥م.
- محمد ناصر. المقالة الصحفية الجزائرية. ١٩٠٣-١٩٣١م. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. الطبعة الأولى. ١٩٦٥م.
- محمد ناصر. الهجرة ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين. ١٩١٩-١٩٣٨م. المؤسسة الوطنية للكتاب. الطبعة الأولى. ١٩٨٨م.
- عبد الحميد زوزو. الهجرة ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين. ١٩١٩-١٩٣٨م. المؤسسة الوطنية للكتاب. الطبعة الأولى. ١٩٨٥م.
- محمد الطاهر فضلاء. أعلام الجزائر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي. مطبعة البعث. قسنطينة. الطبعة الأولى. ١٩٦٧م.
- شلالي عبد الوهاب. دور منطقة تبسة في مقاومة الاستعمار. دار الهدى. عين مليلة.. الطبعة الأولى. ٢٠٠٦م.
- أحمد عيساوي. منارات من شهاب البصائر. مطبعة الوليد. وادي سوف. الجزائر. الطبعة الأولى. ٢٠٠٦م.

٣- الصحف:

- محمد الشبوكي. التربية أساس التعليم. جريدة البصائر. السلسلة الثانية. السنة الثانية. عدد٢. الجمعة ١٤/ رمضان/ ١٣٦٦هـ الموافق ١/٨/١٩٤٧م.ص ٤.
- محمد الشبوكي. في فجر يوم محمد. جريدة البصائر. السلة الثانية. السنة الثانية. عدد٦٥. الاثنين ٢/ربيع١/ ١٣٦٨هـ الموافق ٣١/١/١٩٤٩م. ص ٢.
- محمد الشبوكي. حظنا من الربيع. جريدة البصائر. السلسلة الثانية. السنة الثانية. عدد٧٧. الاثنين ١٧/ جماد٢/ ١٣٦٨هـ الموافق ٢٥/٤/١٩٤٩م. ص٢.
- محمد الشبوكي. الاجتماع العام لطلبة الجزائريين الزيتونيين. جريدة البصائر. السلسلة الأولى. السنة الرابعة. عدد١٥٦. قسنطينة. . الجمعة ١٨/محرم/ ١٣٥٨هـ الموافق ١٠/مارس/١٩٣٩م. ص ٧.
- أحمد حماني. افتتاح معهد عبد الحميد بن باديس بقسنطينة. جريدة البصائر. سلسلة٢. السنة ٢. عدد ١٠٨. الاثنين في ٢٢/صفر/١٣٦٧هـ الموافق ٥/ يناير /١٩٤٨م. ص١.
- مسألة الخلافة. جريدة النجاح. عدد ٢٩٥. ٢٤ شوال ١٣٤٤هـ. الموافق ٧ ماي ١٩٢٦م. ص٢.
- برقية أهل تبسة. جريدة النجاح. عدد ٢٩٦. ٣٠ شوال ١٣٤٤هـ. الموافق ١٤ مايو١٩٢٦م. ص٢ .
- تبسة الجمعية الخيرية. جريدة النجاح. عدد ١٤٤. الجمعة ١/فبراير/١٩٢٤م. ص٣.

- جريدة البربر الجزائري. عدد٢. ١٢/٩/١٩١٣م.
- جريدة الصديق. عدد٣٠. ١٨/٤/١٩٢١م.
- جريدة الشهاب. قسنطينة. الخميس ٢٦/جمادى١/١٣٤٧هـ. الموافق ٨/نوفمبر/١٩٢٨م. ص ٢، ٣.
- مصطفى زمرلي. اجتماع عمومي لنادي الشبان المسلمين بتبسة. جريدة البصائر. سل١. السنة ٣. عدد ١١٧. الجمعة ١١/ربيع٢/١٣٥٧هـ الموافق ١٠/٦/١٩٣٨م. ص٦.
- مصطفى زمرلي. فريق كشافة الأمل بتبسة. جريدة البصائر. السلسلة الأولى. السنة ٣. عدد ١٥٣. الجمعة ٢٠/ذو الحجة/١٣٥٧هـ الموافق١١/ فبراير / ١٩٣٩م. ص ٧.
- جريدة البصائر. السلسلة الأولى. السنة٣. عدد ١٠٤. قسنطينة. الجمعة ١٦/محرم /١٣٥٧هـ الموافق ١٨/مارس/١٩٣٨م. ص٧.
- علي هوام. الوتر الجزائري. جريدة البصائر. سل١. السنة الثالثة. عدد ١٣٤. الجمعة ١٣/شعبان /١٣٥٧هـ الموافق ٧/١٠/١٩٣٨م. ص ٣.
- علي هوام. الوتر الجزائري. جريدة البصائر. سل١. السنة الثالثة. عدد ١٠٤. الجمعة ١٦/محرم /١٣٥٧هـ الموافق ١٨/١٩٣٨م. ص ٢.
- جريدة البصائر. سل٢. السنة السابعة. عدد ٢٢٧. الجمعة ١/ذو القعدة /١٣٧٣هـ الموافق ٢/يوليو/١٩٥٤م. ص ٨.
- جريدة البصائر. سل١. السنة الرابعة. عدد ١٥٦. قسنطينة. الجمعة ١٨/محرم /١٣٥٨هـ الموافق ١٠/مارس/١٩٣٨م. ص ١.
- جريدة البصائر. سل١. السنة الرابعة. عدد ١٦٣. قسنطينة. الجمعة ٨/ربيع١ /١٣٥٨هـ الموافق ٢٨/أفريل/١٩٣٩م. ص٢، ٣.
- جريدة البصائر. سل٢. السنة التاسعة. عدد ٣٤٩. الجمعة ٢٩/جمادى أولى/١٣٧٥هـ الموافق ١٣/١/١٩٥٦م. ص ١.
- جريد الأهرام القاهرية. عدد ٢٥٢٥٢ بتاريخ ٢٠/١/١٩٥٦م.
- جريدة الأخبار المصرية عدد ١١١١بتاريخ ٢٠/١/١٩٥٦م.
- محمد الصالح الصديق. في ذكرى الشيخ العربي التبسي. جريدة العقيدة. عدد ١٨٩. الأربعاء ٣/ذو القعدة/١٤١٤هـ الموافق ١٣/٤/١٩٩٤م. ص ٧.
- نور الدين مراح. لقاء مع شاعر الثورة الشيخ محمد الشبوكي. جريدة الشروق الثقافي. عدد ٢٤. ١٣/يناير / ١٩٩٤م. ص٥.
- سعيد جاب الخير مترجم الرسالة. جريدة الشروق اليومي. عدد ١٦٧٦. الأربعاء ٣/ماي/٢٠٠٦م الموافق ٥/ربيع٢/١٤٢٧هـ. ص ١٨.

٤- المجلات:

- محمد البشير الإبراهيمي. الجلسة التمهيدية لجمعية العلماء. مجلة الشهاب. الجزء السادس. المجلد السابع. قسنطينة غرة صفر ١٣٥٠هـ الموافق جوان ١٩٣١م. ص ٣٤٤..٣٤١.
- مجلة الشهاب. ج٤. م١٤/ عدد جون ١٩٣٨م الموافق جمادى ١. ١٣٥٧هـ.
- مجلة الشهاب. ج٤. م١٤/ عدد جوان ١٩٣٨م الموافق جمادى ٢. ١٣٥٧هـ.
- أحمد بن ذياب. الشيخ العربي والنهضة العلمية في الجزائر. مجلة الأصالة. الجزائر. عدد٨. ص ٢٦٧. ٢٦٨.
- شارل روبير آجرون. الاضطرابات الثورية في الأوراس والنمامشة ١٩١٦-١٩١٧م. مجلة الأصالة. عدد ٦٢. ٦٣. السنة ٧. ذو القعدة. ذو الحجة/١٣٩٨هـ أكتوبر نوفمبر/١٩٧٨م. ص ٨.

٥- الحوارات:

- حوار مع الحاج بوعلي ظريف صديق الشيخ في التضحية. والذي سجن معه في سجن الكدية بمنزله شهر أفريل ١٩٩٢م.
- حوارات مع الشيخ محمد الشبوكي بمكتبة محمد بن عيسى سنوات ١٩٩٢ و١٩٩٣ و١٩٩٤ و١٩٩٥ و١٩٩٦ و ١٩٩٧. ١٩٩٨ و ٢٠٠٠م.
- حوار مع الشيخ الحفصي شقيق الشيخ العربي التبسي. تبسة جوان ١٩٩٧م.

علاج الأورام والسرطان بالنباتات الطبية في الطب العربي الإسلامي

د. محمود الحاج قاسم
الموصل - العراق

باتت مسألة العلاج بالأعشاب والنباتات الطبية بشكل عام - وفي معالجة الأورام والسرطان بشكل خاص - في السنين الأخيرة، تحظى بالاهتمام من قبل الأوساط العلمية والطبية الحديثة، وانقسم المعنيون بذلك بين مؤيد ومعارض، واتخذ آخرون موقفاً وسطاً بينهم حيث يرى هؤلاء (ونحن منهم):

إن استعمال الأعشاب والنباتات الطبية وسيلة مجدية في معالجة عدد من الأمراض. وإن الخبرة السابقة تدل على أن كثيراً من العقاقير القيمة قد اشتقت من النباتات. وأمكن تطور صناعة صيدلانية قائمة على موارد محليّة في بعض بلدان العالم.

لذا فإن كل نبتة استعملت من قبل الأطباء العرب والمسلمين تستوجب البحث العلمي من أجل تحويلها بإطار عصري إذا ثبتت فائدتها.

فإذا انطلقنا من أنهم مصيبين في تشخيصهم، يبدو أنه من المفروض تخليهم عاجلاً عن العقاقير التي لم تكن فعالة في معالجة الأمراض (كالأورام والسرطان موضوع بحثنا). إلاّ أن تكرار ذكر تلك العلاجات النباتية في كتبهم وعلى مدى عدة قرون تشير إلى إمكانية فاعلية البعض منها ولو بشكل يسير. هذا الأمر يجب أن يكون دافعاً قوياً إلى دراستها. لأننا بذلك ربما نحصل على نتائج في غاية الأهمية.

وقبل الدخول في ذكر تفاصيل الأدوية النباتية التي استعملها الأطباء العرب والمسلمون في علاج الأورام والسرطان لابد من ذكر شيء عن الأدوية النباتية (أو من أصل نباتي) المستعملة في علاج السرطان اليوم، ندرج في الجدول التالي بعضاً منها.

الأدوية المتداولة تجارياً اليوم ضد السرطان من أصل نباتي[1]

	الدواء	صنف النبات	استعماله
١-	فينبلاستين سلفيت (فيلبان) Venblastin sulphate (Velban)	يسمى في مصر الآن (فل افرنكي) Catharanthus (Vinca) roses	داء هوجكن، الأورام اللمفية الأخرى، الأورام الصلبة
٢-	فينبلاستين سلفيت (اونكافين) Venblastin sulphate (Oncavin)	فل افرنكي Catharanthus (Vinca) roses	سرطان الدم اللمفي الحاد، داء هوجكن، سرطانات الأطفال الأخرى
٣-	أكتينو مايسين (كوسماجين) Actinomycin (Cosmegen)	ستريبتومايسين بارفولوس Steptomyces parvulus	سرطان الخصية، ورم ويلمز، سرطان العظم، سرطان أوبكنـز، والأورام الصلبة الأخرى
٤-	مترامايسين (متراسين) Mithramycin (Mithracin)	ستريبتومايسيس فيرتيسيلاتوس Steptomyces parvulus	سرطان الخصية، ورم تروفوبلاستيك
٥-	بليومايسين سلفيت (بايوناكسام) Bleomycin sulphate (Blenoxame)	ستريبتومايسيس فيرتيسيلاتوس Steptomyces parvulus	دواء هوجكن، أورام لمفية أخرى، سرطان حرشفية
٦-	أدريماسين Adriamycin	ستريبتومايسيس بوساتيوس Steptomyces parvulus	سرطانات مختلفة، داء هوجكن سرطان الحنجرة والثدي

ولإعطاء صورة عملية للطريقة التي تم اكتشاف هذه العلاجات نذكر قصة اكتشاف (الفنكرستين والنفبلاستين)(٢) ((في الولايات المتحدة بدأ كيميائي صناعي في عام ١٩٥٥ برنامجاً للتفتيش عن عقاقير جديدة نباتية المنشأ. وكان لديه مساعدان لم يحصلا على شهادة جامعية، فكان أسلوبهم للتعرف على نباتات يؤمل أن تصلح لإجراء البحوث، يقوم على استعراض مجموعات الكتب الشعبية المنشورة في هذا المجال بغية العثور على معلومات عن النباتات التي كان يستعملها الممارسون المحليون التقليديون في معالجة الأمراض. وقد قام باختبار نحو ٤٠٠ نبتة، واتفق مع شركة متخصصة في التجارة بالنباتات التي تجمعها وترسلها إليه، ثم أخضعها لبرنامج الفرز الحيوي الذي أعدته شركته (إيلي ليلي).

فكان هو ومساعداه لدى تسلم كل عينة نباتية. يحضرون منها خلاصة...ثم يختبرونها من حيث الفاعلية ضد الأورام.. وفي سنة ١٩٥٨ تسلم مساعديه تقريراً يفيد بأن خلاصة النبتة (س) أظهرت فاعلية رائعة ضد الأورام...ثم بذل هو ومساعداه جهوداً مكثفة استخدما خلالها أسلوباً تجزيئياً موجهاً بمقايسة حيوية...أسفر أخيراً عن عزل عامل فائق الفاعلية ضد الأورام لم يكن معروفاً من قبل، سماه (القلواني فاء وهو = الفينبلاستين)، ثم قاموا باختيار هذا العامل مرة بعد مرة وعرضوه لدراسة سمومية في الحيوانات. على أثرها سمحت إدارة الأغذية والأدوية لشركة الكيميائي بأن تختبر فاعلية المادة القلوانية في معالجة مرضى السرطان البشري، وأخيراً أجازت لهما في سنة ١٩٦١إنتاج العقار وطرحه في السوق لمعالجة مرضى السرطان)) ((ثم واصل بحوثه وانتهى إلى عزل مركب آخر من نفس النبات فائق الفعالية في شكل نقي، وهو (القلواني لام وهو = الفنكرستين) وطرحه في السوق لمعالجة مرض السرطان سنة ١٩٦٣)) (٣).

بعد هذا ندخل في صلب الموضوع:

الأدوية النباتية المستعملة في علاج السرطان في الطب العربي الإسلامي:

يبدو أنَّ جُلَّ اهتمام الأطباء العرب والمسلين في حقل معالجة السرطان بالنباتات الطبية كان منصباً على استعمالها خارجياً (موضعياً) فقد أحصينا (٢٢) نباتاً استعملوه عن طريق الفم بينما تجاوز عدد ما استعملوه خارجياً الـ (١٠٠) نبات، نذكر فيما يلي جرداً بأسماء كافة النباتات التي جاء ذكرها لديهم في معالجة الأورام والسرطان:

أولاً:- الأدوية النباتية المستعملة عن طريق الفم في علاج السرطان في الطب العربي الإسلامي:

الرقم	النباتات	المرض	المصدر
١.	أفسنتين Artemesia Absinthiun	الصلابات الباطنية	ابن سينا – القانون ج١ ص٢٤٤[٤]
٢.	أذخر Andropogon Schoenanthus	الصلابات الباطنية	المصدر نفسه- ج١ ص١٤٧
٣.	إكليل الملك Mellotus Officinalis	أورام المعدة والكبد والخصيتين	العلائي المغربي – تقويم[٥] الأدوية، مخطوطة الحرم المكي الشريف، ص ٢٦
٤.	شونيز (الحبة السوداء) Nigella Sativa	صلابة الطحال	المغربي – تقويم الأدوية، ص ٨٧
٥.	ناردين Andropozon Nardus	أورام الكلى	الرازي – الحاوي ج١ ق٢، ص ٥٨٠[٦]
٦.	لوف (بزرة) Arisarum Vulgare	بواسير الأنف حتى السرطانية	ابن سينا – القانون ج١ ص٣٥٦
٧.	مقل اليهود (صمغ) Menth Aauatica	الأورام الباطنة والصلبة	ابن سينا – القانون ج١ ص٣٦٢
٨.	قاشرا Taus Communus	الأورام الباطنة والصلبة وأورام الطحال	ابن سينا – القانون ج١ ص٤٠٢
٩.	وج Acarus Ealamus	صلابة الطحال	المغربي – تقويم الأدوية، ص ٨٧
١٠.	أبهل Janiperus Sabina	صلابة الطحال سعي الساعية	الغساني – حديقة الأزهار ص ٢٢[٧]

.١١	أسارون Asarum Europaem	صلابة الطحال	الغساني – حديقة الأزهار ص٢٨
.١٢	آشنة Mascus Oboreus	الأورام الصلبة	الغساني – حديقة الأزهار ص٤٠
.١٣	بنج Hyoscyamus albus	صلابة الخصيتين	الغساني – حديقة الأزهار ص٥١
.١٤	بنطا فلون Potantilla reptans	الخنازير، الأورام الصلبة	الغساني – حديقة الأزهار ص٦٠
.١٥	بسباسة Myristica reptans	الصلابات	الغساني – حديقة الأزهار ص٦٢
.١٦	بربطورة Pecedanum amoniacum	الصلابات خاصة صلابة الطحال	الغساني – حديقة الأزهار ص١٣٧
.١٧	كمون Cuminum cyminum	الصلابات	الغساني – حديقة الأزهار ص١٤١
.١٨	كندس Gyposophilla struthium	صلابة الطحال	الغساني – حديقة الأزهار ص١٥٠
.١٩	نرجس Nercisus Poeticus	الأورام الصلبة	الغساني – حديقة الأزهار ص١٨١
.٢٠	نعنع Mentha	الأورام الصلبة	الغساني – حديقة الأزهار ص ١٨٣
.٢١	قنطريون Centaura centauricum	صلابة الرحم	الغساني – حديقة الأزهار ص ٢٣٠
.٢٢	سوسن Lillium	صلابة الرحم	الغساني – حديقة الأزهار ص ٢٣١

ثانيا:- الأدوية النباتية المستعملة موضعيا:

كما ذكرنا سابقاً أن العلاجات التي استعملها الأطباء العرب والمسلمون موضعياً في علاج السرطان تشكل الحجر الأساسي في علاجهم. وقد جمع ابن سينا تلك العلاجات وقسمها تقسيماً جميلاً يدل على سعة الإدراك وجودة الأسلوب. حيث يقول: ((فأما الأدوية الموضعية للسرطان فيراد بها أربعة أغراض. إبطال السرطان أصلاً وهو صعب. والمنع من الزيادة. والمنع من التقرح. وعلاج التقرح.

- اللواتي يراد بها إبطال السرطان فينحى فيها نحو ما فيه تحليل لما حصل من المادة الرديئة ومنع ما هو مستعد للحصول في العضو منها وأن تكون شديدة القوة والتحريك فإن القوة من الأدوية يزيد السرطان شراً. وكذلك يجب أن يتجنب فيها اللذاعة ولذلك ما تكون الأدوية الجيدة لها هي المعدنية المغسولة كالتوتيا المغسول. وقد خلط به الأدهان مثل دهن الورد ودهن الخيري معه.

- وأما منع الزيادة فيوصل إليه بجسم المادة وإصلاح الغذاء وتقوية العضو بالأدوية الرادعة المعروفة واستعمال اللطوخات المعدنية مثل لطوخ حكاك حجر الرحا وحجر المسن ومثل لطوخ تتخذ من حلالة تنحل بين صلابة وفهر من أسرب. في رطوبة مصبوبة على الصلابة هي مثل دهن الورد ومثل ماء الكزبرة وأيضاً فإن التنضيد بالحصرم المدقوق جيد نافع.

- × واللواتي يراد بها منع التقرح. فاللطوخات المذكورة لمنع الزيادة إذا لم يكن فيها لذع جميعها نافع وخصوصاً إذا خلط بالحلالة المذكورة من فهر وصلابة أسربية. وإذا كان في الجملة طين مختوم أو طين أرمني أو زيت أنفاق وماء حي العالم والإسفيذاج مع عصارة الخس أو لعاب بزر قطونا أو إسفيذاج الأسرب فهو تركيب جيد. ومما هو بليغ التضميد بالسرطان النهري الطري وخصوصاً مع إقليما.

- وأما علاج المتقرح. فما هو جيد له أن يدام إلقاء خرقة مغموسة في ماء عنب الثعلب كلما كاد يجف رش عليه ماؤه ويؤخذ لب القمح واللبان وإسفيذاج الرصاص من كل واحد وزن درهم ومن الطين الأرمني والطين المختوم والصبر المغسول من كل واحد درهمين تجمع هذه وتسحق وتستعمل على الرطب ذروراً وعلى اليابس مرهماً متخذاً بدهن الورد وقد ينفع منه دواء التوتيا أو التوتيا المغسول بماء الرجلة أو لعاب بزر قطونا.

ومن أجل إعطاء صورة كاملة عن الأدوية الناتية التي استعملها الأطباء العرب والمسلمون موضعياً في علاج السرطان رأينا جمعها في الجدول التالي:

الأدوية النباتية المستعملة موضعياً في علاج السرطان

في الطب العربي الإسلامي:

الرقم	النبات (الدواء)	المرض وكيفية استعماله	المصدر
١.	أنجرة (بزرة) Urticu Pillulifera	السرطان/ضماداً	ابن سينا – القانون ج١ ص٢٥٦
٢.	أنجدان (أصله) Ferula Assafoetida	الخنازير (تورم الغدد اللمفية في الرقبة / خلط أصله بالمراهم	ابن سينا – القانون ج١ ص٣١٦
٣.	أذخر Andrapago Schoenanthus	الصلابات الباطنية/ضماداً	ابن سينا – القانون ج١ ص٢٤٥
٤.	أشق (صمغه) Gum Ammoniacum	الخنازير والصلابات والسلع/يطلى ويضمد بالخل	ابن سينا – القانون ج١ ص٢٥٢
٥.	آشنة (قشور تلف على شجر البلوط) Muscus	الصلابات الباطنية	ابن سينا – القانون ج١ ص٢٥٤
٦.	إكليل الملك (غصن البان = الحند قوقي البستاني) Mellatus Officinalis	سرطان العين	الحريري البغدادي – نهاية الأفكار، القسم الثاني ص١٨[٨]
٧.	أوريسن	السرطان غير المتقرح، وجميع الأورام الصلبة	الرازي – الحاوي ج١٢ ص ٢٣
٨.	أيريسيا (سوسن) Iris germanica	الأورام الصلبة والخنازير والبثور الخبيثة	ابن سينا – القانون ج١ ص٢٥٥
٩.	باذاور (فراسيون – شوكة بيضاء Marrubium alysson	ورم الحلق وورم المعدة	ابن سينا – القانون ج١ ص٤٢١

المصدر	الاستعمال	النبات	الرقم
الرازي – الحاوي ص ١٦١	التآليل	بان (دهنه)	١٠.
ابن سينا – القانون ج١ ص٢٧٨ – ٤٤٤	ورم الخصية، الخنازير، الصلابات	باقلاء (ترمس) Lipinus angustifolius	١١.
الأنطاكي – التذكرة، ج١ ص ٦٨	الأورام والخنازير	بزر قطونا(٣ أنواع) Japaghula	١٢.
ابن سينا – القانون ج١ ص١٣٧	تقرح السرطان	بزر الكتان Linum usitolissimum	١٣.
ابن سينا – القانون ج١ ص١٣٨	السرطان (يدخل في تحضير بعض المطبوخات)	بزر اللوف Arisarum vulgara	١٤.
ابن سينا – القانون ج١ ص٢٧٧	محلل للصلابات الغليظة	بسباسة(جوز بوا أو جوز الطيب) Myristica Fragans	١٥.
ابن سينا – القانون ج١ ص٢٦٨	بالملح يقلع التآليل	بصل Allium cepa	١٦.
ابن سينا – القانون ج١ ص٢٧٥	يحل بها التآليل فتقلعها	بقلة حمقاء Oxalis Acetosella	١٧.
ابن سينا – القانون ج١ ص٢٦٩	التآليل طلاء مع صفرة البيض)	بلبوس (نوع من البصل) Muscari comosum	١٨.
ابن هبل – المختارات ج٢ ص ٤٣[٩]	الأورام الصلبة ضماداً	بهار Anthimus arvensis	١٩.
ابن هبل – المختارات ج٢ ص ٤١	صلابة الطحال	بويانس	٢٠.
الأنطاكي – التذكرة، ج١ ص ٩٠[١٠]	السرطانات التي ليست بمتقرحة، الأورام الصلبة	تودري (القسط البري) حبة Sisym brium officinale	٢١.

.٢٢	تين Fiscus Carica	الأورام الصلبة، الأورام العسرة (ضماداً)	ابن سينا – القانون ج١ ص٤٤٧
.٢٣	جار النهر Beta Silvestris	القروح الخبيثة	ابن سينا – القانون ج١ ص٢٦٨
.٢٤	جاوشير Opopanax chironium	القروح الخبيثة، صلابة الرحم	ابن سينا – القانون ج١ ص ٢٦٨
.٢٥	جميّز (شجر) Fiscus Sycomo	الأورام الصلبة، الأورام العسرة (ضماداً بعد الطبخ)	الرازي – الحاوي ج٣٠ ص٢٥٧
.٢٦	جوز Juglons regia	الورم السوداوي المتقرح، السرطان (لبه الممضوغ ضماداً)	ابن سينا – القانون ج١ ص٢٦٨
.٢٧	حاشا (شجرة شوكية) Thymus capitatus	الثآليل	ابن سينا – القانون ج١ ص٣١٥
.٢٨	حبة خضراء	الأورام الصلبة	ابن سينا – القانون ج١ ص٣١٤
.٢٩	حصرم	السرطان (ضماداً)	ابن سينا – القانون ج١
.٣٠	حلبة Trigonella Foenum groecum	الأورام الصلبة	ابن سينا – القانون ج١ ص٣٢٠
.٣١	حماض Rumex Acelosa	الأورام تحت اللسان، الخنازير (ضماداً)	ابن هبل – المختارات ج٢ ص٩١
.٣٢	حمص Cicer Arietinum	القروح السرطانية، الأورام الصلبة (ضماداً)	الرازي – الحاوي ج٢٠ ص٣٥٢

٣٣.	حنطة Tritcum Vulgara	السرطانات المتقرحة	ابن سينا – القانون ج١ ص ٤٦٣
٣٤.	حي العالم Sempervium Tectorum	السرطان لمنع التقرح	ابن هبل – المختارات ج٢، ص ٩٤
٣٥.	خباز Malva Sylein	صلابة الرحم (طبيخه إذا جلس فيه)	الرازي – الحاوي، ج٢٠ ص٤٣٧
٣٦.	خردل = لبان Sinapis Alba	الخنازير (طلاء)	الرازي – الحاوي ج٢٠ ص ٣٤٨
٣٧.	خرنوب Ciratonia Siliqua	الثآليل (دلكاً)	ابن سينا – القانون ج١ ص٤٥٩
٣٨.	خس الحمار = أبو حلس	الأورام الصلبة، الخنازير (ضماداً)	ابن سينا – القانون ج١ ص٣٥٩
٣٩.	خطمي (بزره) Allhen Officinalis	أورام الثدي (ضماداً)	ابن سينا – القانون ج١ ص٤٥٣
٤٠.	خلاف = الصفصاف Salix	الثآليل (رماده طلاء)	ابن سينا – القانون ج١ ص٤٦٠
٤١.	خنثى = أشراس Asphadelus Ramosus	أورام المعدة	ابن سينا – القانون ج١ ص٤٥٨
٤٢.	خيار شنبر Cassia Fistula	الأورام الصلبة	ابن هبل- المختارات ج٢، ص ٣٠٣
٤٣.	دفلى Nariam Oleander	الأورام الصلبة	ابن سينا – القانون ج١ ص٢٢٣
٤٤.	زعفران Curcus sativus	سرطان العين	البغدادي الحريري- نهاية الأفكار ج٢، ص ٦٧

.٤٥	سذاب Ruta Angastefalia	خنازير الحلق والإبط، سرطان العين	ابن سينا – القانون ج١ ص٢٨٨ نهاية الأفكار ج٢، ص ٦٨
.٤٦	سفرحل (دهمه) Cidania Vulgaris	القروح الخبيثة	ابن سينا – القانون ج١ ص ١٣٧
.٤٧	سماق Rhus Cariara	السرطان الشديد المتآكل	ابن سينا – القانون ج١ ص ١٣٧
.٤٨	شونيز (الحبة السوداء) Nigella Sativa	الأورام الصلبة (ضماداً مع الخل)	القربلياني – الاستقصاء ج٢، ص١٢٨[١١]
.٤٩	عالوسيس	الأورام السرطانية والخنازير (ضماداً)	ابن سينا – القانون ج١ ص ٤٠٣
.٥٠	عدس Lencesculenta	الخنازير، الأورام الصلبة طبخ مع الخل ثم تضميد	ابن سينا – القانون ج١ ص٣٠١
.٥١	عفص Quercus Lusitonica	السرطان المتآكل (لطوخات)	ابن سينا – القانون ج١ ص١٣٨
.٥٢	عنب الثعلب Salanum Nigram	تقرحات السرطان	ابن سينا – القانون ج١ ص٤٧٦
.٥٣	فاشرا (الكرمة البيضاء= هزار جشان) Bryonia albaetdioica	الثآليل	ابن سينا – القانون ج١ ص٤٠٧
.٥٤	فقلا مينوس، وبخور مريم Cyclaman Europaem	الصلابات، الخنازير	ابن سينا – القانون ج١ ص٤١٢
.٥٥	فلفل Piper Nigram	الخنازير	ابن سينا – القانون ج١ ص٤٠٦

.٥٦	قنا بري	القروح الخبيثة في الثدي صلابة الرحم	ابن هبل – المختارات ج٢ ص٤١٩
.٥٧	قنة (بازرد) Ferula Galbaniflua	الخنازير	ابن سينا – القانون ج١ ص٤٢١
.٥٨	صبر = صبيرة Aloes	السرطان (لطوخات)	ابن سينا – القانون ج١ ص١٣٨
.٥٩	كبيكج Ranunculus aciaticus	الثآليل المسمارية	ابن سينا – القانون ج١ ص٣٤٠
.٦٠	كبر Caparis spinosa	الخنازير، الصلابات	ابن سينا – القانون ج١ ص٣٤٤
.٦١	كراث Allium roseum	القروح الخبيثة	ابن سينا – القانون ج١ ص٣٤٧
.٦٢	كرسنة Vicia ervilia	الصلابات، وخاصة صلابة الثدي	ابن سينا – القانون ج١ ص٣٤٥
.٦٣	كرنب Barassica oleracea	الصلابات، الجروح الخبيثة، السرطان	ابن سينا – القانون ج١ ص٣٤٨
.٦٤	كمافيطوس (صنوبر الأرض) Aiuga chamaepitys	الصلابات، وخاصة صلابة الثدي	ابن سينا – القانون ج١ ص٣٤٨
.٦٥	كندر (لبان ذكر) Olibanum	الجراحات الخبيثة، سرطان العين	ابن سينا – القانون ج١ ص٣٣٧

٦٦.	كنكر (خرشف بستاني) Acantus Mallis	السرطان (ضماد مع بزر الكتان)	الرازي – الحاوي ج١٢ ص٢٣
٦٧.	لبنى Liquidamber orientale	صلابات اللحم	ابن سينا – القانون ج١ ص ٣٥٠
٦٨.	لسان الحمل Plantago	الخنازير، السرطان	ابن سينا – القانون ج١ ص١٣٨، ٣٥٣
٦٩.	مرزنجوش (بردقوش) Majarana hortesis	أورام العين الصلبة	الرازي – الحاوي ج٢١ ص٤٦١
٧٠.	مصطكي Pistacia Lenticus	الصلابات الباطنة	ابن سينا – القانون ج١ ص٣٦١
٧١.	نمام Thymus serpyllum	الأورام الباطنة الشديدة الصلابة	ابن سينا – القانون ج١ ص٣٧٤
٧٢.	الهندباء Cicarum endive	السرطانات المتقرحة	ابن سينا – القانون ج١ ص١٣٨
٧٣.	ورد Rosa gallica	السرطان الثآليل	ابن سينا – القانون ج١ ص١٣٨، ١٠٠
٧٤.	يبروح = لفاح Mandragon Officinarum	الأورام الصلبة، الخنازير	ابن سينا – القانون ج١ ص٣٣٣

.٧٥	أثل (الطرفا البستاني) Tamarix Articulata	الثآليل (طلاء)	العلائي المغربي – تقويم الأدوية ص٣٢
.٧٦	بصل الفار = بصل العنصل	الثآليل	العلائي المغربي – تقويم الأدوية ص٣٥
.٧٧	أذريون	الأورام الصلبة (ضماداً)	العلائي المغربي – تقويم الأدوية ص٣٧
.٧٨	أنا غاليس = أذان الفار Myosotic striata	الخنازير (ضماداً)	العلائي المغربي – تقويم الأدوية ص٣٧
.٧٩	أراك (قشرة) Solvadura persica	الخنازير (مع الزيت يضمد به)	العلائي المغربي – تقويم الأدوية ص٣٩
.٨٠	برشا وشان (كزبرة البير) Andinatum coppillus	الخنازير (ضماداً)	العلائي المغربي – تقويم الأدوية ص٥٠
.٨١	بيش (هلهل) Aconitum ferox	الخنازير (مع الخل والزيت يضمد به)	العلائي المغربي – تقويم الأدوية ص٦١
.٨٢	بلوط pedunculata Quercus	الصلابات (ضماداً)	العلائي المغربي – تقويم الأدوية ص٦١
.٨٣	باذنجان	الأكلة، الثآليل (رماده للتضميد)	العلائي المغربي – تقويم الأدوية ص ٦٥
.٨٤	رتة (ثمرة البندق) Caisalpinia Bundue	الخنازير	العلائي المغربي – تقويم الأدوية ص٢١٨
.٨٥	دم الأخوين (عصارة حمراء) Plera carpus Draco	السرطان (طلاء)	العلائي المغربي – تقويم الأدوية ص٨١

٨٦.	يتوع (كل نبات له لبن) Eupherbia	التآليل (لطوخات)	العلائي المغربي – تقويم الأدوية ص١١٧
٨٧.	وج Acurus Colomus	صلابة الطحال (ضماداً)	العلائي المغربي – تقويم الأدوية ص٨٧
٨٨.	زيتون (صمغة) Olive	التآليل ، المسامير	العلائي المغربي – تقويم الأدوية ص٩١
٨٩.	زوفا يابس	الأورام الصلبة	العلائي المغربي – تقويم الأدوية ص٩٣
٩٠.	حب الكلى Anagyis Foetida	الخنازير (يضمد بورقه)	العلائي المغربي – تقويم الأدوية ص١٠٧
٩١.	كشونا	الأورام الصلبة	العلائي المغربي – تقويم الأدوية ص٢٤
٩٢.	لبلاب Dolichos lablab	التآليل	العلائي المغربي – تقويم الأدوية ص١٣٧
٩٣.	محلب (ثمرة البطم) Prunus Mahalab	الأورام الصلبة	العلائي المغربي – تقويم الأدوية ص١٤٠
٩٤.	نرجس Narcissas potica	صلابة الرحم	العلائي المغربي – تقويم الأدوية ص ١٥٥
٩٥.	مر (صمغ أحمر) Commipkora Myrra	جساوة (صلابة) الأورام	العلائي المغربي – تقويم الأدوية ص ١٤١

٩٦.	فنجشكت (شجرة ذات خمسة أوراق) Vilex Angus	صلابة الرحم	العلائي المغربي – تقويم الأدوية ص ١٩٠
٩٧.	باذار نجنوية Mellisa officinalis	الخنازير (ضماداً)	الغساني – حديقة الأزهار ص ٥٢
٩٨.	دادي Cevcis siligua strum	الصلابات	الغساني – حديقة الأزهار ص ٨٥
٩٩.	دردار tinctorium Memecevlon	الجراحات الساعية الخبيثة (ضماداً)	الغساني – حديقة الأزهار ص ٨٩
١٠٠.	سوسن Lillium	صلابة الرحم (تمريخاً)	الغساني – حديقة الأزهار ص ٦٧٢
١٠١.	خربق أسود Hellaboras Niger	الثآليل (طلاء)	الغساني – حديقة الأزهار ص ٣٤٠
١٠٢.	غرب (خلاف) Salix babylonica	الثآليل (رماد شجره بالخل ضماداً)	الغساني – حديقة الأزهار ص ٣٤٠
١٠٣.	شيطرج Lepidium latifolium	البواسير الناتئة	الغساني – حديقة الأزهار ص ٣٤٠
١٠٤.	شبت Anethum graviolens	البواسير الناتئة (محروق بزره ضماداً)	الغساني – حديقة الأزهار ص ٣٤٠

وختاماً أقول فهذا استعراض شامل للأدوية النباتية التي جاء ذكرها في المؤلفات الطبية العربية في علاج السرطان. هذا العلم انتقل إلينا من خلال تجاربهم وملاحظاتهم عبر مئات السنين. المطلوب منا اليوم أن نتثبت من تلك المعلومات لأجل إثبات صلاحية البعض منها بالأساليب العلمية والبحثية الحديثة.

لذا ننادي بأنه لابد للبحوث- عن العقاقير المشتقة من النباتات في حقل علاج السرطان والأمراض الأخرى- أن تحتل مكاناً بارزاً في الأولويات في كليات الطب والصيدلة في بلادنا لأن هذا النمط من البحوث يمكن أن يؤدي إلى اكتشاف عقاقير مفيدة عديدة ستخفف من معاناة المرضى وتعمل على شفاء البعض منهم إن شاء الله. كما وأن هذا النمط من البحوث يمكن أن يؤدي بالتالي إلى الإنتاج الصناعي الفعلي للعقار في بلادنا وأن المجموعة النباتية في بلدنا غير مستكشفة بشكل كامل من جهة الاستفادة العلمية.

المصادر

١) اختر- د. محمد شعيب، بحث بالإنجليزية قدم في مؤتمر الصيدلية والطب خلال العصور – كراجي.

Lewis, W.H. Ans Elvin- Lewis, M.P.H. (1979) Medical Botany – Plants effecting mans health. John Willey and sons. New York p.p.415.

٢ فارنزوورث، ن.ر.: دور النباتات في الطب الحديث، حيث يلتقي العلم بالفولكلور، مجلة منبر الجامعة العالمي، المجلد السادس، العدد الأول، السنة ١٩٨٥، ص ٩٠-٩١.

٣) ابن سينا، أبو علي الحسين بن علي: القانون في الطب – طبعت بالأوفست، مكتبة المثنى، بدون تاريخ، ج١، ج٢، ج٣.

٤) المغربي،أبو سعيد إبراهيم بن علي ابن أبي سعيد العلائي: تقويم الأدوية أو المنجح في التداوي من صنوف الأمراض والشكاوي، مخطوطة مكتبة الحرم المكي الشريف رقم (٢٥٩٥).

٥) الرازي، أبو بكر محمد بن زكريا: الحاوي في الطب – الطبعة الأولى ١٩٦٨، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد، الدكن، الجزء ٢١ القسم ٢، الجزء ٢٠، الجزء ٣٠.

٦) الغساني، أبو القاسم بن محمد بن إبراهيم الشهير بالوزير: حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار، تحقيق محمد العربي الخطابي في كتاب الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥.

٧) ابن سينا، القانون ج٢، ص١٢٧- ١٢٨.

٨) البغدادي، عبد الله بن قاسم الحريري الإشبيلي: نهاية الأفكار ونزهة الأبصار، تحقيق د.مصطفى شريف العاني، ود. حازم البكري، دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨٠، القسم الثاني.

٩) البغدادي، مهذب الدين أبو الحسن ابن علي بن أحمد بن علي: المختارات في الطب، الطبعة الأولى، حيدر آباد الدكن، ١٣٦٣.

١٠) الأنطاكي، داؤد: تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب والعجائب، مطبعة محمد على صبيح وأولاده، مصر ١٣٥٦ هـ.

١١) القربلياني، محمد بن علي بن فرح، الاستقصاء والإبرام في علاج الجراحات والأورام، تحقيق محمد العربي الخطابي في كتاب الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٨٨، ج٢.

معجم الأضداد

لأبي القاسم علي بن جعفر

المعروف بابن القَطّاع الصَّقَلّي (ت - ٥١٥ هـ)



جمع ودراسة

د. خليل محمد سعيد مخلف الهيتي

جامعة الأنبار - العراق



المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد.. فإنّ الرغبة في خدمة القرآن الكريم كان الدافع الأساس عند أوائل اللغويين لتأليف كتبهم. لذلك ألفَ الأضداديون كتبهم عندما وجدوا أنّ من ألفاظ القرآن الكريم ما يفسر بأكثر من معنى وأخذت الرغبة تنمو في الإحصاء والاستيعاب مع نمو الدراسات اللغوية ودراسات الأضداد. لذا قمت بجمع معجم الأضداد لابن القطاع الصقلّي من مؤلفاته اللغوية أرجو أن يكون جامعاً لما يراه في الأضداد وما يعالج منها. أسأل الله أن يجعل عملي خالصاً لوجهه العظيم ويخدم به لغة الضاد وأحبائها. وما توفيقي إلا بالله.





أولاً: ابن القطّاع الصقلي[1]:

هو أبو القاسم علي بن جعفر بن علي بن محمد بن عبد الله بن الحسين بن أحمد بن محمد ابن زيادة الله بن محمد السعدي الصقلي المصري الكاتب اللغوي المعروف بابن القطّاع. وقد ذكر له نسب طويل يبلغ عدد آبائه فيه إلى خمسة وثلاثين جداً يصل إلى نزار بن معدّ بن عدنان ولد بصقلية في العاشر من صفر سنة (٤٣٣هـ). انتقل إلى مصر بسبب الأوضاع السياسية السيئة في صقلية ومهاجمة الإفرنج لها سنة (٥٠٠هـ). كان إماماً وعالماً باللغة والصرف والنحو وبرع في العروض وروى الأدب وكتب التاريخ. أخذ عن علماء عصره إلا أن كتب التراجم لم تذكر إلا أستاذه أبا بكر محمد بن علي بن البرّ اللغوي التميمي. وهو من كبار علماء اللغة بصقلية. ومن أبرز تلاميذه عبد الله بن برّي أبو محمد المصري (ت-٥٨٢هـ)[2]. وعلي بن عبد الجبار بن سلامة أبو الحسن (ت - ٥١٩هـ)[3]. ومحمد بن حمزة بن أحمد أبو البركات العرقي التنوخي (ت - ٥٥٧هـ)[4]. وروزبة بن محمد بن روزبة أبو محمد الخزاعي (ت - ٥٢٠هـ)[5] وغيرهم. قال ياقوت عنه: (كان إمام وقته ببلده وبمصر في علم العربية وفنون الأدب)[6]. وله شعر إلا أنّه تقليدي خالٍ من الفنية من ذلك قوله[7]:

فلا تُنْفِذنَ الغُمرَ في طلب الصبا ... ولا تشقَيَن يوماً بسُعدي ولا نُعْم

ولا تندُبَنّ أطلال ميَّة باللوى ... ولا تسفَحَنْ ماء الشؤون على رسم

فإن قصارى المرء إدراكُ حاجة ... وتبقى مذمات الأحاديث والإثم

توفي في صفر سنة (٥١٥هـ) بمصر ودفن قرب الإمام الشافعي- رحمه الله- وله مصنفات كثيرة منها المطبوع والمفقود والمخطوط أهمها: تهذيب كتاب الأفعال، وأبنية الأسماء والأفعال والمصادر، والعروض البارع بالاختصار الجامع، والشافي في علم القوافي، وأبيات المعاياة، والدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة وغيرها[8].

---

(١) تراجع ترجمته في خريدة القصر (شعراء جزيرة صقلية) : ٥١/١، معجم الأدباء: ٢٧٩/١٢، وانباه الرواة: ٢٣٦/٢، ووفيات الأعيان: ٣٢٢/٢، وتاريخ الإسلام (حوادث وفيات ٥١١-٥٢٠هـ) : ٣٩٠-٣٩٢، وسير أعلام النبلاء ٤٣٣/١٩، وبغية الوعاة: ١٥٣/٢، وشذرات الذهب: ٤٥/٤، وغيرها .

(٢) التكملة لوفيات النقلة ٦/١، وسير أعلام النبلاء: ١٣٦/٢١-١٣٧، وبغية الوعاة: ٣٤/٢ .

(٣) معجم الأدباء: ٨/١٤-١٠، وسير أعلام النبلاء ٥٢١/١٩-٥٢٢، وبغية الوعاة: ١٧٣/٢ .

(٤) التكملة لوفيات النقلة ٢٣٦/٣، وتاريخ الإسلام (حوادث وفيات ٥٥١-٥٦٠هـ) : ٢٣٧-٢٣٨ .

(٥) معجم السفر (تحقيق بهيجة الحسني) : ٢٥٧/١-٢٥٨ .

(٦) معجم الأدباء، ٢٨٠/١٢ .

(٧) ينظر: خريدة القصر (شعراء جزيرة صقلية) : ٥١/١، والدرة الخطيرة: ٢٣٢ .

(٨) ينظر: تفصيل حياته ومؤلفاته في أطروحتي الدكتوراه (الجهود اللغوية لابن القطّاع الصقلي (ت - ٥١٥هـ) مع تحقيق رسائله في اللغة) : ٥-٢٠ .

ثانيا: التضاد وموقف ابن القطّاع منه وأسباب وقوعه عنده:

التضاد من أبرز الظواهر التي وقف عندها اللغويون القدماء من مسائل الدلالة، إذ شغلتهم هذه الألفاظ التي تنصرف إلى معنيين متضادين فراحوا يدرسونها ويجمعون موادها ويحددون مكانها في اللغة. فكل لفظ يحمل معنيين متضادين يطلق على هذا اللفظ بالأضداد فهو نوع من العلاقة بين المعاني، والعلاقة علاقة تضاد لا تغاير[9]. فالأضداد في أدق تحديد له هو (جمع ضدٍّ، وضدّ كلّ شيء ما نافاه، نحو: البياض والسواد، والسخاء والبخل، والشجاعة والجبن، وليس كل ما خالف الشيء ضداً له ألا ترى أنّ القوة والجهل مختلفان، وليسا ضدَّين، وإنما ضدُّ القوةِ الضعف، وضدُّ الجهل العلم فالاختلاف أعمُّ من التضاد، إذ كان كلّ متضادين مختلفين، وليس كل مختلفين ضدين)[10]. فظاهر الأضداد ظاهرة واضحة في أكثر اللغات، ولا سيما اللغة العربية وإن اختلف اللغويون في موقفهم منها إلى مؤيد ومنكر، وموقف ابن القطّاع واضح، فهو من القائلين بوقوعها، وخير دليل المعجم الذي يصرّح فيها بوضوح مصطلحاً ودلالة، بما يكشف عن فهمه الدقيق لها وعدم إنكاره، وقد فصلت في أطروحتي الدكتوراه إثبات موقف ابن القطّاع من ظاهرة الأضداد وأسباب وقوعها عنده مما يغنيني عن إعادتها[11].

ثالثا: مؤلفو كتب الأضداد ممن سبق ابن القطّاع:

❖ مؤلفو كتب الأضداد المطبوعة:

١. أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري (ت - ٣٢٨هـ)

طبع في المطبعة الحسينية بمصر سنة ١٣٢٥هـ بتحقيق محمد بن عبد القادر سعيد الرافعي بمشاركة الشيخ أحمد الشنقيطي، وفي الكويت سنة ١٩٦٠م بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

٢. أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني (ت - ٢٥٥هـ) طبع في دار الكتب العلمية ببيروت سنة ١٩١٢م، بتحقيق المستشرق أوغست هفنر ونشره مع كتابي الأصمعي وابن السكيت في (ثلاثة كتب في الأضداد).

٣. أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي (ت - ٢١٦هـ) طبع في دار الكتب العلمية ببيروت سنة ١٩١٢م، بتحقيق المستشرق أوغست هفنر ونشره مع كتابي السجستاني وابن السكيت في (ثلاثة كتب في الأضداد).

---

(٩) ينظر: فقه اللغة العربية (كاصد): ١٥٢.

(١٠) الأضداد لأبي الطيب اللغوي (المقدمة): ١/١.

(١١) ينظر: تفصيل ودراسة ذلك في أطروحتي الدكتوراه (الجهود اللغوية لابن القطّاع الصقلي (ت - ٥١٥هـ) مع تحقيق رسائله في اللغة): ١٦٥-١٧٢.

٤. أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي (ت - ٣٥١هـ) نشره في جزأين مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٦٣م. بتحقيق الدكتور عزة حسن.

٥. أبو علي محمد بن المستنير المعروف بقطرب (ت - ٢٠٦هـ) نشر في العدد الثالث من المجلد الخامس من مجلة (إسلاميكا) التي تصدر في ألمانيا سنة ١٩٣١م بتحقيق المستشرق هانس كوفلر.

٦. أبو محمد عبد الله بن محمد التوزي (ت - ٢٣٣هـ) نشر في العدد الثالث من المجلد الثامن من مجلة (المورد) ببغداد سنة ١٩٧٩م. بتحقيق الدكتور محمد حسين آل ياسين.

٧. أبو يوسف يعقوب بن السكيت (ت - ٢٤٤هـ) طبع في دار الكتب العلمية ببيروت سنة ١٩١٢م. بتحقيق المستشرق أوغست هفنر ونشره مع كتابي السجستاني والأصمعي في (ثلاثة كتب في الأضداد).

❖ مؤلفو كتب الأضداد المفقودة:

١. أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا الرازي (ت٣٩٥هـ).

٢. أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت٢٠٧هـ).

٣. أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب (ت٢٩١هـ).

٤. عبد الله بن جعفر بن درستويه (ت٣٤٧هـ).

٥. أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت٢١٠هـ).

٦. عبيد بن ذكوان أو عسل بن ذكوان (ت٢٨٥هـ).

٧. أبو عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ).

٨. أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي (ت٢٧٠هـ).

٩. أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت٢٧٦هـ).

١٠. أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي (ت٤٢٩هـ).

رابعا: أهمية معجم أضداد ابن القطّاع الصقلي:

تكمن أهمية معجم أضداد ابن القطّاع الصقلّي مع أنّ هناك مؤلفات عديدة في الأضداد سبقته. في أن هناك كثيراً من ألفاظ الأضداد التي صرّح بها ابن القطّاع من الأضداد لم أقف عليها في كتب الأضداد هذا من جانب.

ومن جانب آخر أنّ ابن القطّاع من بلاد المغرب والأندلس من (صقلّية). وأنّ جميع مؤلفي كتب الأضداد المطبوعة التي سبقته ليس فيها عالم من بلاد المغرب والأندلس آلف في الأضداد مما يضيف إلى المكتبة اللغوية الأندلسية أثراً يخدم العربية وطلابها.

خامسا: منهجي في جمع الألفاظ (صنع المعجم):

قمت بجمع ألفاظ الأضداد عند ابن القطّاع الصقلّي من مؤلفاته اللغوية بعد اطلاعي على جميع مؤلفاته علماً أنّ منهجه في معالجته لهذه الظاهرة تتجلى بأساليب هي[١٢]:

١. تصريحه بلفظ الأضداد في تفسير الألفاظ عند ذكره المعاني المتضادة في اللفظ ويكثر هذا في عدة مواضع كما هو مبين في المعجم الذي صنعته. من ذلك قوله (حَفَلَت السماءُ حَفْلاً: جدَّ وقعها. والضرعُ: امتلأ لبناً وكَثُر أيضاً وقلَّ. ضدّ)[١٣].

٢. أضاف إلى كلام أستاذه ابن قوطية معنى أو عبارة ليدلّ على أنّ هذا اللفظ من الأضداد من ذلك قوله (ق - صَرَخَ صُرَاخاً: استغاث) (ع - وأيضاً أغاثَ، ضدّ)[١٤].

٣. ذكر المعاني المتضادة في اللفظ من غير أن يصرّح بلفظ الأضداد وهذا قليل، من ذلك قوله (مَثُل القمرُ: غاب. وأيضاً ظهر)[١٥]، وقوله (نَسَأْتُ الناقةَ في السيرِ: رفقتُ بها وأيضاً زجرتُها لتزيد في سيرها)[١٦].

ولكثرة تصريحه بلفظ الأضداد قمت بجمع الألفاظ التي صرّح بأنها من الألفاظ المتضادة ورتبتها على حروف المعجم (الترتيب الألفبائي) وراعيت ترتيب الألفاظ بحسب أوائل الألفاظ وثوانيها وثوالثها بغض النظر عن كونها أصلية أو زائدة وذلك ليسهل ويقرب تداولها. ثم قابلت الألفاظ وحققتها من كتب الأضداد معتمداً على أضداد الأصمعي والتوزي وابن السكيت والسجستاني وأبي بكر الأنباري والصاغاني ورسالة الأضداد للمنشي. فإن كانت اللفظة فيها لبس أو أي شيءٍ يستدعي الإشارة إليه بينته في الهامش، وإنْ كانت لا لبس فيها ولا أي شيءٍ يستدعي الإشارة إليه ذكرت الكتب التي وردت فيها اللفظة، كما أشرت في الهامش إلى الألفاظ التي لم أعثر عليها في كتب الأضداد. وهي كثيرة. وحرصت على ضبط النصوص بالشكل وتخريج الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة والأبيات الشعرية والأمثال وألحقت في نهاية المعجم فهارس فنية لها.

---

(١٢) ينظر: أطروحتي الدكتوراه (الجهود اللغوية لابن القطّاع الصقلي (ت - ٥١٥هـ) مع تحقيق رسائله في اللغة): ١٦٦-١٦٨.

(١٣) تهذيب كتاب الأفعال: ١/٢٢٢.

(١٤) تهذيب كتاب الأفعال: ٢/٢٣٥.

(١٥) تهذيب كتاب الأفعال ٢/٢٣٥ ولم أقف عليه في كتب الأضداد.

(١٦) تهذيب كتاب الأفعال: ٣/٢٦٩ ولم أقف عليه في كتاب الأضداد.

(الهمزة)

- ق - آنَ أوناً: رفقَ في سيره وأمرِه. وأيضاً تعب. ضدٌ[17].

- أبضع الماء: أروى. وفلاناً: شفيته. وبينت له. وأيضاً لم تبين له ما تنازعه فيه. من الأضداد[18].

- جَحِدَ الرجلُ جَحَداً. وأجحَدَ: قطع ووصل. من الأضداد[19]. قال الشاعر:

.... ولم تتبعْ حمولة مُجْحِدِ [20]

- ق -... أجحمتُ عن الأمر: تأخرت. ع - مثل أحجمت. وقال ابن دريد: أحجم: إذا أقدم. وهو من الأضداد[21].

- اجلعبَّ الرجلُ: مضى مُستَعجلاً في شرٍّ. وهو من نعت الرجُلِ السوء. وأيضاً اضطَجَعَ. وأيضاً قام منتصباً. وهو من الأضداد[22].

- ق -... وأخفيتُ الشيء: سترته. وفي نفسك: كتمته. ع - وأيضاً أظهرته. ضدٌ[23].

- أرَمَّ العظمُ: صار فيه رِمٌّ. أي: مخٌّ. ع - وأيضاً بَلِيَ. ضدٌ[24].

- أرنَ أُرناً: دنا. وتقبَّض. وأيضاً انبسط وتحرك. كأنّه من الأضداد[25].

(17) تهذيب كتاب الأفعال: ١/٥٧. وينظر: الأضداد للأصمعي: ٣٦. والأضداد لابن السكيت: ١٩٠. والأضداد للسجستاني: ١٥١. والأضداد لأبي بكر الأنباري: ١٣٠. والأضداد للصاغاني: ٢٢٣.

(18) تهذيب كتاب الأفعال: ١/٦٨ ولم أقف عليه في كتب الأضداد.

(19) تهذيب كتاب الأفعال: ١/١٥٣ ولم أقف عليه في كتب الأضداد.

(20) البيت للفرزدق وتمامه: لبيضاء من أهل المدينة لم تعش ببؤس ...

شرح ديوان الفرزدق ١/٢٦٠ وهو في إصلاح المنطق لابن السكيت: ١٤٢. والأزمنة والأمكنة للمرزوقي: ٣٢٨ وفيهما (لم تذق) مكان (لم تعش).

(21) تهذيب كتاب الأفعال: ١/١٥٩ ولم أقف عليه في كتب الأضداد.

(22) تهذيب كتاب الأفعال: ١/٢٠٠. وينظر: الأضداد للأصمعي: ٤٠. والأضداد للتوزي: ١٨٢. والأضداد لابن السكيت: ١٩٤. والأضداد للسجستاني: ١٠٨. والأضداد لأبي بكر الأنباري: ٣١٤. والأضداد للصاغاني: ٢٢٦. ورسالة الأضداد للمنشي: ٣٣.

(23) تهذيب كتاب الأفعال: ١/٢٢٢. وينظر الأضداد للأصمعي: ٢١. والأضداد للتوزي: ١٧٣. والأضداد لابن السكيت: ١٧٧. والأضداد للسجستاني: ١١٥. والأضداد لأبي بكر الأنباري: ٩٥. والأضداد للصاغاني: ٢٢٨. ورسالة الأضداد للمنشي: ٥٠.

(24) تهذيب كتاب الأفعال ٢/٥٤. وينظر: والأضداد للتوزي. ١٨٦. والأضداد للسجستاني: ١٤٨. والأضداد لأبي بكر الأنباري: ١٤٦. والأضداد للصاغاني: ٢٣١.

(25) تهذيب كتاب الأفعال ١/٤٧ ولم أقف عليه في كتب الأضداد.

- ق - أسدفَ الليلُ: أظلم. ع - وأيضاً أضاء، وهو من الأضداد[٢٦].

- ق - أسررتُ الشيءَ: أخفيته. وأيضاً: أظهرته. ع - وهو من الأضداد[٢٧].

- ق - أشاح: جَدَّ وعَزَمَ. وأيضاً حاذر. وهو من الأضداد[٢٨].

- أشبَّ الرجل: كان شاباً. وأيضاً أسنَّ من الأضداد[٢٩].

- أشجث المطر: دامَ. وأيضاً أقلع. وهو من الأضداد[٣٠].

- ق - أشحَن الإنسان: تهيأ للبكاء. ع - والسيفَ سللته وأغمدته، وهو من الأضداد[٣١].

- أشكيتك: أحوجتك إلى الشكاية. وعلى ما تشكوه أعتبتك. ع - وهو من الأضداد[٣٢].

وفي كتابه أبنية الأسماء والأفعال والمصادر: أشكَيْتُه: أزلتُه عما يشكوه. وأشكيتُه: أحوجتُه إلى الشكوى. ضدٌّ[٣٣].

- قال الأصمعي: أضَبَّ على ما في نفسه: إذا سكت. وقال أبو زيد: أضبَّ إذا تكلم. فيكون من الأضداد[٣٤].

- ق - أعبَلت الأرطى والطرفاء: أنبتت العبل وهو كل ورق مفتَّل. والشجر طلع ورقها. وأيضاً سقط.. ع - من الأضداد[٣٥].



---

(٢٦) تهذيب كتاب الأفعال: ٢/١٣٥. وينظر: الأضداد للأصمعي: ٣٥. والأضداد للتوزي: ١٦٥-١٦٦. والأضداد لابن السكيت: ١٨٩. والأضداد للسجستاني: ٨٦. والأضداد لأبي بكر الأنباري: ١١٤. والأضداد للصاغاني: ٢٣٢. ورسالة الأضداد للمنشي: ٤٥ .

(٢٧) تهذيب كتاب الأفعال: ٢/١٥٨. وينظر: الأضداد للأصمعي: ٢١. والأضداد للتوزي: ١٧٤. والأضداد لابن السكيت: ١٧٦. والأضداد للسجستاني: ١١٤. والأضداد لأبي بكر الأنباري: ٤٥. والأضداد للصاغاني: ٢٣٢. ورسالة الأضداد للمنشي: ٤١ .

(٢٨) تهذيب كتاب الأفعال: ٢/٢٢٤. وينظر: الأضداد للأصمعي: ٢٩. والأضداد لابن السكيت: ١٩٣. والأضداد للسجستاني: ١٢٥. والأضداد لأبي بكر الأنباري: ٢٧٢. والأضداد للصاغاني: ٢٣٥ .

(٢٩) تهذيب كتاب الأفعال: ٢/٢١٠. وينظر الأضداد لأبي بكر الأنباري: ٤٠٠ .

(٣٠) تهذيب كتاب الأفعال: ٢/١٩٢. ولم أقف عليه في كتب الأضداد .

(٣١) تهذيب كتاب الأفعال: ٢/١٨٤. وينظر: الأضداد للصاغاني ٢٣٣ .

(٣٢) تهذيب كتاب الأفعال: ٢/٢٢٠. وينظر: الأضداد للأصمعي: ٥٧. والأضداد للتوزي: ١٧٨. والأضداد لابن السكيت: ٢٠٨. والأضداد للسجستاني: ١٠٦. والأضداد لأبي بكر الأنباري. ٢٢١. والأضداد للصاغاني: ٢٣٤ .

(٣٣) أبنية الأسماء والأفعال والمصادر: ٢٨٥ .

(٣٤) تهذيب كتاب الأفعال: ٢/٢٧٩. وينظر: الأضداد للسجستاني: ١٢١. والأضداد لأبي بكر الأنباري: ٢٧٠. ورسالة الأضداد للمنشي: ٣٥ .

(٣٥) تهذيب كتاب الأفعال: ٢/٣٤٩. وينظر: الأضداد للسجستاني: ١٤٢. والأضداد لأبي بكر الأنباري: ٤٠٠. والأضداد للصاغاني: ٢٣٨.

- ق - أعليت عن الشيء والوسادة: ارتفعت. ع - وأيضاً نزلت. ضد[36].

- ق - أفرطتُ الشيءَ: نسيتُه. والمرأة أولاداً: قدمتهم. وأيضاً آخرتهم ضدٌ[37].

- أفزَع لغة بمعنى خاف. وفَزِعت إليك وفَزِعت منك. وأفزعت القوم: أخَفْتُهم. وأيضاً أغثتهم من الأضداد[38]. وفَزَعت القوم فَزَعاً أيضاً: أغثتُهم لغة. وفُزِع عنه: كُشف عنه الخوفُ. ومنه قوله تعالى: ﴿حتّى إذا فُزِّعَ عنْ قلوبهمْ﴾[39] وفَزَّعه: أخافه. فالتفزيع من الأضداد أيضاً. ومن الإغاثة والنصر قوله (ﷺ) للأنصار: (إنكم لتقلّون عند الطمع وتكثرون عند الفزع)[40].

- ق - أقرنت للشيء: أطقته. ع - والناقة: ألقت بَعرَها مجتمعاً. وعن الأمر: ضعفت. وبالأمر: استقللت به. وهو من الأضداد[41].

- ق - أقعثته: أرضيته. والعطية: كثرت... والشيء قعثاً: استأصلته. ع - وأقعثت: أجزلت. كأنه من الأضداد[42].

- أكريتُ الدارَ وغيرهما. والشيء: أخرته. ع - وأيضاً قَصَّرته. وأيضاً أطلته. وهو من الأضداد. وفي الحديث (أطلتُ)[43]. والظل والزاد وغيرهما: زاد. وأيضاً نقص من الأضداد[44].

- ق - أمرستُه: أخرجتُه. ع - وأيضاً أنشبته. وهو من الأضداد[45].

(36) تهذيب كتاب الأفعال ٢/ ٣٩٤. ولم أقف عليه في كتب الأضداد.

(37) تهذيب كتاب الأفعال: ٢/٤٥٨. وينظر: الأضداد للسجستاني: ١٤١. والأضداد لأبي بكر الأنباري: ٧١. و الأضداد للصاغاني: ٢٤١. وفي تهذيب كتاب الأفعال (أخرته) والصواب ما أثبتناه.

(38) تهذيب كتاب الأفعال ٢/٤٦٦. وينظر: الأضداد للسجستاني: ١٢١. ١٤٥. والأضداد لأبي بكر الأنباري: ١٩٩. ٢٨٣. والأضداد للصاغاني: ٢٤١. ورسالة الأضداد للمنشي: ٤٤-٤٥.

(39) سورة سبأ من الآية (٢٣)

(40) الحديث في الفائق في غريب الحديث ٣/١٥١. والنهاية في غريب الحديث والأثر: ٣/٨٤٨.

(41) تهذيب كتاب الأفعال ٣/٩. ولم أقف عليه في كتب الأضداد.

(42) تهذيب كتاب الأفعال: ٣/١٥. وينظر: الأضداد للصاغاني: ٢٤٢. ورسالة الأضداد للمنشي: ٣٦.

(43) هكذا ورد الشاهد في تهذيب كتاب الأفعال لابن القطاع ولعله وهم من ابن القطاع فالكلام عن (أكرى) ولعل الشاهد حديث ابن مسعود رضي الله عنه كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة فأكرينا في الحديث. أي أطلنا الحديث ينظر: الفائق في غريب الحديث: ٣/٢٥٧.

(44) تهذيب كتاب الأفعال: ٣/١٠٥. وينظر: الأضداد للأصمعي: ٢٧. والأضداد لابن السكيت: ١٨٢. والأضداد لأبي بكر الأنباري: ٨٢. والأضداد للصاغاني: ٢٤٢. ورسالة الأضداد للمنشي: ٥١.

(45) تهذيب كتاب الأفعال: ٣/١٧١. وينظر: رسالة الأضداد للمنشي: ٤٢.

- ق - نصلت السهم والرمح: جعلت فيهما نَصْلاً. وأنصلتهما: نزعت نصالهما... وأنصلت السهم: جعلت فيه نصلاً عن أبي عُبيد. ع - والأصمعي وهو من الأضداد(٤٦).

- ق - أَنِفْتُ من الشيء أَنَفاً وأَنَفَةً: غَضِبْتُ منه وكرهته. وأيضاً تنزهت عنه. ع - وأيضاً أحببتُه. ضِدٌّ(٤٧).

- أهمَدَ في الأمر: توانى فيه. وأيضاً جدَّ فيه من الأضداد(٤٨).

- ق - أهنَفَ الصبيُّ: تباكى. ع - وأيضاً ضَحِك. وهو من الأضداد(٤٩).

- ق - أوجيتُك: أعطيتُك. ع - وأيضاً منعتك وهو من الأضداد(٥٠).

(الباء)

- باعَ الشيء بيعاً: باعه واشتراه. من الأضداد(٥١).

- ق - باقت البائقة بوقاً... ع - والشيء: غاب. وأيضاً ظهر. من الأضداد(٥٢).

- أبان... الشيء: أوضحه. وبانَ: وصل. وأيضاً فارق من الأضداد(٥٣).

- البَخْنُ: الطويلُ. وزعم الخليل أنّه القصيرُ ضِدٌّ(٥٤).

- بَلَقْتُ البابَ وأبلَقْته: أغلقتُه وفتحته. من الأضداد(٥٥).

---

(٤٦) تهذيب كتاب الأفعال: ٢/٢٢٦. وينظر: الأضداد للصاغاني: ٢٤٦.

(٤٧) تهذيب كتاب الأفعال ١/٣٩. ولم أقف عليه في كتب الأضداد.

(٤٨) تهذيب كتاب الأفعال: ٣/٣٤٢. وينظر: الأضداد للأصمعي: ٣٨. والأضداد للتوزي: ١٧٥. والأضداد لابن السكيت: ١٨٣. والأضداد للسجستاني: ١١٨. والأضداد لأبي بكر الأنباري: ١٧٢. والأضداد للصاغاني: ٢٤٨. ورسالة الأضداد للمنشي: ٣٩.

(٤٩) تهذيب كتاب الأفعال: ٣/٣٥٤. وينظر: الأضداد لأبي بكر الأنباري: ٣٦٢.

(٥٠) تهذيب كتاب الأفعال ٣/٣١٧، ٣٣٢. ولم أقف عليه في كتب الأضداد.

(٥١) تهذيب كتاب الأفعال: ١/١٠١. وينظر: الأضداد للأصمعي: ٢٩، ٥١. والأضداد للتوزي: ١٦٧. والأضداد لابن السكيت: ١٨٤، ٢٠٤. والأضداد للسجستاني: ١٠٦. والأضداد لأبي بكر الأنباري: ٧٢-٧٥، ١٩٩. والأضداد للصاغاني: ٢٢٥. ورسالة الأضداد للمنشي: ٤٤.

(٥٢) تهذيب كتاب الأفعال ١/١٠٦. ولم أقف عليه في كتب الأضداد.

(٥٣) تهذيب كتاب الأفعال: ١/١٠٢. وينظر: الأضداد للأصمعي: ٥٢. والأضداد لابن السكيت: ٢٠٤. والأضداد لأبي بكر الأنباري: ٧٥. والأضداد للصاغاني: ٢٢٥.

(٥٤) كتاب الطوال حققته في أطروحتي الدكتوراه (الجهود اللغوية لابن القطّاع الصقلّي (ت ٥١٥هـ) مع تحقيق رسائله في اللغة): ٢٧٣ واللفظة لم اقف عليها في كتب الأضداد.

(٥٥) تهذيب كتاب الأفعال ١/٦٥. ولم أقف عليه في كتب الأضداد.

(التاء)

- يقال: تَحَلْحَلَ القومُ: تزايلوا وتفرقوا. وتلحلحوا: آقاموا وثبتوا. وهذا مما مقلوبه ضده[٥٦].

- ق - تَفِلَ تَفَلاً: ترك الطيب فتغيّرت ريحُه. ع - وهو أيضاً الطيّب الريح. ضد[٥٧].

(الثاء)

- ثأثأتُ الرجلَ عن موضعه: أزلته عنه. والإبل: أرويتها. والغضبَ سكّنته. وكأنه من الأضداد[٥٨] لأنّه جعل للحركة والسكون. والرجل: حبسته. وعن القوم دفعت.

- ثَلَلْتُ الشيء ثلاًّ وثَلَلاً: هدمته. وأيضاً: أصلحتُه. وهو من الأضداد[٥٩]. ويقال: أثلّه: آصلحه. وثلّه: هدمه.

- ثَمَأَ الكمأة ثمأ وثموءاً: طبخها بالسمن... والرأس بالحجر: شدخه. والرجل: قتله. من الأضداد[٦٠].

- ق - ثَمّ الشيء ثمّاً: أصلحه... ع - والرجل: فعلت به خيراً. وأيضاً قتلته ضد[٦١].

(الجيم)

- ق - جَدوتُ الرجلَ جَدْواً وجَدَاً: سألته. وأيضاً أعطيته. ع - من الأضداد[٦٢]. وأنشد:

جَدَوْتُ أناساً موسرين فما جَدَوْا ... ألا الله فاجْدُوهُ إذا كنت جاديا[٦٣]

- ق - جَعِمَ جَعَماً: قرِم الى اللحم... ع - وأيضاً اشتهى الطعام. وأيضاً لم يشتهه. وهو من الأضداد[٦٤].

---

(٥٦) تهذيب كتاب الأفعال ١/ ٢٧٠. وينظر: الأضداد لأبي بكر الأنباري: ٢٣٦.

(٥٧) تهذيب كتاب الأفعال: ١/ ١٢٠. وينظر: الأضداد لأبي بكر الأنباري: ٣٧٩. والأضداد للصاغاني: ٢٢٥.

(٥٨) تهذيب كتاب الأفعال:١/ ١٤٥. وفي أضداد الصاغاني: ٢٢٥. ورسالة الأضدا للمنشي: ٣٢. الثأثأة: الإرواء والتعطيش.

(٥٩) تهذيب كتاب الأفعال ١/ ١٤٠. وينظر: الأضداد لأبي بكر الأنباري: ٢٨٧. وفيه يقول أبو بكر الأنباري: (ليس عندي ... إذ كان "ثَلَلْتُ" يخالف "أثْلَلْتُ" فلا يجوز أن يُعَدَّ في الأضداد حرف لا يقع إلا على معنى واحد. والمعروف عند أهل اللغة: ثَلَلْتُ عرشَه: أهلكتُه. يقال: قد ثُلَّ عرش فلان. وثَلَّ عرشَه. وأثلَّ الله عرشه. إذا أهلكه. والثَّلل هو الهلاك. قال زهير:

تداركتُما الأحلاف إذ ثُلَّ عَرْشُها ... وَذُبيان إذ زَلَّت بأقدامِها النَّعْلُ

أراد: إذ هلكوا) ديوان زهير بن أبي سلمى:٨٦

(٦٠) تهذيب كتاب الأفعال ١/ ١٢٨-١٢٩. ولم أقف عليه في كتب الأضداد.

(٦١) تهذيب كتاب الأفعال ١/ ١٤١. ولم أقف عليه في كتب الأضداد.

(٦٢) تهذيب كتاب الأفعال ١/ ١٨٧-١٨٨. وينظر: الأضداد لأبي بكر الأنباري. ٢٠١. والأضداد للصاغاني: ٢٢٦.

(٦٣) البيت في الأضداد لأبي بكر الأنباري: ٢٠١. وكتاب الأفعال لابن القوطية: ٥٢. ولسان العرب (جدا) ٢/ ٦٣ من غير نسبة.

(٦٤) تهذيب كتاب الأفعال ١/ ١٧٢. ولم أقف عليه في كتب الأضداد.

- ق - جَنَح الرجلُ على الشيء يعمله: انحنى. وإلى الشيء: مال. والشيءُ: مال. ع - وأيضاً قام. وهو من الأضداد[٦٥].

(الحاء)

- ق - حَبَا الصَبي قبل مشيه حَبْواً.... والرجل حباءً: أعطيته. والشيء منك: قرب. والغيم من الأرض. كذلك. ع - والشيء: أشرف. وأيضاً امتدّ. والرجلُ: ماله: منَعه. عن كُراع. وهو عنده من الأضداد[٦٦].

- حَطَطْنا في طعام فلان: أكلنا يسيراً وكثيراً. ضدٌّ[٦٧].

حَفَلت السماءُ حَفلاً: جدَّ وقعُها. والضَرْعُ: امتلأ لَبَناً. وكثر أيضاً وقلَّ. ضدٌّ[٦٨].

(الخاء)

- ق - خَبَطَ الورقَ خَبْطَاً: نفضه.... والرجل: سألته. وأيضاً أعطيته. ع - وهو من الأضداد[٦٩].

- ق - خَجِل خَجَلاً: أشِرَ وبَطِرَ. ع - ونَشِط. وأيضاً كَسِل. ضدٌّ[٧٠].

- ق - خَشَبَ السيفَ خَشْباً: صقَلَه وشحَذَه. ع - وأيضاً ابتدأ عملَه. وهو من الأضداد[٧١]

- ق - خطَّ الكتابُ خَطَّاً: كتَبَه... ع - والزاجرُ بإصبعه في الرمل وفي الطعام: أكل كثيراً وقليلاً ضدٌّ[٧٢].

- ق - خفرته خَفْراً وخُفارة وخَفَارة وخِفَارة: منعتُه وحميته... وأخفرتُه: نقضتُ عهدَه. وأيضاً بعثتُ معه خفيراً. أي: مُجيراً. ع - وهو من الأضداد[٧٣].

- ق -... خَفيتُ الشيءَ خفياً: أظهرته. ع - وأيضاً كتمته وهو من الأضداد[٧٤].

- ق - خَلَّ الجسمُ يَخِلُّ ويَخَلُّ خلاً: نقص. ع - وهزل. وأيضاً سَمِن. ضدٌّ[٧٥]

---

(٦٥) تهذيب كتاب الأفعال ١/١٥١، ولم أقف عليه في كتب الأضداد .

(٦٦) تهذيب كتاب الأفعال ١/٢٦٤، ولم أقف عليه في كتب الأضداد .

(٦٧) تهذيب كتاب الأفعال ١/٢٤٨، وينظر: الأضداد لأبي بكر الأنباري: ٤٠٧ .

(٦٨) تهذيب كتاب الأفعال ١/٢٢٣، وينظر: الأضداد لأبي بكر الأنباري: ٢٨٢، والأضداد للصاغاني: ٢٢٧ .

(٦٩) تهذيب كتاب الأفعال ١/٣٠٢، ولم أقف عليه في كتب الأضداد .

(٧٠) تهذيب كتاب الأفعال: ١/٢٩٣، وينظر: الأضداد للأصمعي: ١٥ ، والأضداد لابن السكيت: ١٧١، والأضداد للصاغاني: ٢٢٨ .

(٧١) تهذيب كتاب الأفعال: ١/٣٠٥، وينظر: الأضداد للأصمعي: ٤٤، والأضداد لابن السكيت: ١٩٨، والأضداد لأبي بكر الأنباري: ٣٢٧، والأضداد للصاغاني، ٢٢٨، ورسالة الأضداد للمنشي: ٣٣ .

(٧٢) تهذيب كتاب الأفعال ١/٣١٥، ولم أقف عليه في كتب الأضداد .

(٧٣) تهذيب كتاب الأفعال ١/٢٨٩-٢٩٠، ولم أقف عليه في كتب الأضداد .

(٧٤) تهذيب كتاب الأفعال: ١/٣٢٣، وينظر: الأضداد للأصمعي: ٢١، والأضداد للتوزي: ١٧٣، والأضداد لابن السكيت: ١٧٧، والأضداد للسجستاني: ١١٥ والأضداد لأبي بكر الأنباري: ٩٥-٩٩، والأضداد للصاغاني: ٢٢٨ .

(٧٥) تهذيب كتاب الأفعال: ١/٣١٢، وينظر: الأضداد للأصمعي: ٤٣، والأضداد لابن السكيت :١٩٦، والأضداد للصاغاني: ٢٢٩ .

- ق - خَلَفُ سَوءٍ. قال الأخفش: هما سواء منهم من يسكن ومنهم من يحرك فيهما جميعاً. ومنهم من يقول: خَلَفُ صدقٍ. وخَلْفُ سَوءٍ يريد بذلك الفرق بينهما وكل ذلك إذا أضاف. وحيٌّ خُلُوفٌ: أي غُيَّبٌ وحضور. وهو من الأضداد[٧٦].

(الدال)

- دامَ الشيءُ: سكن. ق - ودام الشيءُ والمطرُ دواماً: أقام.... ع - وأيضاً دَار. وهو من الأضداد[٧٧]. وفي الحديث: (نهى أن يُبال في الماء الدائم)[٧٨]. أي: الساكن. والشيء يَدومُ ويَدامُ دَوماً ودَواماً ودَيمومةً. والسماء تديمُ ديماً. ومنه الديمةُ.

- الدعْكَايَةُ: الطويلُ. وهو القصير. أيضاً ضدٌّ[٧٩].

(الذال)

- ق - ذائرَ الرجلُ: أَنِفَ وغَضِبَ ذَأْرًا فيهما. وأيضاً جَبُنَ. ع - وبالشيء ضَرِيتُ به و اعتَدْتُه. وأيضاً كَرِهتُه من الأضداد[٨٠].

(الراء)

- ق - رتا رَتْواً: خطا.... والشيء: أرخيته. ع - وأيضاً شددته. وهو من الأضداد[٨١] ومنه الحديث (الحساءُ يَرْتُو فؤادَ الحَزين)[٨٢] أي: يشدّه.

- ق - رجَوتُ الشيء ورَجيته رَجاءً ضد يئِسْتُ منه. ورجوته رَجْواً ورَجاءً: خفته. قال الله تعالى: ﴿فمنْ كان

---

(٧٦) تهذيب كتاب الأفعال ١/٣٨٠. وينظر: الأضداد للأصمعي: ٥٢. والأضداد للتوزي: ١٨٣. والأضداد لابن السكيت: ٢٠٧. والأضداد للسجستاني: ١٤٨. ورسالة الأضداد للمنشي: ٤٥ .

(٧٧) تهذيب كتاب الأفعال ١/٣٦٩. وينظر: الأضداد للتوزي: ١٨٥. والأضداد للسجستاني: ١٢٩. والأضداد لأبي بكر الأنباري: ٨٣ .

(٧٨) أخرجه أحمد في مسنده ٢/٤٩٢. والنسائي في سننه ١/١٩٧ .

(٧٩) كتاب الطوال حققته في أطروحتي الدكتوراه (الجهود اللغوية لابن القطّاع الصقلي (ت ٥١٥ هـ) مع تحقيق رسائله في اللغة): ٢٧٣ واللفظة لم اقف عليها في كتب الأضداد .

(٨٠) تهذيب كتاب الأفعال ١/٣٩٩. ولم أقف عليه في كتب الأضداد .

(٨١) تهذيب كتاب الأفعال: ٢/٧٤. وينظر: الأضداد للأصمعي: ٤٢. والأضداد للتوزي: ١٨٦. والأضداد لابن السكيت: ١٩٦. والأضداد لأبي بكر الأنباري: ٨٨-٨٩. والأضداد للصاغاني: ٢٢٠. ورسالة الأضداد للمنشي: ٤٩ .

(٨٢) الحديث في النهاية في غريب الحديث والأثر: ٢/١٩٤. وفيه (الحسا) بحذف الهمزة. وفي موضع آخر (الحسا يرو عن الفؤاد السقيم) ٢/٣٦٤

يرجو لقاء ربه ﴾[٨٣] أي: يخافه. ع - ضدٌّ[٨٤].

- ق - رَسَّ الحديث في نفسه رَسّاً: حدّثها به. وبين القوم: أصلحَ. ع - وأيضاً أفسدَ وهو من الأضداد[٨٥].

- ق - رَضَّ الشيءَ رَضّاً: كسره ودقّه. وأرضّ: أسرع. ع - والرجلُ: ثقُل وأبطأ ضدٌّ[٨٦].

- ق - رَغَثه رَغْثاً وارْتَغَثه: طعنه بالرمح. وكلّ أنثى ولدها أرضعَتْه. فهي رَغوثٌ. ع - كذلك والراضعُ أيضاً رَغُوثٌ ضدٌّ[٨٧].

(الزاي)

- ق - زَعِلَ زَعَلاً: نشط وأشِر. ع - وأيضاً ضعف ضدٌّ[٨٨].

- ناقةٌ زَعُوم: سَمينةٌ ومهزولة ضدٌّ[٨٩].

- زَنَأَ عليه زُنوءاً وزَنَاءً: ضَيَّقَ. والشيء: ضاق، وأيضاً قصر. وفي الجبل: صعد. وأيضاً لصق بالأرض ضدٌّ[٩٠].

- ق - زَهَق فلان بين أيدينا زُهُوقاً: ذهب.... والشيء: بطل. والدابة: سمن. ع - وأيضاً هُزِل. ضدٌّ[٩١].

(السين)

- سَبَدَ رأسَه وسَبَّده: حلقَه وأعفاه، من الأضداد[٩٢].

---

(٨٣) سورة الكهف من الآية (١١٠).

(٨٤) تهذيب كتاب الأفعال ٦٩/٢. وينظر: الأضداد للأصمعي: ٢٣، والأضداد للتوزي: ١٦٤، والأضداد لابن السكيت: ١٧٩ والأضداد للسجستاني: ٨٠، والأضداد لأبي بكر الأنباري: ١٦-١٧، والأضداد للصاغاني: ٢٣٠، ورسالة الأضداد للمنشي: ٤٩.

(٨٥) تهذيب كتاب الأفعال ٥٣/٢. وينظر: الأضداد للسجستاني: ١٤٨، والأضداد لأبي بكر الأنباري :٣٨٣، والأضداد للصاغاني: ٢٣٠، ورسالة الأضداد للمنشي: ٤١.

(٨٦) تهذيب كتاب الأفعال ٥٦/٢، ولم أقف عليه في كتب الأضداد.

(٨٧) تهذيب كتاب الأفعال ٩/٢. وينظر: الأضداد للتوزي: ١٧٧، والأضداد للسجستاني: ١١٢، والأضداد لأبي بكر الأنباري : ٣٥٧.

(٨٨) تهذيب كتاب الأفعال ٩٥/٢، ولم أقف عليه في كتب الأضداد.

(٨٩) تهذيب كتاب الأفعال ٨٧/٢. وينظر: الأضداد للسجستاني: ١٥٠، والأضداد لأبي بكر الأنباري :٤٠٤، والأضداد للصاغاني: ٢٣١.

(٩٠) تهذيب كتاب الأفعال: ١٠٢/٢. وينظر: الأضداد لأبي بكر الأنباري :٢٧٢، والأضداد للصاغاني: ٢٣١.

(٩١) تهذيب كتاب الأفعال: ٩٣/٢. وينظر: الأضداد للتوزي: ١٨٧، والأضداد لأبي بكر الأنباري :١٥٤، والأضداد للصاغاني : ٢٣٢.

(٩٢) تهذيب كتاب الأفعال: ١٣١/٢. وينظر: الأضداد للسجستاني: ٩١، والأضداد لأبي بكر الأنباري :٣٠٩، والأضداد للصاغاني: ٢٣٢.

- سَجَدَ البعيرُ وأسجد: إذا خفض رأسه ليُركب. والرجل: انحنى. وسجد الرجل استسلم وفي لغة طيء انتصب ضدّ[93].

- سجرتُ الناقة سجيراً: مدّت حنينها. والنار سَجْراً أوقدتها. والإناء امتلأ فهو ساجر. وملأته فهو مسجور. ع - ﴿وإذا البحار سُجِرَتْ﴾[94]. أي: خلت من الماء. وزعموا أنه من الأضداد. يقال: سجرتُ الشيءَ: ملأته وفرغته. ضدّ[95].

- ق - سَمَدَت الإبلُ سُموداً: صبرت على التعب... ع - والشيء: علا. وأيضاً قصد. وأيضاً لها. وأيضاً اهتم من الأضداد... وسَمَّد رأسه: استأصله. وأيضاً طوّله. ضدّ[96].

(الشين)

- ق - شاءك: أحزنك. ع - وأيضاً سرّك. وهو من الأضداد[97].

- ق - شَدَنَ الصبيُّ والظبيُ شُدوناً: تَرَعْرَعَ وصَلُح جسمه. ع - وأيضاً هُزِل ضدّ[98].

- ق - شعَبتُ الشيءَ شعْباً: جمعتَهُ. وأيضاً فرَّقتَهُ. ع - والأمرَ: أصلحتَهُ. وأيضاً أفسدتَهُ. والشيءَ: صممته ولأمته. وأيضاً فرَّقتَهُ وصدعتَهُ. وهو من الأضداد[99].

- ق - شَفَّ الثوبُ على المرأة شَفوفاً وشَفيفاً: وصف ما خلفه. والشيءُ على الشيء: زاد شِفّاً. وأيضاً نقص. ع - وهو من الأضداد[100].

- شَمَرَ شَمْراً: اختال. والشاةُ انضمَّ ضرعُها. وأشمر النخل: صرمه. وشمَّر عن ساقيه ثوبَه: رفعه. والسفينة: أرسلتها ضدّ[101].

---

(٩٣) تهذيب كتاب الأفعال: ٢/١٢٥. وينظر: الأضداد للأصمعي: ٤٣. والأضداد لابن السكيت: ١٩٦. والأضداد لأبي بكر الأنباري: ٢٩٤-٢٩٧. والأضداد للصاغاني: ٢٣٢. ورسالة الأضداد للمنشي: ٣٨.

(٩٤) سورة التكوير الآية (٦)

(٩٥) تهذيب كتاب الأفعال: ٢/١٢٣. وينظر: الأضداد للأصمعي: ١٠. والأضداد للتوزي: ١٨٣ والأضداد للسجستاني: ١٢٦-١٢٧. والأضداد لأبي بكر الأنباري: ٥٤-٥٦. والأضداد للصاغاني: ٢٣٢.

(٩٦) تهذيب كتاب الأفعال: ٢/١٣٨. التضاد الأول وقفت عليه في الأضداد للسجستاني: ١٤٣-١٤٤. والأضداد لأبي بكر الأنباري: ٤٢. والتضاد الثاني لم أقف عليه في كتب الأضداد.

(٩٧) تهذيب كتاب الأفعال ٢/٢١٥. ولم أقف عليه في كتب الأضداد.

(٩٨) تهذيب كتاب الأفعال ٢/١٨٣. ولم أقف عليه في كتب الأضداد.

(٩٩) تهذيب كتاب الأفعال: ٢/١٨٥. وينظر: الأضداد للأصمعي: ٧. والأضداد للتوزي: ١٨٢-١٨٣. والأضداد لابن السكيت: ١٦٦. والأضداد للسجستاني: ١٠٨. والأضداد لأبي بكر الأنباري: ٥٣. والأضداد للصاغاني: ٢٣٤. ورسالة الأضداد للمنشي: ٣٤.

(١٠٠) تهذيب كتاب الأفعال: ٢/٢١١. وينظر: الأضداد للأصمعي: ٣٨. والأضداد لابن السكيت: ١٩٣. والأضداد للسجستاني: ١٤٠. والأضداد لأبي بكر الأنباري: ١٦٦. والأضداد للصاغاني: ٢٣٤. ورسالة الأضداد للمنشي: ٤٥.

(١٠١) تهذيب كتاب الأفعال ٢/٢٠٣. ولم أقف عليه في كتب الأضداد.

- الشَهيد الحاضر، والشَهيد الحي، وهو المقتول أيضاً، ضد[١٠٢].

- شَوِه شَوَهاً ق - قَبُح... والفرس وغيرها: حَسُنت، وأيضاً اتسعت مَنخِرَاها، وأيضاً طال عنقها، وأيضاً اتسع فمها، وأيضاً صَغُر، ضد[١٠٣].

(الصاد)

- ق - صار إلى الشيء يصيرُ صَيْرورة وصَيُّوراً: رجع. والشيء: ضمّه، وأيضاً قطعه. ع - ضد[١٠٤] وأيضاً كفه، وأيضاً فلقه وصدعه وعطفه ووجّهه وصوّره.

- ق - صاعَ الشجاع أقرانه صَوْعاً: جمعهم من كل ناحية، والراعي إبله كذلك، وأيضاً فرقها. ع - من الأضداد[١٠٥].

- ق - صَرَخ صُراخاً: استغاث. ع - وأيضاً أغاث، ضد[١٠٦].

- ق - صَرَدتُ السهمَ صَرْداً وأصردته: أنفذته، وصَرَدَ هو صَرْداً: نَفَذَ. ع - وأيضاً أخطأ من الأضداد[١٠٧]. وأصردَ أيضاً كذلك.

- صَرَيتُ الماءَ واللبن والدمع صَرياً: حبسته في مستقر أو إناء... ع - وبين القوم: فصلتُ والشيءُ علا، وأيضاً سَفُل من الأضداد[١٠٨].

- ق- وصَرِي الماءُ صَرىً: اجتمع في مَنقَعه.. ع -... والشيء: رفعه، وأيضاً قطعه، وأيضاً تأخر من الأضداد[١٠٩].

---

(١٠٢) تهذيب كتاب الأفعال ٢/١٩١، ولم أقف عليه في كتب الأضداد.

(١٠٣) تهذيب كتاب الأفعال ٢/٢٢٣، وينظر: الأضداد للأصمعي: ٢٣٥.

(١٠٤) تهذيب كتاب الأفعال: ٢/٢٥٦، وينظر: الأضداد للأصمعي: ٣٣، والأضداد لابن السكيت: ١٨٧، والأضداد للسجستاني: ٩٨، والأضداد لأبي بكر الأنباري: ١٤-٣٨، والأضداد للصاغاني: ٢٢٦.

(١٠٥) تهذيب كتاب الأفعال ٢/٢٦٠، ولم أقف عليه في كتب الأضداد.

(١٠٦) تهذيب كتاب الأفعال: ٢/٢٣٥، وينظر: الأضداد للأصمعي: ٥٣-٥٤، والأضداد لابن السكيت: ٢٠٨، والأضداد للسجستاني: ١٠٥، والأضداد لأبي بكر الأنباري: ٨٠، والأضداد للصاغاني: ٢٣٥، ورسالة الأضداد للمنشي: ٣٧.

(١٠٧) تهذيب كتاب الأفعال: ٢/٢٣٠، وينظر: الأضداد للأصمعي: ٦٠، والأضداد للسجستاني: ١٣٦، والأضداد لأبي بكر الأنباري: ٢٦٥، والأضداد للصاغاني: ٢٣٥، ورسالة الأضداد للمنشي: ٣٨.

(١٠٨) تهذيب كتاب الأفعال: ٢/٢٦١، وينظر: الأضداد للأصمعي: ١٢-١٤، والأضداد لابن السكيت: ١٧٢-١٧٣، والأضداد للصاغاني: ٢٣٥.

(١٠٩) تهذيب كتاب الأفعال: ٢/٢٦١-٢٦٢، وينظر: الأضداد للأصمعي: ١٢-١٤، والأضداد لابن السكيت: ١٧٢-١٧٣، والأضداد للصاغاني: ٢٣٥.

- ق - صَعِدَ صُعوداً. ع - وصَعَّد. ق - ارتقى. وأصعد في الأرض: ذهب فيها. وقد يجعلان بمعنى الارتفاع... ع - وأصعد في الوادي وصَعَّد: إذا انحدر فيه ضدٌّ[110].

(الضاد)

- ضَرَبَ أيضاً ضرباً. وضَرَبَ الرجلُ: أسرع. وبنفسه الأرض: لم يَبرح. وأيضاً سافر. وهو من الأضداد[111].

(الطاء) - الطَرْطَبَةُ: اضطرابُ الماء في الجوفِ والقِربةِ. وأيضاً دُعاء الغنم بالشفتين. وأيضاً زَجْرُها ضدٌّ[112].

- طَمَرَ أيضاً سَفَلَ. وأيضاً علا ضدٌّ[113].

- ق - طمَّ البحرُ والشيءُ يَطُمُّ طُموماً: علا.... والشعرَ طمّاً: جززتُه. ع - وأيضاً وفَّرتُه ضدٌّ[114].

(العين)

- عَزَرْتُ الرجلَ عَزْراً: منعتهُ من الشيء. وعَزَّرته: وقَّرته. وأيضاً أدَّبته من الأضداد[115].

- عَفَا الشيءُ عَفوَاً: كَثُر. وأيضاً دَرَس وتَغَيَّر. ع - من الأضداد[116].

(الغين)

- ق - غَبَرَ الشيءُ غُبُوراً: بَقَي. ع - وأيضاً ذهب ومضى وهو من الأضداد[117].

- ق - غَبِي عنّي غَباً: خَفَي. والأخبار كذلك. ع - وغَبيت عن الشيء وغَبِيته. وغبى عليَّ: إذا لم تعرفه ضدٌّ[118].

---

(١١٠) تهذيب كتاب الأفعال ٢/٢٤١. وينظر: رسالة الأضداد للمنشي: ٣٨ .

(١١١) تهذيب كتاب الأفعال ٢/٢٦٧. ولم أقف عليه في كتب الأضداد .

(١١٢) تهذيب كتاب الأفعال: ٢/٣١٦. وينظر: الأضداد لأبي بكر الأنباري: ٤٠٧. والأضداد للصاغاني: ٢٣٧ .

(١١٣) تهذيب كتاب الأفعال: ٢/٢٩٥. وينظر: الأضداد للصاغاني: ٢٣٧ .

(١١٤) تهذيب كتاب الأفعال ٢/٣٠٥. ولم أقف عليه في كتب الأضداد .

(١١٥) تهذيب كتاب الأفعال: ٢/٣٦٤. وينظر: الأضداد لأبي بكر الأنباري: ١٤٧. والأضداد للصاغاني: ٢٢٩ .

(١١٦) تهذيب كتاب الأفعال: ٢/٣٩٧. وينظر: الأضداد للأصمعي: ٨. والأضداد للتوزي: ١٦٨-١٦٩. والأضداد لابن السكيت: ١٦٧. والأضداد للسجستاني: ٩٢. والأضداد لأبي بكر الأنباري: ٨٦-٨٨. والأضداد للصاغاني: ٢٣٩. ورسالة الأضداد للمنشي: ٥٠ .

(١١٧) تهذيب كتاب الأفعال: ٢/٤١٧. وينظر: الأضداد للأصمعي: ٥٨. والأضداد للسجستاني: ١٥٢. والأضداد لأبي بكر الأنباري: ١٢٩. والأضداد للصاغاني: ٢٤٠. ورسالة الأضداد للمنشي: ٤١ .

(١١٨) تهذيب كتاب الأفعال: ٢/٤٣٠. وينظر: رسالة الأضداد للمنشي. ٥٠ .

- ق - غَذَا الطعامُ الصبيّ غذاء: نجع فيه... والبائل ببوله غذوا: سال. ع - وأيضاً: انقطع. وهو من الأضداد[119].

- ق - غرِضت إلى الشيء غَرضاً: اشتقت. ومنه: مَللتُ وضَجرتُ. ع - وهو من الأضداد[120].

- غَرَضَ الشيءُ غَرْضاً وغُروضةً فهو غَريضٌ. أي: طري. وغَرضتُ الإناء أيضاً: إذا لم تملأه وهو من الأضداد[121].

- غضت النارُ: عَظُمت فهي غاضية. أي مضيئة. وأيضاً أظلمت وهو من الأضداد[122].

- ق - غَفَرَ اللهُ الذنبَ غَفْراً: سَتَرَه... والمريضُ: نُكِسَ. والجُرح: انتقضَ. ع - وغَفِر الجُرحُ أيضاً غَفْراً كذلك. وأيضاً بَرِئ. وهو من الأضداد[123].

- غَمِدت البئر غَمَداً: كثر ماؤها. والليلةُ: أظلمت : وغَمَدت البئر أيضاً غَمْداً: كثر ماؤها. وأيضاً اندفن ماؤها ضدٌّ[124].

(الفاء)

- فَرَّطت الرجل تفريطاً: مدحتُه حتى أفرطتُ في مدحه. وأيضاً هجوتُه ضدٌّ[125].

- وفَرَّطت فيه: قصَّرت عنه. والرجل كفّفته وأمهلته. والشيء: تركته وأخرته ضدٌّ[126]. وأيضاً تقدمته.

- فَرَعتُ في الجبل: صَعدتُ. وانحَدرتُ أيضاً من الأضداد[127].

(القاف)

- قَرَّضته مشدّدٌ: مدحته. مثل قرظته بالظاء. وقرَّظته: هجوته ضدٌّ[128].

(119) تهذيب كتاب الأفعال ٢/٤٤٥. ولم أقف عليه في كتب الأضداد .

(120) تهذيب كتاب الأفعال: ٢/٤١٢، وينظر: الأضداد لأبي بكر الأنباري: ١٠٦-١٠٧ .

(121) تهذيب كتاب الأفعال: ٢/ ٤١٢. وينظر: الأضداد للصاغاني: ٢٤٠. ورسالة الأضداد للمنشي: ٤٣ .

(122) تهذيب كتاب الأفعال: ٢/٤٤١. وينظر: الأضداد للأصمعي: ٤٥. والأضداد لابن السكيت: ١٩٩. والأضداد للصاغاني : ٢٤٠. ورسالة الأضداد للمنشي: ٥١ .

(123) تهذيب كتاب الأفعال: ٢/٤١٥. وينظر: الأضداد للأصمعي: ٢١. والأضداد للتوزي: ١٨٧. والأضداد لابن السكيت: ١٧٦. والأضداد للسجستاني: ١٤٧. والأضداد لأبي بكر الأنباري: ١٥٤-١٥٥. والأضداد للصاغاني: ٢٤٠.

(124) تهذيب كتاب الأفعال: ٢/ ٤١٣. وينظر: رسالة الأضداد للمنشي: ٣٩ .

(125) تهذيب كتاب الأفعال ٢/٤٥٨. ولم أقف عليه في كتب الأضداد .

(126) تهذيب كتاب الأفعال: ٢/٤٥٨. وينظر: الأضداد للسجستاني: ١٤١. والأضداد لأبي بكر الأنباري: ٧١. والأضداد للصاغاني: ٢٤١.

(127) تهذيب كتاب الأفعال: ٢/٤٦٤. وينظر: الأضداد للأصمعي: ٣٤. والأضداد للتوزي: ١٧٠. والأضداد لابن السكيت: ١٨٨. والأضداد للسجستاني: ٩٥. والأضداد لأبي بكر الأنباري: ٣١٥. والأضداد للصاغاني: ٢٤١. ورسالة الأضداد للمنشي: ٤٤ .

(128) تهذيب كتاب الأفعال: ٣/١٨. وينظر: الأضداد لأبي بكر الأنباري: ٣٩٢. والأضداد للصاغاني: ٢٤٣ .

- ق - القَشيب: الجديد من كل شيء. ع - وهو الخَلَق أيضاً. وهو من الأضداد[129].

- قَعَد قُعوداً ضدّ قام. ع - وأيضاً قامَ وهو من الأضداد[130].

- ق - قَفِص قَفَصاً: نَشِط وانبسط. ع - والأصابع من البرد: يبست. وتقبَّضت ضدٌّ[131].

- ق - قَمَأت الإبل قَمْأً وقُموءاً وقَمَاً: كثرت وحسن حالها. والشاة قمؤاً: سَمِنت. ع - وأيضاً هزلت ضدٌّ. وقَمُؤت كذلك. وهو من الأضداد[132]. أي: صغرت وهزلت.

- ق - قَنَعَ قُنوعاً: سأل. فهو قانِع.... ع - وقال بعض أهل العلم: إنّ القُنُوع قد يكون بمعنى الرضا. والقانِع بمعنى الرّاضي وهو من الأضداد[133] وأنشد:

وقـــالـــوا قـــد زهـــيـــت فـــقـــلـــت كلا ولـــكـــنـــي أعـــزّنـــي القُنوعُ[134]

وفي أمثال العرب: (خيرُ الغِنى القُنُوعُ. وشَرُّ الفَقْرِ الخُضُوعُ)[135].

(الكاف)

- كبا الزند كَبواً وأكبى: لم يُورِ ... ع - والزند: عظمت ناره ضدٌّ[136].

- كَتِعَ كَتَعاً: شمَّرَ في أمرِه. وأيضاً تقبَّض وهو من الأضداد[137].

---

(129) تهذيب كتاب الأفعال: ٣/٤٢. وينظر: الأضداد للأصمعي: ٥٩. والأضداد لأبي بكر الأنباري: ٢٦٣. والأضداد للصاغاني: ٢٤٢. ورسالة الأضداد للمنشي: ٣٥.

(130) تهذيب كتاب الأفعال: ٣/١٧. وينظر: الأضداد للسجستاني: ١٣٥، ١٥٠. والأضداد لأبي بكر الأنباري: ٢٤٧. والأضداد للصاغاني: ٢٤٢.

(131) تهذيب كتاب الأفعال: ٣/٣٨ ولم أقف عليه في كتب الأضداد.

(132) تهذيب كتاب الأفعال: ٣/٥٣. وينظر: الأضداد للتوزي: ١٨٨. والأضداد للسجستاني: ١٣٢. والأضداد لأبي بكر الأنباري: ٤٠٠. والأضداد للصاغاني: ٢٤٣.

(133) تهذيب كتاب الأفعال: ٣/١٢-١٣. وينظر: الأضداد للأصمعي: ٤٩. والأضداد لابن السكيت: ٢٠٢. والأضداد للسجستاني: ١١٦. والأضداد لأبي بكر الأنباري: ٦٦. والأضداد للصاغاني: ٢٤٢. ورسالة الأضداد للمنشي: ٤٥.

(134) البيت في مجمع الأمثال: ١/٢١٣. وتاج العروس (قنع): ٢٢/٨٩. ولسان العرب (قنع): ٧/٥١١ من غير نسبة.

(135) المثل في مجمع الأمثال: ١/٢١٣. وكتاب جمهرة الأمثال: ٢/٢٣٦.

(136) تهذيب كتاب الأفعال ٣/١٠٢. ولم أقف عليه في كتب الأضداد.

(137) تهذيب كتاب الأفعال ٣/٩٥. ولم أقف عليه في كتب الأضداد.

(اللام)

- لفَأت اللحم عن العظم لَفْأً: كشطته. ولَفَوْتُه لفوًا بلا همز كذلك ... ع - وأيضاً أعطاه حقَّه كلَّه. وأيضاً أعطاه بعض حقّه ضدٌّ[138].

(الميم)

- مَتَنَ بالمكان مُتوناً: أقامَ. وأيضاً سار يومَه أجمع ضدٌّ[139].

- المُفْرَح: المغموز وهو المسرور أيضاً ضدٌّ[140].

- ق - مَلَخَ اللجَامَ من رأس الدابة. والشيءَ من الشيء مَلْخاً: جَذَبَه ... ع - والإبلُ: أسرعت في سيرها. وأيضاً رفقت وهو من الأضداد[141].

- مَلَسَ: ساق الإبل سَوْقاً شديداً. وأيضاً سَوقاً سهلاً ضدٌّ[142].

(النون)

- ق - نَجُدَ نَجَادة ونَجْدة: شجع. ع - ونَجِد نَجَداً كذلك. والنجْدَة أيضاً الجبن. والخوف ضدٌّ[143].

- نَحَّ نَحيحاً: وهو صوت يردّده في جوفه. وبحمله: ضعف عنه. ونَحَاحَةً: سَخِي وأيضاً بخِل ضدٌّ[144].

- ق - نشدت الضالّة نِشدةً ونِشْداناً: طلبتها. ع - وأيضاً عَرَّفتها وهو من الأضداد[145].

- نَصَلَ السيف من قرابه. والخضاب والحافر وكل شيء نصولاً: خرج. والسهم وغيره في المرمى: ثبت نصله. ع - وأيضاً خرج منه النصل وهو من الأضداد[146].

- ق - أنصلت السهم: جعلت فيه نصلاً ... ع - ونصلْته: نزعت نصله. وأيضاً ركّبت عليه النصل من الأضداد[147].

---

(١٣٨) تهذيب كتاب الأفعال ٣/١٤٥. وينظر: الأضداد للأصمعي: ١٦. والأضداد للصاغاني: ٢٤٤.

(١٣٩) تهذيب كتاب الأفعال ٣/١٨٩. ولم أقف عليه في كتب الأضداد.

(١٤٠) تهذيب كتاب الأفعال ٢/٤٦٩. وينظر: الأضداد لأبي بكر الأنباري: ١٩٧.

(١٤١) تهذيب كتاب الأفعال ٣/١٨٩. ولم أقف عليه في كتب الأضداد.

(١٤٢) تهذيب كتاب الأفعال ٣/١٦٤. ولم أقف عليه في كتب الأضداد.

(١٤٣) تهذيب كتاب الأفعال ٣/٢١٩. وينظر: الأضداد للتوزي: ١٨٤. والأضداد لأبي بكر الأنباري: ٤٠٦، ورسالة الأضداد للمنشي: ٣٩.

(١٤٤) تهذيب كتاب الأفعال ٣/٢٦٧. وينظر: الأضداد للتوزي: ١٧٩. والأضداد للسجستاني: ١٤٩. والأضداد لأبي بكر الأنباري: ٢٩٣-٢٩٤. والأضداد للصاغاني: ٢٤٥. ورسالة الأضداد للمنشي: ٣٧.

(١٤٥) تهذيب كتاب الأفعال ٣/٢٢٥. وينظر: رسالة الأضداد للمنشي: ٣٩.

(١٤٦) تهذيب كتاب الأفعال ٣/٢٢٦. وينظر: الأضداد للصاغاني: ٢٤٦، ورسالة الأضداد للمنشي: ٤٨.

(١٤٧) تهذيب كتاب الأفعال ٣/٢٢٦. وينظر: الأضداد للصاغاني: ٢٤٦، ورسالة الأضداد للمنشي: ٤٨.

- ق - نَمشَ الشيءَ نَمْشاً: التقطه. ع - والجرادُ الكلأ: أكله وترك ضد[148].

(الهاء)

- ق - هَنِعَ الفرسُ هَنَعاً: طال عنُقُه والتوى. ع - والأكَمَة: قَصُرت وهو من الأضداد[149]

- ق - هَوَى الشيء: مات أو سقط في مهواة من شرف هواء ممدود وهويّاً ... ع - وقال أبو زيد: هَوَى: علا، وهَوَى: هبط وهو من الأضداد[150] إلا أنّ المصدرين مختلفيان، فالهَوِيُّ بفتح الهاء إلى أسفل، وبالضم إلى فوق، وأنشد في ذلك:

يهوي إلى قُبَّة من مَرقب عال[151]

فهذا إلى فوق.

(الواو)

- وراءَك ظرفٌ يذكر ويؤنث، ويكون بمعنى وراء وأمام، وهو من الأضداد[152]. قال الله تعالى: ﴿وكان وراءَهُم ملِكٌ يأخُذُ كلَّ سَفِينَة غَصْباً﴾[153] أي: أمامهم.

- ق - وَسِنَ وسَنَاً: نام. ع - وأيضاً استيقظ ضد[154].

- ق - وَشَلَ الماء واللبن وُشولاً ووَشَلاناً: قلّ ... ع - والرجل وشولاً: قل غناؤه وضعف، وحظه: نقص، والناقة: كثر لبنها، وكأنه من الأضداد[155]

---

(١٤٨) تهذيب كتاب الأفعال ٣/٢٦٠ ولم أقف عليه في كتب الأضداد.

(١٤٩) تهذيب كتاب الأفعال ٣/٣٥٢ ولم أقف عليه في كتب الأضداد.

(١٥٠) تهذيب كتاب الأفعال ٣/٣٦٣، وينظر: الأضداد للتوزي: ١٧٠، والأضداد للسجستاني: ١٠٠، والأضداد لأبي بكر الأنباري: ٢٧٩، والأضداد للصاغاني: ٢٤٨، ورسالة الأضداد للمنشي: ٥١.

(١٥١) لم أعثر عليه.

(١٥٢) شروح شعر المتنبي (مجموع من شعر المتنبي وغوامضه لابن القطّاع الصقلي) ٠ ١٦٣، وينظر: الأضداد للصاغاني: ٢٠، والأضداد للتوزي: ١٧٢، والأضداد لابن السكيت: ١٧٥؛ والأضداد للسجستاني: ٨٢، والأضداد لأبي بكر الأنباري: ٦٨-٧٠، ورسالة الأضداد للمنشي: ٥١.

(١٥٣) سورة الكهف من الآية (٧٩).

(١٥٤) تهذيب كتاب الأفعال ٣/٣٢٢ ولم أقف عليه في كتب الأضداد.

(١٥٥) تهذيب كتاب الأفعال ٣/٣٠٢ ولم أقف عليه في كتب الأضداد.

فهارس عامة

فهرس الآيات القرآنية

اسم السورة	الآيــــة	رقم الآية	الصفحة
الكهف	﴿وكان وراءهم ملكٌ يأخذ كلَّ سفينة غصْباً﴾	٧٩	٢٢
الكهف	﴿فمَنْ كانَ يرْجُو لقاءَ ربِّه﴾	١١٠	١٤
سبأ	﴿حتَّى إذا فُزِّعَ عَنْ قُلوبهم﴾	٢٣	٩
التكوير	﴿وإذا البِحَارُ سُجِّرتْ﴾	٦	١٥

فهرس الأحاديث النبوية

الحديث النبوي	الصفحة
(أطلت). (فأكرينا في الحديث)	٩
(إنكم لتقلّون عند الطمع وتكثرون عند الفزع)	٩
(الحساءُ يَرْتو فؤاد الحَزين)	١٤
(نهى أن يُبال في الماء الدائم)	١٣

فهرس الشعر

الروي	القافية	البيت الشعري	الصفحة
د	مُجْحِد	....ولم تتبع حَمولةَ مُجْحِد	٧
ع	القنوع	وقالوا قد زُهيت فقلت كــلا ولكنّي أعــزّني القنــوع	٢٠
ل	عال	يهوي إلى قُبَّة من مرقَب عالٍ	٢٢
ي	جَادِيَا	جَدَوْتُ أُنَاساً مُوسِرين فما جَدَوا إلا الله فاجْدُوه إذا كنت جاديًا	١١

فهرس الأمثال

المثــــل	الصفحة
خيرُ الغِنَى القُنوع. وشرُّ الفقر الخضوع	٢٠

المصادر والمراجع

- أبنية الأسماء والأفعال والمصادر - لأبي القاسم علي بن جعفر ابن القطّاع الصقلي (ت - ٥١٥هـ). تحقيق الدكتور أحمد محمد عبد الدايم. طبعة خاصة هدية لطلاب كلية دار العلوم. دار الهاني للطباعة. ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

- الأزمنة والأمكنة - لأحمد بن محمد المرزوقي (ت - ٤٢١هـ). طبعة حيدر آباد. ١٣٣٢هـ.

- إصلاح المنطق - لأبي يوسف يعقوب بن السكيت (ت - ٢٤٤هـ). تحقيق أحمد محمد شاكر. وعبد السلام محمد هارون. ط/٣. دار المعارف - مصر. ١٩٧٠م.

- الأضداد - لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري (ت - ٣٢٨هـ). تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دائرة المطبوعات والنشر - الكويت. ١٩٦٠م.

- الأضداد - لأبي حاتم السجستاني (ت - ٢٥٥هـ) طبع ضمن ثلاثة كتب في الأضداد. نشره أوغست هفنر. دار الكتب العلمية. بيروت - لبنان. ١٩١٣م.

- الأضداد - لأبي الحسن محمد بن الحسن الصاغاني (ت - ٦٥٠هـ) طبع ملحق مع ثلاثة كتب في الأضداد. نشره أوغست هفنر. دار الكتب العلمية. بيروت - لبنان. ١٩١٣م.

- الأضداد - لأبي سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي (ت - ٢١٦هـ). طبع ضمن ثلاثة كتب في الأضداد. نشره أوغست هفنر. دار الكتب العلمية. بيروت - لبنان. ١٩١٣م.

- الأضداد - لأبي محمد عبد الله بن محمد التوزي (ت - ٢٣٣هـ). تحقيق الدكتور محمد حسين آل ياسين. مجلة المورد. المجلد/٨. العدد/٣. سنة ١٩٧٩م.

- الأضداد - لأبي يوسف يعقوب بن السكيت (ت - ٢٤٤هـ). طبع ضمن ثلاثة كتب في الأضداد. نشره أوغست هفنر. دار الكتب العلمية. بيروت - لبنان. ١٩١٣م.

- الأضداد في كلام العرب - لأبي الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي (ت - ٣٥١هـ). تحقيق الدكتور عزة حسن. مطبوعات المجمع العلمي العربي - دمشق. ١٣٩٠هـ - ١٩٧١م.

- إنباه الرواة على أنباء النحاة - لجمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي (ت - ٦٤٦هـ). تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. ط/١. مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة. ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م.

- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة - لأبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت - ٩١١هـ). تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. ط/١. المكتبة العصرية للطباعة والنشر. بيروت - لبنان.

- تاج العروس من جواهر القاموس - للإمام محب الدين أبي فيض السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي (ت - ١٢٠٥هـ). تحقيق جماعة من العلماء. مطبعة حكومة دولة الكويت. ١٩٦٥-١٩٩٨م إلى حرف اللام.

- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام - لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت - ٧٤٨هـ). تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري. دار الكتاب العربي - بيروت.

- التكملة لوفيات النقلة - لأبي محمد عبد العظيم بن عبد القويّ المنذري (ت - ٦٥٦هـ). تحقيق الدكتور بشار عواد. ط/٢. مؤسسة الرسالة - بيروت. ١٩٨١م.

- تهذيب كتاب الأفعال (المطبوع خطأ بعنوان كتاب الأفعال) - لأبي القاسم علي بن جعفر المعروف بابن القطّاع (ت - ٥١٥هـ). ط/١، عالم الكتب - بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

- جمهرة الأمثال - لأبي هلال العسكري (ت - بعد ٣٩٥هـ). تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وعبد المجيد قطامش. دار الفكر - بيروت، ط/٢، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

- الجهود اللغوية لابن القطّاع الصقلي (ت - ٥١٥هـ). مع تحقيق رسائله في اللغة - خليل محمد سعيد مخلف. أطروحة دكتوراه - كلية التربية - جامعة الأنبار ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

- خريدة القصر وجريدة العصر - للعماد الأصفهاني (ت - ٥٩٧هـ) تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم، دار نهضة مصر للطبع والنشر، مطبعة الرسالة - مصر.

- الدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة (جزيرة صقلية) - لأبي القاسم علي بن جعفر المعروف بابن القطّاع الصقلي (ت ٥١٥هـ)، جمع وتحقيق بشير البكوش، ط/١، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ١٩٩٥م.

- ديوان زهير بن أبي سلمى - شرح وتقديم علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط/١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

- رسالة الأضداد للمنشي - لمحمد جمال الدين بن بدر الدين المنشي (ت - ١٠٠١هـ)، تحقيق الدكتور محمد حسين آل ياسين، ط/١، مكتبة الفكر العربي للنشر والتوزيع - بغداد، ١٩٨٥م.

- سنن النسائي - أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي (ت - ٣٠٣هـ)، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية - حلب - ط/٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

- سير أعلام النبلاء - لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت - ٧٤٨هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط - ط/٤، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب - لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت - ١٠٨٩هـ) دار الفكر للطباعة - بيروت.

- شرح ديوان الفرزدق - ضبط معانيه وشرحها إيليا الحاوي، منشورات دار الكتاب اللبناني - مكتبة المدرسة، ط/١، ١٩٨٣م.

- شروح شعر المتنبي (مجموع من شعر المتنبي وغوامضه لابن القطّاع الصقلي)، المطبوع خطأ بعنوان (شرح المشكل من شعر المتنبي)، تحقيق الدكتور محسن غياض عجيل، ط/١، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق - بغداد، ٢٠٠٠م.

- الفائق في غريب الحديث - للإمام جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت - ٥٣٨هـ). تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، ط/٢، دار المعرفة، بيروت - لبنان.

- فقه اللغة العربية - الدكتور كاصد ياسر الزيدي، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر - جامعة الموصل، ١٤١٧هـ - ١٩٨٧م.

- كتاب الأفعال - لأبي بكر محمد بن عمر بن القوطيّة (ت - ٣٦٧هـ)، تحقيق علي فودة، ط/١، مطبعة مصر - ١٩٥٢م.

- كتاب الطوال - لأبي القاسم علي بن جعفر المعروف بابن القطّاع (ت - ٥١٥هـ). محقق مع رسائله الأخرى في (الجهود اللغوية لابن القطّاع الصقلي (ت - ٥١٥هـ) مع تحقيق رسائله في اللغة) تحقيق خليل محمد سعيد مخلف، أطروحة دكتوراة، كلية التربية - جامعة الأنبار، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

- لسان العرب - لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المعروف بابن منظور (ت - ٧١١هـ). طبعة مراجعة ومصححة، دار الحديث - القاهرة، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

- مجمع الأمثال - لأبي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد الميداني (ت - ٥١٨هـ). قدم له وعلق عليه نعيم حسين زرزور، ط/١،

دار الكتب العلمية. بيروت - لبنان. ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

- مسند الإمام أحمد بن حنبل - لأبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني (ت - ٢٤١هـ). مؤسسة قرطبة - القاهرة.

- معجم الأدباء - لشهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي (ت - ٦٢٦هـ). مطبوعات دار المأمون. الطبعة الأخيرة. دار إحياء التراث العربي. بيروت - لبنان.

- معجم السفر - لأبي طاهر أحمد بن محمد بن أحمد الأصفهاني السلفي (ت - ٥٧٦هـ). الجزء الأول. تحقيق الدكتورة بهيجة الحسني. دار الحرية للطباعة - بغداد. ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

- النهاية في غريب الحديث والأثر - للإمام مجد الدين أبي سعادات المبارك محمد بن الأثير الجزري (ت - ٦٠٦هـ). تحقيق محمود محمد الطناحي. وطاهر أحمد الزاوي. ط/٢. دار الفكر - بيروت. ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (ت - ٦٨١هـ). تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار صادر - بيروت. ١٩٧٧م.

